مجلد ٦ — عدد ٢١ يونيو ١٩٤٧

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

طه حسين	ملاحظات	٩
محمد رفعت	مصر والسودان	٢٢
محمود تيمور	شيخ الخفر . . . (قصة)	٣٧
خليل مطران	غاية الفن (قصيدة)	٤٩
سليمان حزين	رابطة الماء فى وادى النيل	٥١
محمد عبدالله عنان.....	تطور الدبلوماسية الأمريكية	٦٣
حسن محمود	امير تركى فى قصر البابا	٧١
محمد مهدى الجواهرى	يوم البطل جعفر أبو التمن (قصيدة)	٨١
رفائيل بطى	معروف الرصافى......................	٨٥
ريمون فرنسيس	ثلاث شخصيات فى مسرحيات سوفوكليس	٩٤
هيلديه زالوشر	الفن البذوى	١٠٣
جبور عبد النور	معالم الوثنية فى رسائل عند اخوان الصفاء	١١٦
على الخطيب	فى الأرض (قصيدة)	١٣٢

من هنا وهناك (إميل غالى)

شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح — شهرية السينما

من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً

فى مجلات الشرق — فى مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
القاهرة

محمد عبد الحليم عبد الله

لقيطة

قصة

جائزة فاروق الأول للقصة

من مجمع فؤاد الأول للغة العربية

الثمن ٢٥ قرشاً
البريد ٢٤ مليما



٢٥٠ صفحة

فرنسوا مورياك

والدة

تعريب محمد عبد الحميد عنبر و عبد المجيد عابدين



الثمن ٢٠ قرشاً
البريد ١٦ مليما



١٧٥ صفحة

الكاتب المصرى
مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة
تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤
الادارة : ٥٤٢٧٣-٤٧٨١٥-٤٥٠٣٤



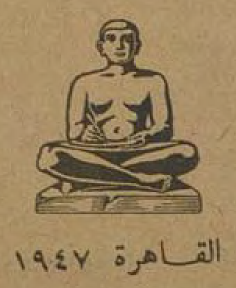
AL KATEB EL MASRI
Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)
Editor-in-chief : Taha Hussein



رئيس التحرير

طه حسين

مجلد ٦



القاهرة ١٩٤٧

الكاتب المصرى

رجب ١٣٦٦ — يونيو ١٩٤٧

السنة الثانية — مجلد ٦ – عدد ٢١

ملاحظــــات

ما زال الأدباء الفرنسيون يجادل بعضهم بعضاً ، حول موضوع يراه بعضهم خطيراً ، ويراه أكثرهم لا خطر له ، وهو التزام الأديب حين ينشئ أدبه ، واحتماله تبعة ما يكتب بأوسع معانى هذه الكلمة ، كلمة التبعة ، واتصاله حين يكتب بحقائق الحياة الواقعة التى تحيط به .

وقد عرضت هذا الموضوع عرضاً مفصلا فى هذا المكان نفسه من « الكاتب المصرى » فى أول شهر أغسطس الماضى . وكنت أظن أنها خصومة قد انقضت أو توشك أن تنقضى ، ولكنها فيما يظهر ما تزال قائمة ، وما يزال الكتاب الفرنسيون يبدئون فيها ويعيدون . وصاحب هذا الرأى هو جان بول سارتر أديب « الوجوديين » الفرنسيين فى هذه الأيام ؛ فهو الذى يكتب فى هذا الموضوع فيطيل ، وهو الذى لا يسأم التكرار فى هذه القضية ، حتى كأنه يتحدى خصومه ويريدهم على أن يجادلوه أو يعطوه أيديهم وينزلوا عند رأيه .

وقد استأنف الحديث فى هذه القضية فى مجلته « العصر الحديث » منذ أشهر ، فبدأ فى نشر دراسة مفصلة ، عنوانها « ما الأدب ؟ » وموضوعها الدقيق هو التزام الأديب حين يكتب ، واحتماله تبعة ما يكتب ، ووجوب أن يكون متصلا حين يكتب بما يحيط به من واقع الحياة .

وقد وصل إلىّ أكثر ما كتب فى هذه الدراسة الأخيرة ، وقد نشر فى عددى فبراير ومارس من هذا العام ، وما زالت لهذه الدراسة بقية نشرت فى عدد أبريل الذى لم يصل إلىّ الآن ، ولعلها تجاوزت هذا العدد إلى عدد

مايو أيضاً . وما كان بى أن أعود إلى هذا الحديث لولا أن الدراسة التى ينشرها جان بول سارتر ، قيمة حقا ، فمن النافع أن يلم بها قراء اللغة العربية ؛ ولولا أن فى هذه الدراسة القيمة ملاحظات مختلفة يتصل بعضها بالفن الخالص ويتصل بعضها بالأدب ويتصل بعضها بالفلسفة ، و يمس بعضها ما يكون بين الكاتب وقارئه من صلة ، ومن النافع كذلك أن يظهر قراء العربية على مثل هذه الملاحظات ؛ ولولا أن فى هذه الدراسة القيمة أيضاً أحكاماً يخيل إلىّ أنها أرسلت إرسالا ، أو أنها نشأت عن التكلف والتحذق والحرص على تحدى الخصوم ، ومن النافع لقراء العربية أن يظهروا على بعض هذه الأحكام ، وأن يحذروا منها ومن أمثالها .

وقد قسم الكاتب دراسته ثلاثة أقسام ، الأول عنوانه : ماذا نكتب ؟ والثانى عنوانه : لماذا نكتب ؟ والثالث عنوانه : لمن نكتب ؟

وقد يكون من الطريف أن يرى القارئ كيف يبدأ جان بول سارتر دراسته عنيفاً متحدياً لخصومه ساخراً منهم غير حافل بهم وغير متردد فى أن يتهمهم بالعناد أو بالغباء . فهو يقول فى أول بحثه : « كتب إلىّ مغفل يقول : « إذا أردت أن تلتزم فما يمنعك أن تنضم إلى الحزب الشيوعى ؟ » وقال لى كاتب كبير التزم كثيراً ، وتحرر أكثر مما التزم ، ولكنه نسى التزامه وتحرره : «إن أسخف الفنانين أشدهم التزاماً ، وانظر إلى المصورين السوفييتيين » وشكا ناقد شيخ فى هدوء قائلا : « إنك تريد أن تقتل الأدب ؛ فان ازدراء الأدب الرفيع يشيع وقحاً بغيضاً فى مجلتك » . ويصفنى صاحب عقل صغير بأنى قوى العقل ، وهو وصف يرادف عنده الاهانة كل الاهانة . وكاتب آخر يزحف متثاقلا من حرب إلى حرب ويثير اسمه ذكريات متهالكة عند الشيوخ يلومنى لأنى لا أحفل بالخلود ، وهو يعرف والحمد لله كثيراً من كرام الناس يعقدون به أعظم آمالهم . ويرى صحفى أمريكى ضئيل أن خطيئتى ، هى أنى لم أقرأ برجسون ولا فرويد . أما فلوبير الذى لم يلتزم فيظهر أنه يساورنى كأنه الندم . وبعض الماكرين يغمضون عيونهم قائلين : « والشعر ؟ والموسيقى ؟ والتصوير ؟ أتريد أن تلزمها هى أيضاً ؟ » وبعض أصحاب العقول المتهيئة للحرب يقولون : ما القصة ؟ أتريد الأدب الملتزم ؟ فهى إذن طريقة الاشتراكيين المحققين القدماء إلا أن يكون تجديداً عنيفاً للشعبية القديمة .

« ما أكثر الحماقات ! وما أسرع ما يقرأ الناس وما أقل ما يفهمون ! وما أكثر ما يحكمون قبل أن يفهموا ! فلنستأنف الحديث إذن ، وهو حديث لا يسلى أحداً ، ولكن يجب أن نثبت المسمار . »

على هذا النحو العنيف الساخر ، يبدأ جان بول سارتر دراسته . وهو يهاجم النقاد ؛ لأنهم يتحدثون دائماً عن الأدب دون أن يبينوا ما يريدون بهذه الكلمة . وهو يريد أن يعيد تحديد الأدب من جديد على طريقة ديكارت الذى يتخفف قبل كل شئ من أثقال الأوهام والتقاليد ، وما اتفق الناس على تسميته بالحقائق المقررة . وأول هذه الأوهام التى يريد الكاتب أن يتخفف منها قبل أن يعرّف الأدب هو هذا الوهم الذى يدفع كثيراً من الناس إلى إيجاد صلة دقيقة لازمة بين الأدب والفنون الرفيعة . فبعض الأدباء يتحدثون عن الموسيقى والتصوير حين يذكرون أدبهم ، وبعض الموسيقيين والمصورين يذكرون الأدب حين يتحدثون عن موسيقاهم وتصويرهم . وما من شك فى أن هذه الفنون الرفيعة تتشابه من حيث إنها وسائل للتعبير عن إحساس الجمال والشعور به ، ووسائل أيضاً لإشراك غيرك معك فيما تحس من جمال بواسطة تعبيرك عن هذا الاحساس .

ولكن هذا شئ ، والاتصال الدقيق بين هذه الفنون بحيث تصدق عليها كلها أحكام دقيقة مشتركة شئ آخر . فاذا قيل إن الأدب يجب ان يلتزم ، ويحتمل التبعات ويتصل بحقائق الحياة ، فليس معنى هذا أن الفنون الرفيعة الأخرى يجب أن تخضع لهذا الحكم ؛ لأن هذه الفنون الرفيعة الأخرى تغاير الأدب مغايرة جوهرية . فالموسيقى قوامها الأصوات الخالصة ، والتصوير قوامه الألوان ، والأدب قوامه الألفاظ . وهذه المواد متغايرة فى جوهرها ، فيجب أن تتغاير فى آثارها وفيما تخضع له من الأحكام . فالأصوات التى تتألف منها الموسيقى ، والألوان التى تأتلف منها الصورة ، ليست علامات يراد بها شئ آخر غيرها ، وإنما هى أشياء قائمة بنفسها مستغنية بنفسها ، تأتلف فتدل على شئ ؛ أو بعبارة أصح : تأتلف فتنشئ شيئاً هو القطعة الموسيقية أو الصورة ، على حين أن الألفاظ فى نفسها ليست أشياء مستقلة ، وإنما هى علامات يدل بها على أشياء أخرى غيرها . والمصور حين ينشئ صورة بيت حقير لا يدل بصورته هذه على شئ أكثر من البيت الحقير الذى عرضه ، وهو لا يوحى إليك بما قد يكون فى هذا

البيت الحقير من بؤس وضنك وحرمان وعذاب ؛ لأنه لم يرد إلى ذلك، وإنما أراد إلى أن ينشئ بيتاً حقيراً فأنشأه، على حين يدل الكاتب حين يصف هذا البيت الحقير على أكثر من البيت، يدل على ما يحتويه هذا البيت من آلام وأحزان وحسرات ويأس، وقد يبلغ بل هو يبلغ بك إلى أبعد من هذا، فيثير فى نفسك عواطف الاشفاق والرحمة، أو عواطف الغيظ والغضب. ويثير فى نفسك بعد ذلك الرغبة فى الاصلاح الاجتماعى، وقد يدفعك إلى محاولة الاصلاح دفعاً.

فالألفاظ إذن وسائل غايتها المعانى التى هى عواطف وأحكام وحقائق خارجية. وليس هناك أمل فى أن تطلب الألفاظ لنفسها أو يعنى بها الانسان من حيث هى ألفاظ، إلا أن يكون مريضاً أو مجنوناً. وإذن فلا غرابة فى أن يطلب إلى الكاتب أشياء لا تطلب إلى المصور ولا إلى الموسيقى ؛ لأن فن الكاتب مغاير فى مادته وجوهره لفن المصور والموسيقى.

إلى أى حد تستقيم هذه الملاحظة أو يستقيم هذا الحكم المطلق الذى يقرره جان بول سارتر واثقاً به مطمئنا إليه، مستعلياً به على خصومه ؟ أما أن بين الألفاظ التى يأتلف منها الأدب، والأصوات والألوان التى يأتلف منها التصوير والموسيقى تغايراً فى المادة، فشئ ليس فيه شك ولا معنى للمراء فيه. وإنما الذى أشك فيه شكا كثيراً، هو أن المصور حين يرسم البيت الحقير لا يزيد على أن يرسم بيتاً حقيراً، ولا يزيد على أن يشعرك بأنه قد أتقن التصوير أو لم يتقنه. وأكبر الظن أن كثيراً من آيات المصورين لا تثير الاعجاب بالجمال وحده، ولكنها تثير وراء هذا الاعجاب عواطف أخرى قد تغير من اتجاه الانسان فى حياته، وقد تحوله عن طريق إلى طريق، وقد تدفعه إلى محاولات عملية تغير من حياته ومن حياة الناس من حوله، وأمر الموسيقى كأمر التصوير وغيره من الفنون الرفيعة المختلفة.

وكل ما يمكن أن يسلم للكاتب، هو أن الأدب أصرح وأفصح وأوضح دلالة من الفنون الأخرى التى تعتمد على الرمز والايماء أكثر مما تعتمد على التعمق والاستقصاء الدقيق. فاذا استباح جان بول سارتر لنفسه أن يلزم الأدب ويحمله التبعات لأنه يعيش فى بيئة فيجب أن يصور هذه البيئة ويصلحها ويحتمل معها تبعاتها، فقد يجوز أن نطالب المصورين والموسيقيين والمثالين بمثل ما نطالب به الأدباء من الالتزام واحتمال التبعات، ويخيل إلىّ أنهم

لم ينتظروا أن نطالبهم بهذا الالتزام ؛ فالذين صوروا مشاهد الدين وأقاموا المساجد والكنائس والتماثيل التى تصور هذا الشخص أو ذاك وهذه الفكرة أو تلك ، مهما تكن شخصيتهم وعبقريتهم واستقلالهم ؛ قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها وأثروا فى هذه البيئة وفى البيئات الأخرى التى عاصرتها أو تبعتها ؛ فهم إذن ملتزمون مشاركون فى احتمال التبعات . وقد يكون الفرق عظيما هائلا بين تصريح الأدب ، وتلميح التصوير ، ولكن الشىء المحقق أن تأثير الفن فى إذكاء العواطف الدينية مثلا ، ليس أقل من تأثير الكلام .

وملاحظة أخرى : يخيل إلىّ أن جان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وهى التى تتصل بالشعر . فهو يريد أن يلزم الشعر كما يلزم النثر . وهو يتوسل إلى ذلك بنفس المنهج الذى أعفى به الفنون الرفيعة الأخرى من الالتزام . وهو يعترف بأن الشعر يأتلف من الألفاظ التى يأتلف منها النثر . ولكنه يرى مصيباً أن نظر الشاعر إلى الألفاظ يخالف أشد المخالفة لنظر الناثر إليها . فالألفاظ عند الناثر وسائل لا أكثر ، وهى عند الشاعر غايات يريد الكاتب بألفاظه أن يؤدى المعانى ، ويريد الشاعر أن يجد فى الألفاظ نفسها جمالا خاصا يستكشفه ويحققه بما يحدث بين هذه الألفاظ من الائتلاف .

ولا يستطيع جان بول سارتر أن يقصر عناية الشاعر على الألفاظ وما يكون من ائتلافها واختلافها ؛ فهناك معان وحقائق يحاول الشاعر أن يدل عليها بشعره ، ولكن هذه المعانى والحقائق ليست هى الأشياء التى يقصد إليها الشاعر مباشرة حين ينظم الشعر ، وإنما هو يجد هذه المعانى فى نفسه ويجد هذه الحقائق فى الخارج ، ويحاول أن يتخذ من الألفاظ رموزاً لها وصوراً تدل عليها من بعيد .

وإذن فلا حرج على الشاعر إذا لم يلتزم ، ولم يحتمل التبعات ، ولم يتصل بحقائق الحياة الواقعة الانسانية متأثراً بها مؤثراً فيها دافعاً إلى تغييرها إن احتاجت إلى التغيير ، وإلى صيانتها إن احتاجت إلى الصيانة والبقاء . وهذا حق فى جملته ، ولكن جان بول سارتر إنما يتحدث عن الشعر المعاصر عند بعض الأوربيين ، أو عن بعض المذاهب لبعض الشعراء المعاصرين . وأمامه مشكلة خطيرة لم يحلها ، بل لم يحاول أن يحلها ، بل لم يشر إليها من قريب أو بعيد ، وهى أن الانسانية المثقفة تكلمت شعراً قبل أن تتكلم نثراً ، وأدت بالشعر أغراض الحضارة كلها فى وقت من الأوقات . فقد كان الشعراء إذن

يلتزمون و يحتملون التبعات . يتأثرون بالحياة الواقعة . ويؤثرون فيها إلى حد أن كان الشعر بالقياس إلى الانسانية القديمة مصدراً خطيراً من مصادر التاريخ . ومن أسخف السخف أن يقال إن شعراء الالياذة والأودسة والشعراء الغنائيين والممثلين عند اليونان والرومان وفى العصر الحديث ، لم يكونوا يلتزمون ولم يكونوا يقصدون إلى المعانى فى أنفسها ، ولم يكونوا يتخذون الألفاظ وسائل إلى هذه المعانى .

وهناك حقيقة أدبية أخرى لم يلتفت إليها جان بول سارتر مريداً أو غير مريد ألا يلتفت إليها ، وهى أن الكتاب الناثرين قد يذهبون مذهب الشعراء ، فيعنون بالألفاظ فى أنفسها ويتخذونها غاية فنية ، ومظهراً من مظاهر الجمال ، ووسيلة إلى إثارة الاعجاب والبهجة اللذين يثيرهما الشعر . وسواء أكان هذا الفن النثرى مشروعاً كما يقول أصحاب القانون ، أم غير مشروع ، فانه موجود وموجود فى الآداب الكبرى كلها قديمها وحديثها . والباحث المنصف يجب عليه أن يأخذ الظواهر كما يجدها لا كما يريد أن تكون . ومن الظواهر الأدبية الواقعة المحققة أن الشعراء قد يقصدون إلى المعانى ويتخذون الألفاظ وسائل إليها ، وأن الكتاب قد يعنون بالألفاظ ويتخذونها فى أنفسها مادة للفن .

فاذا كان الالتزام واحتمال التبعات منوطاً باعتبار الألفاظ وسائل والمعانى غايات ، فأصحاب المعانى من الشعراء والكتاب سواء فى الالتزام ، وأصحاب الألفاظ من الشعراء والكتاب سواء فى التحرر من هذا الالتزام . والنتيجة البسيطة الواضحة التى ننتهى إليها ، هو أن كاتبنا الوجودى العظيم قد يكون موفقاً فى الفلسفة ، و إن كان الفلاسفة لا يعترفون له بهذا التوفيق ، ولكن المحقق أنه ليس موفقاً فى الأدب ، وأن أحكامه على الشعر والنثر والفنون الرفيعة حين تتصل بقضية الالتزام هذه تقوم على التحكم أكثر مما تقوم على أى شئ آخر .

وقد رأيت أن المصورين والمثالين والبنائين والموسيقيين يمكن ان يلتزموا ويحتملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات ، و أن الشعراء يمكن أن يلتزموا ويحتملوا التبعات ، وقد التزموا بالفعل واحتملوا التبعات قبل أن يوجد النثر ، وبعد أن وجد النثر ، وفى العصر الذى نعيش فيه ، وفى البيئة التى يعيش فيها جان بول سارتر نفسه .

فشعراء المقاومة الفرنسية قد التزموا بشعرهم وعرّضوا أنفسهم بهذا الشعر لأخطار هائلة ، فاحتملوا من التبعات المعنوية والمادية ما يعرفه جان بول سارتر حق المعرفة . ولست أدرى أيكون هؤلاء الشعراء منتمين إلى أحزابهم السياسية اليسارية لأنهم التزموا بشعرهم ففرض عليهم هذا الشعر أن يكونوا يساريين ، أم يكون هؤلاء الشعراء شعراء ملتزمين محتملين للتبعات لأنهم يساريون دفعتهم تبعات أحزابهم إلى أن يقولوا ما قالوا من الشعر . ولكنى حسن الظن بالانسانية ، وبالانسانية المثقفة الممتازة . وأنا أرى من أجل ذلك أن أراجون مثلا شيوعى ، لأن شعره دفعه إلى الشيوعية ، لا أنه شاعر لأن شيوعيته دفعته إلى الشعر أو فرضت عليه الشعر فرضاً .

فالفن الرفيع سواء أكان أدباً منثوراً أو منظوماً أم شيئاً آخر غير الأدب أوسع جوًّا من هذه الأغراض الضئيلة التى يختصم حولها الناس . فأراجون مثلا له شعره السياسى ، ولكن له أيضا شعره الخالص الذى لا يتصل بالسياسة من قريب أو بعيد ، ولا يمس الاصلاح الاجتماعى أو النظام السياسى . وهو ملتزم دائماً ملتزم حين يمس السياسة والاجتماع أمام الفن أولا وأمام الجماعة ثانياً ، وملتزم حين لا يمس السياسة ولا الاجتماع أمام الفن نفسه . وحسبك بالفن محاسباً عسيراً يعرف كيف يأخذ الفنانين بما يجب أن يحتملوا من التبعات .

وملاحظة أخرى لجان بول سارتر لم يوفق فيها للصواب كله ، وإنما وفق فيها لسخرية ظريفة طريفة لعلها أن تعفيه من تبعات الخطأ الذى تورط فيه ؛ فهو قد عرض للنقد والنقاد عرضاً رائعاً حقا ، ولكنه بعيد عن الانصاف أيضاً . وأكبر الظن أن مصدر جوره على النقاد أنهم لا يرفقون به ولا يرقون له ولا يعطفون عليه . فهو يزعم أن النقاد إنما يعنون بالموت أكثر مما يعنون بالحياة ، وبالأموات أكثر مما يعنون بالأحياء . وهو يصور لنا الناقد ضيقاً بامرأته التى تعنف به ، وبأبنائه الذين يثقلون عليه هارباً منهم إلى خزانة كتبه حيث يعاشر الموتى من الكتاب ، يفزع إلى معاشرتهم ويأنس بهذه المعاشرة ويستعين بها على كسب القوت حين ينقضى الشهر . وهذا فى نفسه كلام ظريف قد تكون له روعته وجماله ، ولكنه فى حقيقة الأمر كلام فارغ لا يدل على شئ . فسواء أراد جان بول سارتر أم لم يرد ، فقدماء الكتاب والشعراء والفلاسفة قد ماتت أجسامهم ، ولكن نثرهم وشعرهم وفلسفتهم لم تمت . والنقاد

يعيشون على هذه الآثار الخالدة الحية كما يعيش عليها جان بول سارتر نفسه . وهو فى هذه الدراسة نفسها يذكر كانتْ وهيجل وقد ماتا منذ زمن طويل ، ولكن فلسفتهما ما زالت حية تغذوه هو وتغذو غيره من الوجوديين ، كما تغذو النقاد الذين لا يحبهم جان بول سارتر ، لأنهم لا يحبونه ولا يهدون إليه الثناء . ومن أسخف السخف أن يقول قائل إن معاشرة أفلاطون وسيسيرون والجاحظ وفولتير ، إنما هى حياة مع الموتى و إقامة بين القبور . فإن هذا الكلام إن دل على شئ فإنما يدل على الحنق والغيظ والغرور . وأكبر الظن أن جان بول سارتر لم يرد به إلا إلى أن يغيظ النقاد و يحفظهم ويسخر منهم شفاء لبعض ما فى صدره من موجدة .

على أن من الحق أن جان بول سارتر قد أتيح له التوفيق حين عرض للقسم الثانى من دراسته ، وهو « لماذا نكتب » ، و إن كان يغلو فيما يقرر فى هذا القسم من الأحكام كما يغلو فى أكثر أحكامه . فهو مثلا لا يؤمن بأن الكاتب قد يكتب لنفسه لا للناس . ومن المحقق أن الكاتب يكتب للناس ، ولكن من المحقق أيضاً أن كثيراً من الكتاب والشعراء يخدعون أنفسهم أو يخدعون عن أنفسهم فيعتقدون مخلصين أنهم لا يكتبون لأحد غير أنفسهم ، وأنهم لم يريدوا أن يذيعوا ما كتبوا ، و إنما أكرهوا على ذلك إكراهاً : أكرههم على ذلك أصدقاؤهم والمعجبون بهم ، واختلست منهم آثارهم اختلاساً ، فنشرت على غير رضًا منهم ، وأذيعت على غير رغبة منهم فى أن تذاع . ولست أدرى أين قرأت أن بول فاليرى أنشأ مقبرته البحرية ، وجعل يعيد النظر فيها وقتاً طويلا مغيراً ومبدلا ، يحذف من هنا ويضيف إلى هناك ، حتى زاره جاك ريفيير ، فاختطف القصيدة منه اختطافاً ، وكان هذا أول إذاعتها .

وما أشك فى أن الكتاب والشعراء والفنانين يخدعون أنفسهم ، ولكنى لا أشك فى أنهم كثيراً ما يخلصون فى هذا الخداع أو الانخداع . ومن الناس من لا يكره إطالة النظر فى المرآة ، ومنهم من لا يكره إطالة العكوف على نفسه والانحناء على أعماقها . فليس ما يمنع أن يكتب بعض الكتاب ليتخفف مما يثقله من الخواطر والآراء ، ثم يجد اللذة فى أن ينظر فيما كتب مصلحاً له يلتمس الكمال ، أومحدقاً فيه كما يحدق فى المرآة .

ولكن أكثر الكتاب والشعراء والفنانين ينتجون للناس قبل أن ينتجوا لأنفسهم ، أو قل مع جان بول سارتر إنهم ينتجون لأنفسهم وللناس . فالانتاج الأدبى عندهم مشاركة متصلة بين الكاتب والقارئ ، أو بين المنتج والمستهلك ، كما يقول أصحاب الاقتصاد .

ولكن لماذا يكتب الكاتب ؟ ولماذا يقرأ القارئ ؟ وما عسى أن تكون القوانين التى تنظم الصلة بين القارئ والكاتب ، أو التى تصف هذه الصلة وصفاً دقيقاً وتصورها تصويراً صادقاً كما تصف قوانين العلم ظواهر الحياة ؟ يلاحظ جان بول سارتر أمرين يدفعان الكاتب إلى أن يكتب ، بل يدفعان الفنان إلى أن ينتج على اختلاف الفنون : أحدهما أن الفنان يريد أن يشعر نفسه بأنه كائن أساسى فى هذا العالم الذى يعيش فيه . فحقائق الحياة وحقائق الطبيعة موجودة سواء أعرفها الانسان أم لم يعرفها . ولكن وجودها إغراق فى النوم ، وإغراق فى النوم العميق السخيف ، إلى أن يظهر عليها الانسان فيعطيها معنى ويرسم لها أغراضاً وغايات . فالزهرة الجميلة زهرة ما لا قيمة لها ولا لجمالها إلا أن تعرف وتقوّم ويصور جمالها . والانسان هو الذى يستطيع أن يعرفها وأن يقوّمها وأن يخلع عليها هذا الجمال . وهو لا يخلع عليها جمالها الموضوعى الذى لا قيمة له فى نفسه ، وإنما يخلع عليها جمالا ذاتياً ينشئه هو فى نفسه إنشاء ويضفيه على الزهرة إضفاء . فلون الزهرة وتكوينها وائتلاف أوراقها على نحو ما من الائتلاف ، كل هذه أشياء يعللها علم النبات تعليله الموضوعى الخالص الذى لا يثير إعجاباً ولا شعوراً بالجمال ، وإنما يحقق معرفة . والفنان هو الذى يجد فى هذا اللون ، وفى هذا التكوين ، وفى هذا النوع من ائتلاف الأوراق ، شيئاً آخر غير التعليل الموضوعى العلمى يخلعه عليها من جهة ، ثم يسترده منها من جهة أخرى فينشئ بينها وبينه صلة هى الحركة الأولى من حركات الفن . وقل مثل ذلك فى الشجرة القائمة على شاطئ النهر ومن حولها الشجيرات والأزهار ، والعشب قد انبسط على الأرض ، والطير قد استقرت على الغصون مترجحة متغنية ، على ما فى هذا المنظر أو المناظر كلها من اختلاف وائتلاف ؛ فهى فى نفسها ليست شيئاً إذا لم يعرفها الانسان ، وهى فى نفسها إذا عرفها الانسان ليست شيئاً جميلا إذا لم ينظر إليها إلا هذه النظرة الموضوعية التى ترد الظواهر إلى أصولها وأسبابها ، ولكنها تصبح شيئاً ذا خطر ،

تصبح شيئاً يعنى الفن حين ينظر إليها الانسان نظرته الذاتية ، فيجد فيها ما يثير عواطفه المختلفة وأهواءه المتباينة .

فالانسان إذن حريص على أن يزيل عن الكائنات ما يحجبها عن نفسه وقلبه وعقله وضميره . فحركته الفنية الأولى هى التجريد أو التعرية أو إزالة الحجب ورفع الأستار ، وهو إنما يصنع هذا لأنه يريد أو لأنه يشعر بالحاجة الملحة إلى أن يرى نفسه كائناً أساسيا لا يستغنى عنه العالم لتظهر دقائقه وتتجلى أسراره .

الأمر الثانى حاجة الانسان بطبعه إلى ان يشرك نظراءه فيما يجد من حس وشعور ، وما يستكشف من فكرة ورأى . فهو لا يجرد الكائنات لنفسه وحدها ، وإنما يريد أن يحس غيره مثل ما يحس ، وأن يرى غيره مثل ما يرى . وهذه هى المرحلة الثانية من مراحل الفن . فالانسان يكتب لأنه يريد أن يجرد العالم ، ولأنه يريد أن يشرك غيره فى النظر إلى هذا العالم المجرد العريان .

وتجريد الانسان للعالم عمل حر يأتيه الانسان عن إرادة وعمد ، وإشراك النظراء فى النظر إلى هذا العالم المجرد عمل حر أيضاً يأتيه الانسان عن إرادة وعمد ؛ فالانتاج الأدبى ، فى رأى جان بول سارتر ، مظهر من مظاهر الحرية ، أما القارئ فهو يستجيب لدعاء الكاتب ؛ لأن كتابة الكاتب ليست إلا دعاء إنه يحس ويشعر ، ويدعو غيره إلى أن يشاركه فى الحس والشعور .

وهنا يلح جان بول سارتر فيما قدمت الاعتراض عليه من أن الكاتب لا يكتب لنفسه . ذلك أنه حين يكتب لا يرى ما يكتبه إلا شيئاً فشيئاً بمقدار ما تتصور كلماته فى الصحف ؛ فهو لا يتنبأ بآخر ما يكتب ، وإنما يسعى إليه سعياً قد تصوره جملةً قبل أن يكتب أو لم يتصوره ، ولكنه على كل حال يجد لذة هى لذة الكتابة لا لذة القراءة . وهو من أجل هذا يشعر بأن عمله ناقص لا يتم ولا ينتهى إلى غايته إلا إذا أعانه القارئ على إتمامه والوصول به إلى غايته . فاذا استجاب القارى للكاتب تم عمله ، وإذا لم يستجب له ظل هذا العمل ناقصاً مبتوراً .

والقارئ لا يستجيب للكاتب مكرهاً ، وإنما يستجيب له حرًّا مريداً عامداً إلى هذه الاستجابة . والقارئ لا ينشئ عملا مستقلا عن الكاتب ، فلولا الكاتب ما قرأ القارئ ؛ فهو إذن يعاون الكاتب ويتممه بأدق معانى

كلمة المعاونة والاتمام . ذلك أن الكاتب لا يودع الصحف كل ما فى نفسه لأنه لا يستطيع ذلك ولا يريده ، وإنما هو يرسم ما فى نفسه رسما تخطيطيا يرشد به القارئ إلى أن يملأ ما بين الخطوط . فالقارئ إذن ليس قابلا فحسب ، ولكنه قابل من جهة وفاعل من جهة أخرى ، أمره فى ذلك كأمر الكاتب بالضبط ؛ لأن الكاتب قابل حين يتأثر بالعالم الخارجى ، وفاعل حين يعيد إنشاء هذا العالم الخارجى . والقارئ متأثر حين يتلقى الرسم التخطيطى الذى دعاه الكاتب إلى النظر فيه ، وهو منشئ حين يملأ ما بين الخطوط ، ويتم ما بدأ الكاتب من الرسم والانشاء .

وإذن فالأدب حرية كله ، حرية حين ينشئه الكاتب ، وحرية حين يتم القارئ إنشاءه . وهذه الحرية الفاعلة تتخذ الانفعال وسيلة إلى الفعل ، وتتخذ التأثر والخضوع وسيلة إلى الانشاء والتأثير . فالكاتب متأثر ، وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره ، والقارئ متأثر وتأثره هذا وسيلة إلى تأثيره أيضاً .

وأنا معتذر إلى القارئ العربى مما قد يكون فى هذا الكلام من الغموض ، ومن ترديد ألفاظ بعينها أكثر مما ينبغى . ولكنى أحب أن يلاحظ القارئ أنى ألخص له دراسة لجان بول سارتر أديب الوجوديين الفرنسيين ، وصاحب كتاب « الكون والعدم » .

وهناك شئ لم يقف عنده جان بول سارتر ، مع أنه خليق بالعناية ، وهو أن الكاتب واحد ، وأن قراءه كثيرون يختلفون فيما بينهم اختلافاً شديداً فى الأمزجة والطباع والاستعداد والذوق والثقافة ، وينشأ من ذلك اختلافهم فى تقدير الأشياء والحكم عليها . وهؤلاء القراء يعاصرون الكاتب دائماً ، وقد يعيشون بعده أزماناً تقصر وتطول بمقدار ما يقدر لأثره من البقاء ، وهم يختلفون حين يعاصرونه ، ويختلفون بعد أن يموت . وكلما أتيح للأثر الفنى الخلود عظم حظه من اختلاف القراء بالتأثر والحكم والتقدير .

وإذن فالكاتب لا ينشئ أثراً واحداً حين يؤلف كتاباً واحداً وإنما ينشئ آثاراً لا تحصى ، أو قل آثاراً بمقدار ما يتاح له من القراء . وواضح جدا أن قصة من قصص شكسبير تترك فى نفوس القراء آثاراً تتفق فى جملتها ولكنها تختلف فى تفصيلها اختلافاً لا سبيل إلى ضبطه . وواضح جدا أن هذا التمثال اليونانى قد ترك فى نفوس اليونان أنفسهم آثاراً متباينة ، وترك فى نفوس

المحدثين آثاراً تختلف باختلاف القرون . فالكاتب إذن ينشئ ولكنه يدعو الأجيال المختلفة إلى الانشاء . ومن هنا تظهر قيمة الالتزام الذى يدعو إليه جان بول سارتر . فيجب على الكاتب أن يقدر عمله ونتائجه ، وأن يحتمل تبعات هذا العمل وهذه النتائج . والكاتب مدفوع إلى الكتابة بحريته التى تدفعه إلى شئ من الكرم والجود والتنزه عن الأثرة والبخل . والقارئ مدفوع إلى القراءة لحاجته إلى أن يتلقى أولاً وإلى أن يعطى ثانياً . وإذن فالتبعة الأدبية ليست مقصورة على الكاتب وحده ، ولكنها شركة بينه وبين قرائه . وهنا يصل جان بول سارتر إلى نتيجة لا تخلو من روعة ، وهى أن الأدب مادام مصدره الحرية والإيثار واحتمال التبعات ، فلا يمكن أن يكون شرا ولا أن يدعو إلى الشر مهما تكن مادته وموضوعه . ذلك أن الحرية خير ، والايثار خير وما يصدر عن الخير يجب أن يكون خيراً آخر الأمر . فما يسميه الغربيون أدباً أسود لاحظ له فى حقيقة الأمر من السواد ؛ لأن منتج هذا الأدب إنما رأى شراً فأراد إصلاحه ، وقارئ هذا الأدب إنما رأى ابتداء الاصلاح فأراد إتمامه .

ونتيجة أخرى لا تخلو من روعة يصل إليها جان بول سارتر ، وهو أن الأدب حر فلا يمكن أن يتجه إلى العبيد . وآية ذلك أن القارئ لا يقرأ إلا عن حرية . وإذا ذكرنا القارئ الحر فانما نريد القارئ بأدق معانى هذه الكلمة ، القارئ الذى يتعمد القراءة ويتعمد الفهم ، ويتعمد إذاعة ماقرأ وما فهم . ومن هنا يقول جان بول سارتر إن الديمقراطية هى أشد النظم ملاءمة للأدب .

وهذا الكلام قد يكون صحيحاً ، ولكن بشرط أن نتوسع فى معنى الديمقراطية شيئاً ما ، وأن نتجاوز بها حدودها السياسية التى ترسم لها فى كتب السياسة والقانون . فقد كان عصر بيركليس ديمقراطيا ، ولكن عصر أغسطس والرشيد ولويس الرابع عشر لم تكن عصوراً ديمقراطية وقد ازدهر فيها الأدب ازدهاراً عظيما . وربما كانت كلمة الحرية هنا أشد ملاءمة من كلمة الديمقراطية . فهؤلاء الملوك المتسلطون المستبدون كانوا يتسلطون ويستبدون فى حدود لا يكادون يتجاوزونها ، وكانوا يتركون للعقول والقلوب والألسنة حرية لعلها لا تقل عما تستمتع به الآن . والفكرة التى يرمى إليها جان بول سارتر هى أن الأدب والدكتاتورية لا يتفقان ؛ لأن الدكتاتورية لا تعرف حدوداً للتسلط والاستبداد ،

وإنما تتدخل فى كل شئ ، وتفرض نفسها على كل شئ ، وتريد أن تنظم كل شئ ، فتهدر بذلك حرية الأفراد والجماعات إهداراً .

وبعد فكل هذه الخصائص التى صورها جان بول سارتر للإنتاج الأدبى والتى يبين لنا بها لماذا نكتب ، ليست مقصورة على النثر من دون الشعر ، وليست مقصورة على الأدب من دون الفنون الرفيعة كلها ، وإنما هى شائعة بين هذه الفنون جميعاً . فاذا كان من شأنها أن تفرض على الكتاب أن يلتزموا ويحتملوا التبعات ، فمن شأنها أن تفرض على الشعراء والموسيقيين والمصورين والمثالين وغيرهم من أصحاب الفن الرفيع كائناً مايكون الفن ، أن يلتزموا ويحتملوا التبعات .

وربما كان وجه الحق فى هذه القضية هو أن لكل شئ موضعه ، وأن كل صاحب فن ملتزم محتمل تبعاته أمام الفن أولا ، وأمام الذوق العام ثانياً ، ثم أمام طوائف بعينها من الناس إذا كان من شأن موضوعه أن يلزمه ويحمله التبعات أمام هذه الطوائف من الناس . فالأديب الذى يعرض للسياسة ملتزم أمام فنه الأدبى وأمام مذهبه السياسى . وقل مثل ذلك فى الأديب الذى يعرض لشؤون الاجتماع . ولم يحظر أحد على أديب ولا على صاحب فن أن يعالج من الموضوعات مالا يلزمه إلا أمام الفن والذوق وحدهما .

وقد أعود إلى هذا الموضوع بعد أن أتم قراءة ما كتب جان بول سارتر عن القسم الثالث من دراسته ، وهو : « لمن نكتب ؟ »

طه حسين

فى أفق السياسة العالمية

مصر والسودان

إنا لنظلم التاريخ والجغرافيا معاً إذا نحن حسبنا إفريقية بين قارات العالم القديم وقد ظلت فيها مساحات مجهولة وبقاع غير مأهولة وفياف مظلمة لم يكشف عنها التاريخ ولم يعرفها الانسان المتحضر إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، أى بعد كشف أمريكا بثلاثة قرون ونصف قرن وبعد كشف أستراليا بقرنين. ويحق لمصر الحديثة أن تفاخر بما ساهمت من نصيب فى سبيل كشف مجاهل إفريقية وتمدينها فى القرن التاسع عشر. فقد أدى فتح السودان فى عهد محمد على الكبير سنة ١٨٢٢ إلى إرسال بعثات علمية تشبها بحملة بونابرت على مصر للبحث عن المعادن والكشف عن منابع النيل. وقد وصل البكباشى سليم أحد ضباط محمد على البحريين فى ثلاث رحلات قام بها بين سنة ١٨٣٨ وسنة ١٨٤٢ إلى خط عرض ٥ شمالى خط الاستواء قرب غندكرو فى وقت كانت فيه منابع النيل وروافده لا تزال من الأحاجى والطلاسم التى تحاك حولها الأساطير والخرافات. وتعتبر التقارير والأرصاد الجوية التى أعدها البكباشى المصرى من المستندات العلمية الأولى التى كتبت بشأن مجاهل إفريقية.

ثم انبرى لكشف القارة المظلمة فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر رجال كبار النفوس أقوياء العزائم وقفوا أنفسهم لخدمة العلم والدين والانسانية؛ فقام سبيك وجرانت البريطانيان فكشفا بحيرة فكتوريا سنة ١٨٦٢ وجاء بعدهما صموئيل بيكر واستانلى وغيرهما وكشفوا باقى البحيرات الكبرى وأجزاء النيل العليا.

وفى ذلك الوقت الذى أصبح فيه اسم إفريقية كالهند وأمريكا فى القرن السادس عشر يرحل إليها الكاشفون والمستعمرون من جميع أنحاء العالم المتمدن اعتلى إسماعيل عرش مصر، فاضطلعت مصر فى سبيل فتح إفريقية

وتمدين السودان بدور هو أعظم ما قامت به دولة فى هـذا السبيـل فى التاريخ الحديث .

فقد حدثت عوامل فى عهد الخديو إسماعيل جعلته يهتم بشؤون السودان ووسط إفريقية أكبر اهتمام ؛ إذ فتحت قناة السويس للملاحة فى سنة ١٨٦٩ فعادت إلى مصر أهميتها التجارية من حيث هى أهم وأقصر طريق بين الشرق والغرب ، بل صارت فى هذا الشأن أعظم مما كانت فى أى عصر مضى . وليس من شك فى أن سيادة مصر على الطريق إلى الشرق ومرور خطوط الملاحة فى المياه والموانى المصرية وكشف منابع النيل وسهولة الاتصال بين البحر المتوسط وقلب إفريقية عن طريق النيل ، كل أولئك كانت عوامل قوية من شأنها أن تدفع الخديو إسماعيل إلى أن يأخذ على عاتقه مهمة توطيد سلطان مصر فى وادى النيل وعلى سواحل البحر الأحمر ، وإدخال المبادئ الأولى للمدنية الحديثة فى البلاد التى يخترقها نهر النيل وروافده . وإذا كانت مصر لم تستطع فى الماضى القريب أن تحتفظ بسوريا وبلاد العرب فى عهد محمد على بسبب تدخل الدول ، فقد كان أمامها فى السهول والهضاب التى تكتنف وادى النيل مجال بكر للفتح والتمدين والإصلاح . وقد كتب السفير الانجليزى فى فينا مرة إلى المعتمد الانجليزى بالقاهرة حين اجتمعت الدول على معارضة سياسة محمد على نحو تركيا يقول له : « إذا كان حقا أن غاية مايرمى إليه محمد على من سياسة إنما هى تثبيت عرش أسرته ودعم ملكه ، فليس ثمة مجال أكثر ملاءمة له من قارة إفريقية ؛ فهناك تنقلب أوربا صديقة له ، وتستطيع حينئذ أن تعاهده على عدم المساس بسلامة ممتلكاته فيها . »

وقد استطاع الخديو إسماعيل فى أقل من عشر سنوات أن يمد سلطان مصر جنوبى خط الاستواء فى أوغندة وغرباً فى إقليم بحر الغزال ودارفور وشرقاً إلى بربر وهرر على خليج عدن وإلى قسمايو على المحيط الهندى . أما زيلع فكان سلطان تركيا قد نزل عنها للخديو فى سنة ١٨٧٥ مقابل إتاوة سنوية . وكذلك كانت مصوع وسواكن تحت حكم الخديو بمقتضى فرمان بتاريخ ١٨٦٥ مقابل إتاوة أخرى .

وقد كانت الحكومة التى أسسها إسماعيل لادارة شؤون السودان من القوة والمهابة بحيث كان النظام والأمن سائدين فى جميع الأرجاء ، حتى كان

السياح يجوبون البلاد وهم آمنون كأنهم فى نزهة خلوية . قال المستكشف الألمانى شوينفورت Schweinfurth فى تقرير له : « إن القوة والنفوذ اللذين كانا لمصر من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٨٠ على أراضى النيل الأعلى الشاسعة لم يتمتع بمثلهما أعظم الأمم استعماراً فى التاريخ ، أعنى الانجليز والبرتغاليين وقد كان الأمن فى تلك الربوع السحيقة مستتباً بدرجة ليس لها شبيه من قبل ولا من بعد . »

ولكنها — وا أسفا — كانت وثبة فى الظلام ، وثبة فى القارة المظلمة ! فلم يمض إلا القليل حتى أحست مصر أنها مسوقة إلى الهاوية ، واضطرت إلى إخلاء بلاد بذلت فيها كثيراً من جهدها ومالها ودماء رجالها .

وذلك أنه لما اضطرمت الثورة العرابية فى مصر سنة ١٨٨٢ أغفلت الحكومة المصرية أمر الثورة المهدية فى السودان ، واضطرت إلى الاحتفاظ بمعظم قواتها الحربية لمواجهة الخطر الذى يهدد البلاد حينذاك . ولما انتهت الثورة فى مصر بالاخفاق أصدر الخديو توفيق مرسوماً بتسريح الجيش المصرى كله . وبدأ أولو الأمر ينشئون جيشاً مصريا على نمط جديد . وفى تلك الأثناء استفحل أمر الثوار فى السودان وتوالت انتصاراتهم على قوات الحكومة ، فأخذوا يفكرون جديا فى إخلاء السودان .

ومع أن الحكومة المصرية والرأى العام فى مصر والخارج كان يميل إلى ضرورة إنقاذ السودان من آثار الفوضى والهمجية التى توشك أن تقضى على على نتائج الجهود التى بذلها الخديو إسماعيل وأعوانه فى بذر بذور المدنية ونشر لواء الأمن والسلام فى ربوعه — فقد كانت بريطانيا مصممة على ضرورة الاخلاء . وأرسل لورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا خطابه الشهير فى يناير سنة ١٨٨٤ إلى معتمد الحكومة الانجليزية فى مصر ، وفيه يقول : « يجب عند البحث فى المسائل المهمة الخاصة بسلامة مصر أو إدارتها أن تتبع نصائح حكومة جلالة الملكة مادام الاحتلال المؤقت (كذا) مستمرا . وعلى الوزراء والمديرين تنفيذ هذه النصائح وإلا أقيلوا من وظائفهم . » حينئذ لم يسع شريف باشا رئيس الوزراء وقتئذ إلا أن يستقيل محتجاً وتألفت وزارة نوبار باشا وقبلت تنفيذ سياسة الاخلاء مضطرة ، وعين غردون باشا لتحقيق هذا الغرض . ولكن المهديين مالبثوا أن ضيقوا الخناق على غردون ومن معه

من المصريين وحاصروهم حصاراً انتهى فى يناير سنة ١٨٨٥ بسقوط الخرطوم وقتل غردون . وعلى ذلك ترك السودان « يسوى فى مرقه على مهل » . وقد ظل نفوذ الثوار سائداً فى السودان ثلاثة عشر عاماً ، وشمل سلطانهم جميع أرجاء السودان عدا إقليم واحد هو مديرية خط الاستواء، وكان حاكمها الدكتور شنتزلر الألمانى الذى اعتنق الاسلام وأصبح اسمه أمين باشا .

ولما انقطعت الصلة بين مصر وممتلكاتها فى السودان نشأت نظرية خاطئة نادت بها بعض الدول ، وهى أن السودان بعد أن تخلت عنه مصر صار نهباً لمن سبق . وفات أنصار هذه النظرية أن مصر بتركها السودان مؤقتاً لم تتخل عن أى حق فيه ، وأن هذه الحقوق قد كسبتها إما بحق الكشف والتمدين وإما عن طريق الوراثة من تركيا، وقد نص فرمان سنة ١٨٧٣ الذى منحه السلطان للخديو إسماعيل على أن يحكم الخديو جميع ملحقات مصر فى إفريقية بحق الوراثة فى ذريته للأكبر فالأكبر من أبنائه . غير أن ساسة بعض الدول رأوا أن الفرصة سانحة لإشباع بطونهم من تلك اللقمة الدسمة التى تخلت عنها مصر مؤقتاً، فبدءوا يوزعون أطرافها فيما بينهم باذن وعلم من الدولة المحتلة .

أما مصر صاحبة الدار فقد وقفت بعد الاحتلال الانجليزى مكتوفة اليدين مسلوبة الارادة ، ترى الملك الواسع الذى أنشأته فى قلب إفريقية بجهدها ومالها ودماء أبنائها ينهار وتسوده الفوضى ، ثم يتكالب عليه الطامعون من كل حدب وهى لاتستطيع لهم دفعاً ولا ردا ، حتى إذا تهيأت لها ظروف العمل من جديد واستطاعت بمالها ورجالها أيضاً أن تقضى على بقايا الثورة المهدية فى البلاد كان الانجليز إلى جانبها هم المسيطرين الحاكمين ، وانقلبت الأوضاع فصار صاحب الحق تابعاً وأصبح الدخلاء المساعدون أصلاء متبوعين .

ومع أن إعادة فتح السودان قد ردت الحق إلى صاحبه شراعا وقانوناً فان الانجليز أبوا إلا إنكار الاعادة حتى لاتنفرد مصر بحقها ، واعتبروا قمع الثورة فتحاً جديداً للسودان اشتقوا منه شبه حق للاشتراك مع مصر فى إدارته والتشريع له ، ولكنهم لم يجرءوا مع ذلك على الزعم بأن لهم فيه نصيباً من السيادة ويكفى أن نقرأ مقدمة المعاهدة الثنائية لنتبين منها حرص إنجلترا على تفادى ذكر السيادة فى السودان ، إذ جاء فيها : « وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين

اللازمة لها . . . وحيث إنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح ، وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الادارى والقانونى السالف الذكر ، وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل . . . » وأنى يكون للانجليز ظل من السيادة ومصر نفسها صاحبة الحق الشرعى والتى باسمها وباسم خديويها وتحت ظلال علمها سارت الحملة لاستخلاص البلاد من فوضى الثائرين كانت هى نفسها محسوبة داخل نطاق الدولة العثمانية وتحت سيادة السلطان !

لذلك ما كادت الحملة تزحف جنوباً وتكسب معركة أم درمان فى ساعات معدودة من يوم ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ حتى بدأ الانجليز ينفذون الخطة السياسية التى أحكموا تدبيرها ورسموا خطوطها الكبرى من قبل .

وكان الانجليز يعلمون حق العلم أن دول أوربا لم تعد تكترث بشأن السودان بعد أن ثبتت أقدام الانجليز فى مصر ، وأن سلطان تركيا لم يكن يهمه من أمر مصر أو السودان أكثر من أن يرسل احتجاجه إلى الدولة المعتدية فى الوقت المناسب ، ويردد فى احتجاجه ماسبق أن أعلنته الدول فى مؤتمراتها بشأن سلامة أملاك الدولة العثمانية ، وأن فرنسا بعد هزيمتها أمام ألمانيا وامتلاء صدرها حقداً عليها لا تقدر على معاداة بريطانيا أو تصبر طويلا على هجرها ، لاسيما أنه لم يكن لديها من القوة مايجعل لإرادتها وزناً يذكر فى الميزان الدولى . لذلك سارت انجلترا فى سياستها نحو السودان على نهج يعد فريداً من نوعه فى السياسة الدولية . فقد بيتت النية من أول الأمر على ألا تعود مصر وحدها إلى حكم السودان ، حتى لا يتاح لمصر أن تتسع بين تلك الحدود المترامية من البحر المتوسط إلى منابع النيل جنوبى خط الاستواء حيث يتقدم الاستعمار البريطانى حثيثاً من جنوب إفريقية وشرقها ليتصل بوادى النيل ومنه إلى القناة ، وهى المحور الذى تدور حوله جميع الخطط الاستعمارية والدفاعية حتى ذلك الوقت . ثم رأينا الانجليز يزهدون فى ضم السودان إلى أملاكهم ، لا احتراماً لصاحب الحق الشرعى أو مراعاة للعرف الدولى أو براً بوعودهم المتكررة بالجلاء عن مصر وبالتالى عن أملاكها ، بل خدمة لمصالحهم الخاصة وصوناً لماء وجوههم أمام الدول ، وأهم من ذلك كله رغبتهم فى التهرب من النفقات الباهظة التى كان يقتضيها إحياء أراضى السودان الشاسعة وتمدين

شعبه وصيانة حدوده . لذلك قرروا أول ماقرروا أن يرفعوا العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى ، وأن تضطلع الحكومة المصرية بنفقات القوات التى سترابط فى السودان مادامت هذه القوات مصرية ، ثم دفع الفرق المالى الذى ينجم حتما عن زيادة المنصرف على الايراد فى بلاد كالسودان ظلت مغمورة فى لجى من الظلام والفوضى والجهل فترة طويلة . ثم استأثر الانجليز بالوظائف الكبرى وتركوا للمصريين الوظائف الصغرى ، وجعلوا كتشنر سردار الجيش المصرى هو الحاكم العام الأول على السودان ، وقلدوه من السلطات مارفعه هو ومن جاء بعده إلى مصاف الدكتاتوريين فى العالم . وقد أرادوا أن يضفوا على خطتهم مظهراً قانونيا يكسبها شيئاً من القوة أمام الدول والأجيال المقبلة، فأعدوا اتفاقاً وقعه فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ وزير الخارجية المصرية والمعتمد البريطانى فى مصر . ومع أن مصر حتى قبل الاحتلال البريطانى لم يكن لها بمقتضى الفرمانات السلطانية أن تبرم معاهدات سياسية مع الدول الأجنبية ، فان انجلترا ارتضت لنفسها أن تعقد ذلك الاتفاق دون أى اكتراث بالقواعد الدولية أو بحقوق الدول الأخرى . ولم تكتف فى الاتفاق باهمال ذكر تركيا صاحبة السيادة الاسمية إذ ذاك، بل نصت أيضاً على أن معاهدات الامتيازات التى كانت لمعظم الدول فى أملاك الدولة لاتسرى على السودان ، كما نصت على عدم قبول قناصل أو ممثلين للدول فى السودان ، مالم تكن براءاتهم قد صدرت من لدن الحكومة الانجليزية ، ولم يكن الغرض البعيد من ذلك كله سوى فسح المجال أمام الانجليز للعمل فى السودان بعيدين عن أية رقابة ، كأنهم هم وحدهم أصحاب البلاد .

على أن الاتفاق كانت تعوزه أركان التكافؤ الدولى بين المتعاقدين . وأول هذه الأركان أن يكون المتعاقدان مستقلين وأن يكون لها الحق والحرية الكاملة فى التصرف فى موضوع التعاقد . ولم يكن لمصر من هذا شئ حين عقدت الاتفاق مع الحكومة الانجليزية وخاصة بعد أن احتلتها القوات البريطانية . يضاف إلى ذلك أن الفرمانات الممنوحة للخديو لم تكن لتخوله حق عقد المحالفات السياسية ، بل كانت تحرم عليه قطعاً التصرف فى مصاير الأقاليم التى آل إليه حكمها .

ومع هذا كله قد صدر اتفاق يناير سنة ١٨٩٩ ونفذته بريطانيا

روحاً ونصاً إلى أبعد مدى ممكن ، حتى لم يعد فيه مكان للمشاركة المصرية اللهم إلا فى رفع العلم المصرى وبقاء السيادة الاسمية التى ظلت مثار النزاع بين مصر و بريطانيا إلى الآن .

وقد نص الاتفاق فى المادة الأولى منه على أن السودان يتكون من جميع الأراضى الواقعة جنوبى خط عرض ٢٢ شمالا ويشمل الأراضى التى لم تتجل عنها القوات المصرية منذ سنة ١٨٨٢ ، والأراضى التابعة لمصر والتى أخلتها مؤقتاً فى أعقاب الثورة المهدية ثم استردتها أخيراً القوات المصرية الانجليزية ، ثم الأراضى التى قد تسترد فى المستقبل بالطريقة نفسها .

ونص فى المادة الثانية على رفع العلمين المصرى والبريطانى جنباً إلى جنب فى جميع أرجاء السودان ماعدا سواكن . وعلة هذا الاستثناء أن سواكن لما كانت واقعة على البحر الأحمر فان القوات المهدية لم تستطع إخضاعها فى فترة الثورة ، ولذلك رئى فى أول الأمر إبقاء سواكن وحدها يظلها العلم المصرى وحده وتسرى فيها الامتيازات للأجانب .

ويظهر أن الحكومة الانجليزية أرادت أن تدمغ الواجهة البحرية للسودان بالطابع المصرى وحده ، حتى لاتجرؤ الدول الأخرى على غزو السودان والافتئات على حقوق الخديو . ثم لم تلبث الحكومة الانجليزية أن عدلت عن هذه الفكرة وأدخلت سواكن فى نطاق السودان بمقتضى اتفاق ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ وقد جاء فى مادته الوحيدة : « تعتبر ملغاة من الآن النصوص الواردة فى وفاقنا الرقيم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ التى كانت بموجبها مدينة سواكن مستثناة من أحكام النظام الذى تقرر فى ذلك الوفاق لادارة السودان فى المستقبل . »

ونص فى المادة الثالثة من اتفاقية يناير سنة ١٨٩٩ على تعيين الحاكم العام بمقتضى مرسوم يصدره الخديو باقتراح من الحكومة البريطانية . وقد جمع الحاكم العام فى يده جميع السلطات الادارية والتشريعية المدنية منها والعسكرية . ولم يكن عليه من الالتزامات سوى قيد واحد هو إخطار المعتمد البريطانى ورئيس الوزارة فى مصر بالقرارات التى يصدرها . ومقابل ذلك لم تعد القوانين والتشريعات التى تصدرها الحكومة المصرية تسرى على السودان إلا إذا وافق عليها الحاكم العام .وقضت المادة الثانية بعدم امتداد

سلطة المحاكم المختلطة على أى جهة من جهات السودان . كما نصت المادة التاسعة على بقاء الأحكام العرفية سارية فى السودان إلى أن تصدر أوامر أخرى . وقد رأت إنجلترا أن ترضى الدول من الوجهة التجارية بعد أن خيبت آمالها سياسيا فقررت فى المادة السادسة من الاتفاق « أن حرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول » .

وعلى هذا الأساس استندت الحكومة الانجليزية فى إقامة الحكم الثنائى فى السودان شكلا ؛ فكان الغنم كله لانجلترا والغرم على مصر . وقد ذكر لورد كرومر فى كتابه عن مصر الحديثة أن تكاليف الحملات الحربية على السودان بلغت ٢٫٣٥٤٫٠٠٠ جنيه مصرى لم تتحمل منه بريطانيا الا مبلغ ٨٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى . وهذا المبلغ نفسه لم تدفعه الحكومة الانجليزية إلا نكاية بالدول التى اعترضت على حق مصر فى اقتراض مبلغ ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، فلما سحبتها مصر غير آبهة باعتراض فرنسا وروسيا قاضاها صندوق الدين أمام المحاكم المختلطة وحكمت المحكمة على الحكومة المصرية فتقدمت الحكومة الانجليزية بالمبلغ المذكور ثم نزلت عنه لمصر بعد النصر .

وفى العام الأول من الحكم الثنائى لم يزد إيراد الحكومة على ٣٩٫٥٠٠ جنيه فى حين كان المنصرف ٣٠٦٫٧٥٠ جنيه ، فكان على الحكومة المصرية أن تسدد العجز . واستمرت مصر توازن الميزانية بدفع الاعانات السنوية حتى بعد إخراج الجيش المصرى من السودان فى سنة ١٩٢٤ وظل الحال على ذلك حتى قرر البرلمان المصرى فى سنة ٩٣٧ ، خفض الاعانة من ٧٥٠٫٠٠٠ جنيه إلى ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه مدة سنة وبعدها تخفض إلى ربع مليون جنيه لسنة أخرى ثم يوقف صرفها بتاتاً ابتداء من سنة ١٩٣٩ ، على أن تسوى الديون التى لمصر بعد ذلك على أقساط سنوية .

على أن إنجلترا لم تكتف بالمساعدات المالية التى كانت مصر تقدمها للسودان ، فانها ما كادت تفرغ من حرب البوير فى جنوب إفريقية فى سنة ١٩٠٢ حتى بدأت تعد العدة لوضع مشروعاتها الكبرى للرى وللمواصلات حتى يمكن أن يعود عليها استعمار السودان بالفوائد الاقتصادية التى كانت تتطلع إليها .

ولكنها سارت فى خطتها بحذر وبطء ، فلم تنهض مالية السودان باعتمادات لاتقوى على احتمالها، وجعلت تعتمد على مصر تارة وعلى البرلمان الانجليزى والشركات الانجليزية تارة أخرى ، حتى تم للسودان من الأشغال العامة ماجعل إيراد الحكومة يقفز من ١٢٦٫٥٩٦ جنيه فى سنة ١٨٩٩ إلى ٥ر٩٢٩٫٩٤٤ جنيه فى ١٩٢٧ مقابل ٢٣٠٫٢٣٨ جنيه و ٥ر٤٨٩٫٥٥٠ جنيه للمنصرف على التوالى . وجعل عدد السكان يزيد من ١٫٨٥٣٫٠٠٠ نفس عقب الثورة المهدية — وكان عددهم أكثر من ثمانية ملايين قبل الثورة — إلى ستة ملايين فى سنة ١٩٢٦ ، وهو الآن أكثر من ستة ملايين ونصف مليون .

وكأنما حسدت انجلترا مصر على مشروعات الرى الكبرى التى تمت فيها فى أوائل القرن العشرين على أثر إنشاء خزان أسوان وقناطر أسيوط وزفتى ، فجعلت تخص السودان بمشروعات لم يكن كل الغرض منها زيادة العمران فى السودان ، بل كان من أغراضها البعيدة المرمى الاستغناء بالسودان عن مصر عند الحاجة والتفريق بين مصر والسودان ، حتى لاتقوى مع الزمن فكرة الاندماج التى تنادى بها مصر ، ثم إبقاء بعض مفاتيح الرى المصرى فى يد السودان ، حتى إذا جاء اليوم القريب الذى تستقل فيه مصر استقلالا تاما عن إنجلترا وجدت نفسها لا تزال مرتبطة بها ارتباطاً مائيا فى السودان وكأنما قد أصبح السودان بلداً غريباً عن مصر .

وتنفيذاً لتلك الخطة أنشأت الحملة المصرية الانجليزية وهى تزحف جنوباً فى طريقها إلى قمع الثورة ، وأنشئت السكة الحديدية بين وادى حلفا وبربر ومنها إلى الخرطوم . وقد وصل الخط إلى سنار فى سنة ١٩٠٩ وإلى الأبيض فى سنة ١٩١٢ ، وأنشئ على ساحل البحر الأحمر شمالى سواكن ميناء جديد فى سنة ١٩٠٥ سمى بور سودان ، وقد وصل بينها وبين سواكن الخط الحديدى الممتد من بربر فى سنة ١٩٠٦ ومنه اتصلت كسلا والقضارف ، وبذلك ارتبطت أجزاء السودان المتباعدة وازداد العمران ونشطت التجارة بوساطة طرق جديدة لا تمر كلها بمصر .

ولما كانت موارد السودان المهمة فى أول الأمر مقصورة على الصمغ العربى وسن الفيل وريش النعام ، وكلها سلع ثانوية كمالية لاتفيد منها المصانع الانجليزية إلا بقدر ضئيل ولا يمكن الاعتماد عليها فى تنمية إيراد الدولة ، فكرت

الحكومة الانجليزية فى مشروع اقتصادى على درجة عظيمة من الخطورة . فقد رأت أن تحول أرض الجزيرة الواقعة بين النيل الأبيض والنيل الأزرق والتى تبلغ مساحتها خمسة مليون فدان منها نحو مليونين أو أكثر صالحة للزراعة إلى أراض يمكن ريها واستنبات القطن فيها واقترضت قروضاً كبيرة بضمان الحكومة لسد نفقات إنشاء قناطر سنار وخزان مكوار على النيل الأزرق وحفر شبكة الترع اللازمة للمشروع . وتكونت فى سنة ١٩٢٦ شركة المزارع السودانية Sudan Plantation Syndicate لتنفيذ المشروع فكان على الحكومة أن تتحمل نفقات التأجير والرى والبحوث العلمية ، وعلى الشركة الرقابة الفنية وحلج القطن وتصديره ، وفى مقابل ذلك تستولى الحكومة على ٤٠ فى المائة من المتحصل ويخص الشركة ٢٠ فى المائة ، ويخصم من الباقى نفقات الحلج والتصدير ... الخ ، ومايتبقى بعد ذلك فللمزارعين ولهم إلى ذلك الانتفاع بالمحصولات الأخرى وأهمها الذرة . وقد بلغت المساحة المنزرعة قطناً ٢٠٠،٠٠٠ فدان . وليس من شك فى أن المشروع قد زاد فى إيراد الحكومة والشعب زيادة عظيمة ، ولكن يؤخذ عليه ان الشركة التى تقوم بادارته أجنبية غريبة عن بيئة البلاد واقتصادياتها ، وأن المزارعين والفلاحين رغم مكاسبهم يُسخرون فيه لمصلحة الحكومة والشركة وأصحاب الأسهم . يضاف إلى ذلك إهمال تربية الماشية فى المشروع وتقلبات أسعار القطن وقلة تدريب الأهالى على حاجات الزراعة والرى الصناعى . ولذلك لم يدهشنا أن نقرأ أخيراً أن الحكومة قررت عدم تجديد الامتياز بعد انتهائه فى سنة ١٩٥٠ .

على أن هذه المشروعات كما أتت ببعض الخير لأهل السودان قد نبهت المصريين كذلك إلى الخطر الذى قد يحيق بهم إذا استغلها الأجنبى ضد مصلحة مصر . ولذلك نشطت الحكومة المصرية إلى درء الخطر عن البلاد بتعلية خزان أسوان وإنشاء قناطر إسنا ونجع حمادى، حتى لا تتعرض أراضى الصعيد العليا للاقفار والجدب . ثم سارعت فى الوقت نفسه إلى درس موضوع الرقابة على مياه النيل دراسة مائية علمية ، واستطلعت فى ذلك آراء خبراء المهندسين المائيين فى العالم ، وكان أول ماقر عليه الرأى إنشاء خزان جبل الأولياء لمنفعة مصر خاصة . وهناك مشروعات مائية كبيرة اقترحها الخبراء مثل إنشاء

خزان بحيرة تانا فى أثيوبيا وخزان بحيرة البرت فى أوغندة وجميعها مشروعات على جانب عظيم من الأهمية والخطورة لمواجهة الزيادة المطردة فى عدد سكان الوادى ولزيادة العمران فى السودان وسيقتضى تنفيذها رءوس أموال طائلة وهى قد لاتثمر الثمرة المطلوبة إلا بعد انقضاء وقت طويل . وهناك فوق النفقات المالية الاتفاقات الدولية التى يجب أن تتم قبل الشروع فى إنجازها فبعض هذه المشروعات كما رأينا واقع فى الحبشة وبعضها فى أوغندة . ومن ذلك يتضح أن موضوع توزيع مياه النيل والسيطرة عليها من أهم المسائل التى يتطلب حلها النهائى جلاء المحتلين عن الوادى أولاً؛ ثم الاتفاق بشأنها أمام الهيئة الدولية المختصة حتى تكون أحكامها ملزمة للجميع ، على أن مشاكل الحكومة الانجليزية لم تنشأ فى السودان إلا بعد الحرب العالمية الأولى وقد سرت إلى البلاد موجة من الحماسة الوطنية التى اجتاحت جميع البلاد المغلوبة على أمرها فى أعقاب الحرب ، على أثر ذيوع المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس ولسون واعترافه للشعوب بحق تقرير المصير . فقد قامت فى مصر حركة سنة ١٩١٩ وانتقلت منها بطبيعة الحال إلى الضباط والموظفين والمواطنين المصريين الذين كانوا يعملون فى السودان ، ومنهم إلى الشبيبة السودانية المتعلمة.ولكن نظام الحكم العرفى الذى أقامه الانجليز فى البلاد لم يدع مجالا لأية حركةوطنية فىالبلاد ، اللهم إلا ثورة على بن دينار سلطان دارفور وكان قد اتفق فى أثناء الحرب مع السنوسيين الذين هاجموا مصر سنة ١٩١٦ من ناحية حدودها الغربية،وانتهى أمره بالاخفاق وذهاب سلطانه .

ولما اضطرت انجلترا إلى إلغاء الحماية الانجليزية والاعتراف باستقلال مصر فى سنة ١٩٢٢ كانت مسألة السودان من النقط الأربع التى احتفظت بها إنجلترا. وكان المصريون قد تنبهوا فى ثورتهم إلى خطورة مسألة السودان بالقياس إلى مستقبل البلاد الاقتصادى والاجتماعى ، فجعلت مصر تطالب باسترداد حقوقها فى السودان كاملة ، حتى أصبح السودان الصخرة التى تصدعت عليها جهود مصر فى مفاوضاتها مع بريطانيا بشأن الاستقلال . وكان إخفاق المفاوضات التى قام بها سعد زغلول فى سنة ١٩٢٤ مع حكومة العمال الأولى فى إنجلترا أول نذير رسمى بسوء نية الحكومات الانجليزية على اختلاف ألوانها بشأن السودان . وعلى ذلك لم تكد تمضى أسابيع قليلة على عودة سعد من إنجلترا

حتى اغتيل فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ سير لى استاك باشا سردار الجيش المصرى والحاكم العام للسودان . وكان جواب لورد اللنبى المعتمد الانجليزى على ذلك أنه استغل الفرصة لتحقيق مآرب إنجلترا فى السودان ضد مصر ، بابعاد الجيش المصرى عن السودان ، وتحويل الفرق السودانية إلى نواة لقوة سودانية مستقلة لا يقسم أفرادها يمين الولاء والطاعة لمليك البلاد بل يقسمونها للحاكم العام ، ثم الاستغناء عن الموظفين المصريين فى حكومة السودان ، وأخيراً تهديد مصر بألا تقف حكومة السودان عند حد الـ ٣٠٠٠٠٠ فدان فى رى أرض الجزيرة . وقد حاول المصريون ومعهم بعض الفرق السودانية أن يحولوا بالقوة دون تنفيذ قرار الاخلاء ، ولكنهم استجابوا فى النهاية إلى نداء ملك مصر وأذعنوا للأمر الواقع . وقد كان لقرار اللنبى بشأن رى أراضى الجزيرة دون أى اعتبار لحاجة مصر أو لأى وازع إنسانى وقع مخجل فى نفوس العالم المتمدن كله ؛ فقد كان ذلك إحدى العقوبات التى وقعتها الحكومة الانجليزية على مصر أخذاً بثأر السردار المقتول ، وبه كشفت انجلترا الغطاء عن مرامى السياسة الانجليزية من حيث السيطرة على مياه النيل فى السودان ووضع مصر تحت رحمتها إذا أرادت . لذلك عجلت إنجلترا بمحو أثر ذلك القرار الجائر ، فقبلت استقالة لورد اللنبى سنة ١٩٢٥ ، ثم شفعت ذلك بابرام اتفاق مع مصر خاص بمياه النيل فى سنة ١٩٢٩ ، وفحواه تعاون مصلحتى الرى فى مصر والسودان ، والتعهد بعدم قيام حكومة السودان بأعمال فى الرى قد تضر مصلحة مصر ، ثم إنشاء خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض جنوبى الخرطوم ، على أن يكون الخزان لتوفية حاجات مصر خاصة .

ولما عصفت بأوربا جائحة الفاشية والنازية فى سنة ١٩٣٥ واستطاعت إيطاليا أن تتحدى بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم فتهاجم أثيوبيا وترسل إليها جيوشها ومعداتها وطائراتها وغازاتها السامة ثم تستولى عليها ظلماً وعدواناً وتضمها إلى التاج الايطالى — سارعت بريطانيا إلى تحصين مركزها فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ،فعقدت اتفاقاتها مع تركيا وسائر دول البلقان،ثم اتجهت نحو مصر وكانت تعلم خطورة موقعها بالنسبة إلى قوات إيطاليا؛إذ كانت إيطاليا تستطيع فى وقت

الحرب أن تهاجمها من ناحية حدودها الغربية ، ومن ناحية السودان عن طريق اريترية والحبشة . ولذلك عجلت فى هذه المرة بعقد معاهدة سنة ١٩٣٦ مع مصر . وكان أخطر ماجاء فى هذه المعاهدة خاصا بالسودان ؛ فانه بالرغم من ضعف معاهدة سنة ١٨٩٩ من الوجهة الدولية والقانونية واحتفاظ مصر بحقوقها كاملة إزاء السودان نصت معاهدة سنة ١٩٣٦ على سريان معاهدة سنة ١٨٩٩ فكان ذلك شبه إقرار من مصر بالمعاهدة ، على أن المفاوض المصرى قد احتاط للأمر فجعل الاعتراف بالمعاهدة مرتبطاً بالنص على ضرورة تعديلها .

فقد جاء فى المادة الحادية عشرة من المعاهدة المذكورة :

« مع الاحتفاظ بحرية عقد اتفاقات جديدة فى المستقبل لتعديل اتفاقيتى سنة ١٨٩٩ قد اتفق الطرفان المتعاقدان على أن إدارة السودان تستمر مستمدة من الاتفاقيتين المذكورتين ، ويواصل الحاكم العام بالنيابة عن كلا الطرفين المتعاقدين مباشرة السلطات المخولة له بمقتضى الاتفاقيتين .

« والطرفان المتعاقدان متفقان على أن الغاية الأولى لإدارتهما فى السودان يجب أن تكون رفاهية السودان .

« وليس فى نصوص هذه المادة أى مساس بالسيادة على السودان » .

وظاهر من هذا النص المبهم أن يكون حق مصر فى السيادة فوق كل مظنة إرضاء للشعور المصرى . وقد نصت هذه المادة على أن الحاكم العام يختار عند التعين فى الوظائف الجديدة المرشحين الصالحين من بين البريطانيين والمصريين إذا لم يتوافر السودانيون الأكفاء ، كما نصت على وجود الجنود المصريين بالسودان إلى جانب الجنود البريطانيين للدفاع عن السودان ، وعلى ألا يكون هناك تمييز فى السودان بين الرعايا البريطانيين والرعايا المصريين فى شؤون التجارة والملكية والمهاجرة ، وجعلت هجرة المصريين خالية من كل قيد إلا ما يتعلق بالصحة والنظام العام .

وتنفيذاً للمعاهدة عينت مصر خبيراً اقتصاديا بالسودان كما عين الحاكم العام سكرتيراً حربيا له من ضباط الجيش المصرى ، وعاد إلى الخرطوم فريق من الجيش المصرى ، واتخذت الاجراءات لانجاز خزان جبل الأولياء فى سنة ١٩٣٧ وأنشأت الحكومة المصرية مدرسة ثانوية بالخرطوم سنة ١٩٤٣ ، كما أنشأت

بعض مدارس أولية فى المناطق التى يكثر فيها الموظفون والعمال المصريون . وجاءت الحرب العالمية الثانية فنشطت بطبيعة الحال حركة الاتصال بين مصر والسودان واشتركت قوات الدفاع السودانية فى الجيش الذى ألفه الحلفاء لغزو إيطاليا فى شرق إفريقية ، وكانوا قد نفذوا إلى شرق السودان واحتلوا كسلا فى سنة ١٩٤٠ ، فتحركت قوة من الخرطوم فى أوائل سنة ١٩٤١ وهاجمت إريترية وتحركت قوة من الجنوب قاصدة الصومال الايطالى، وتقابلت القوتان فى أثيوبيا حيث قضوا على النفوذ الايطالى نهائيا فى شرق إفريقية فى نهاية سنة ١٩٤١ ، وبذلك استطاع الحلفاء أن يكسروا الفك الجنوبى من كماشة المحور كما كسروا فى السنة التالية فكها الشمالى فى موقعة العلمين الشهيرة .

وكان جزاء السودانيين على ما أظهروه من البسالة والولاء فى أثناء الحرب أن قرر الحاكم العام فى سنة ١٩٤٣ شطر بلادهم شطرين يفصل بينهما خط عرض ١٢ درجة شمالا ، ويشمل الجزء الشمالى السكان والقبائل التى تدين بالاسلام وتتكلم اللغة العربية ، وهى فى ثقافتها ومدنيتها تمتاز على القبائل البدائية التى تسكن فى الجنوب وتفصلها عن الشمال المستنقعات والأعشاب التى تكثر فى تلك الأرجاء . وأنشأ الحاكم العام للقسم الشمالى مجلساً استشاريا عماده ثمانية عشر عضواً سودانيا تنتخبهم مجالس المديريات الستة الشمالية . أما المديريتان الجنوبيتان وهما مديرية خط الاستواء ومديرية أعالى النيل فلم تمثلا . وقد أثار هذا التقسيم العرفى سخطاً عاما فى مصر والسودان ؛ لأنه دل على نيات الحكومة الانجليزية ورغبتها فى عدم تمكين المصريين وإخوانهم السودانيين الشماليين من اختراق الستار الكثيف الذى يخفى وراءه جموع القبائل البدائية وما قد تكنه أراضيهم من ثروة للمستقبل .

وقد كان هذا التقسيم مع ما صاحبه بعد انتهاء الحرب من الاستغناء عن قاضى قضاة السودان المصرى وإعلان الحاكم العام عزم الحكومة الانجليزية على بقاء الحالة الحاضرة فى السودان ، وتخويل السودانيين الحرية التامة فيما يتعلق بتقرير مصيرهم فى المستقبل مع عدم إحداث تغييرات تذكر فى حالة السودان السياسية رغم تنبه الوعى القومى فى البلاد وظهور أحزاب قوية تضم الطبقات المثقفة فى البلاد وتهدف إلى جلاء المحتلين وتحقيق الوحدة مع مصر — كان ذلك كله من العوامل التى جعلت مصر تتمسك فى مفاوضاتها مع انجلترا

أولاً ثم فى قضيتها التى ستعرضها على هيئة الأمم المتحدة بحقها الأزلى فى تكوين وحدة دائمة بين الشعبين المصرى والسودانى . وإن الروابط الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية التى تجمع بين أهل الوادى كله لتنادى بأن مصر وحدها هى الأداة الدائمة الصالحة لعمران البلاد على مر السنين . أما شركاؤنا السابقون فكفاهم ما أفادوه فى أثناء قيام الشركة بيننا . أما وقد رفعت القوامة على الشريك القاصر وصار من الحتم تصفية حسابنا وشركتنا ، فان من حقنا عليهم أن نطالبهم بأن يخلوا الدار جميعها أسفلها وعاليها وأصحاب الدار أولى بما فيها .

محمد رفعت

شيخ الخفر ...

إنها قصة تراخى بها العهد ، وقعت أحداثها فى ضيعة ضئيلة الشأن ، تكاد تنتهى بها تخوم العمران ...

كانت الحياة فى هذه الضيعة تجرى على الأساليب العتيقة فى الفلاحة والادارة ، بيد أنها مع ذلك كانت قنوعاً بما تيسر لها من وسائل العيش ، فتوافر بذلك حظها من هناءة وأمان .

عاشت الضيعة ترفرف عليها السكينة والطمأنينة ، يتآزر أهلوها على المعاش ، وتصل بينهم وشائج مودة و إيلاف . فلا ضغائن مطوية ، ولا شقاق يفضى إلى فرقة وانقسام ...

قام على رأس هذه الضيعة السعيدة ناظر أربى على السبعين من عمره ، فحل من قومه محل الأب من بنيه ، يضمر لهم الحنان والمرحمة ، ولكنه يسوسهم بما تقتضيه الحكمة والحزم فى عدل و إنصاف ...

وهو على الرغم من علو سنه جم النشاط ، متوقد الذهن ، يعيش حياة الفلاح ، ويقوم بعمله ، ولا يتميز فى مطعمه وملبسه ومسكنه عن سائر سكان الضيعة ...

فأحبه قومه ، وأذعنوا له بالطوع ، وهابوا كلمته فى أمره ونهيه .

نهض الناظر بواجب منصبه معولا على نفسه ، غير مفتقر إلى جمع من الكتبة والأعوان يحفون من حوله ، فاذا رغب فى عون دعا إليه ارتجالا بعض الرفاق ، فيبتدرونه ويعينونه فى غير كلفة ولا تعقيد ... ومن ثم كان فى غنية عن موظفين تناط بهم أعمال .

وما كان الناظر يغافل عما تستمتع به الضيعة من هناءة ، فكان يزهى بذلك بين الحين والحين ، و يردد كلمته الخالدة :

— كل شىء يجرى بالبركة !

آتت هذه البركة ثمراتها الطيبة فى شيوع الأمن واستتباب السكينة ، فلم يعكر صفو الضيعة أى حدث من الأحداث المروعة فى عهد ذلك الناظر المبارك .

وحان يوم قضى فيه الرجل نحبه ، فتلقت الضيعة نعيه فى ذهلة ووجوم ، ولكنها استلهمت فى رزئها الكبير إيمانها العميق ، وودعت بموت هذا الناظر عهداً مذكوراً بالخير ، وتطلعت إلى عهد جديد لا تدرى مصيرها فيه ، مستسلمة إلى أنه ليس لحال دوام !

وصبحاً هبط الضيعة شاب فى ميعة الصبا ، يرتدى الحلة الافرنجية ، ويحمل على رأسه القبعة المجنحة . . . فأقبل مفتول الساعد ، مرفوع الهامة ، مزهو الخطا ، مدلا بما يتميز به عن هؤلاء الناس من كسب العلم والتحضر ، وفى يده سوط صغير يتلاعب به ذات اليمين وذات الشمال . . .

وسرعان ما أعلن أنه الناظر الجديد !

فاحتشد إليه القوم ، رانية أبصارهم ، يتفحصونه فى دهشة وعجب . . . ليس عهدهم بعيداً بناظر ضيعتهم الراحل . . . ولقد استقر فى أذهانهم أن الناظر لا بد أن يكون على غراره : شيخ أشيب ، يعتم على لبدة ، ويضع على منكبيه العباءة ، ويتخذ عصاه من أغصان الشجر . . . فما بال هذا الفتى الأمرد يدّعى ما ليس له بأهل ؟

وفرقع الناظر الجديد بسوطه ، فأيقظ القوم ، وباغتهم بقوله :

— أين حضرة المعاون ؟

فاختلط الجمع ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . . .

فاستأنف الناظر صيحته النكراء قائلا :

— أقول لكم أين حضرة المعاون ؟

فتعالى همس القوم فى حيرة وتعجب . . .

وبعد لأى برز من بين الصفوف شيخ يخب فى زعبوطه ، ورأسه يتطامن تحت عمامة ضخمة ، وتقدم بلحيته المبعثرة ، ووجهه المتغضن يقول :

— ليس لدينا معاون !

فاستنكر الشاب ما بلغ سمعه ، وعاجل الشيخ بقوله :

— ماذا تقول ؟ أضيعة بلا معاون ؟

فأجابه الشيخ ركين اللهجة :

— عشنا لا نعرف رجلا له هذا اللقب !

فارتفعت جعجعة الشاب وهو يقهقه ، وفرقع ثانية بسوطه ، قائلا :

— عليّ بأمين المخازن . . .

فغض الشيخ من بصره ، وجعل يفرك يديه ، قائلا :

— وهذا أيضاً لا وجود له !

— أتزعمون أنكم لا تعرفون رجلا له هذا اللقب أيضاً ؟

— صدّق أننا لا نعرف له من وجود !

فاحتقن وجه الشاب ، وصاح فى صوت الثائر المحنق :

— ومن عنده مفاتيح المخازن ؟ أتدّعون أنكم لا تعرفون للضيعة مخازن ولا مفاتيح ؟

فشخص الشيخ ببصره ، قائلا :

— هون عليك يا بنى . . . فى الضيعة مخازن لها مفاتيح ، ولقد كانت فى حوزة الناظر المرحوم ، أتريد أن تتسلمها ؟ إنها أمانة عندى . . .

— وأنت . . . من تكون ؟

— أنا شيخ الجامع .

فبعث الشاب من حلقه صيحة ساخرة ، وقال :

— ما شاء الله كان ! . . . مفاتيح المخازن بيد شيخ الجامع . . . هاتها يا رجل !

فانصرف الشيخ ليأتى بالمفاتيح ، وطفق الناظر يذرع الأرض جيئة وذهوباً ، وهو يتلفت حوله تلفت المتعض المشمئز ، وجعل يغمغم :

— فوضى ! . . . فوضى ! . . . يبدو لى أنه لا بد أن أنشئ الضيعة إنشاء جديداً . . .

ثم صاح بالجمع قائلا :

— أليس فى الضيعة موظف مسئول ، أستطيع أن أفهم منه ما أريد ؟ ألم يكن للضيعة كاتب ؟

فخرج من الصفوف شيخ نحيل يتحامل على نفسه ، وقال :

— كان المرحوم يدعونى أحياناً لأقيد له بعض حساب الضيعة . . .

فجأر الناظر يقول فى تهكم :
— الحمد لله . . . وجدنا أخيراً من نسأله !
وراح يلاحظ الرجل بالنظر الشزر ، ثم أشار إليه قائلا :
— تقدمنى إلى الادارة نتصفح الدفاتر . . .
وهناك فى حجرة بالغة السذاجة ، دخل الرجلان ، فتلفت الناظر يبحث عن مجلس له ، فلم يجد إلا دكة متخلعة ، ورفًّا عليه بعض الأوراق والدفاتر تعلوها غبرة . فاستنكف أن يجلس ، ولبث واقفاً يقلب تلك الدفاتر والأوراق ، ويلقى عليها خواطف النظرات ، ثم يقذف بها يمنة ويسرة فى تأفف وازدراء . . .
وبينا هو كذلك إذ هرول إليه شيخ الجامع يحمل حزمة من مفاتيح ضخمة ، فقدمها إليه ، وما إن أبصرها الناظر الشاب حتى صاح مقهقهاً :
— مفاتيح من خشب ؟ . . . فى أى زمن تعيشون ؟
وازورّ ببصره عنها يذرع الحجرة ، مهتاج الخطوات ، ثم وقف أمام الرجلين يحدق فيهما برهة ، وقال :
— سترى الضيعة عجباً . . . لأنقلنها من عهد ضلالة وظلام ، إلى عهد حضارة ونور . . .
وعلا بيده على جبينه يعتصره ، ثم صاح قائلا :
— علىّ بشيخ الخفر . . .
فطأطأ الشيخان رأسيهما ، وأمعنا فى فرك أيديهما . . .
ولما طال بهما الصمت ، صاح الناظر ، وقد بلغت به الحيرة والعجب كل مبلغ :
— أتجسران على أن تدّعيا أن ليس فى الضيعة خفراء ؟ حراس ؟
فارتفعت عمامة شيخ الجامع ، وتجلى محياه المغضن تكسوه طمأنينة الايمان... ثم همس بقوله :
— الحارس هو الله !
ففرقع الناظر بسوطه فرقعة ريع لها الشيخان ، وبصق بصقة هوجاء ، وانفتل من الحجرة كالسهم المارق . . .
اعتكف الناظر الجديد أياماً فى مثواه لا يريمه ، وهو منكب يدبج تقريراً مسهباً فى شأن الضيعة وما تفتقر إليه من خطة الاصلاح ، انتشالا لها مما هى مترديه فيه من فوضى وخراب .

وقد ترادفت فى تقريره كلمات لم ير بدًّا من الإلحاح فى بيانها ، والاشادة بأثرها ، من مثل : « تحديد المسئولية » ، و « تعيين جهات الاختصاص » ، و « توزيع السلطات » ، و « تعزيز السلطة التنفيذية » .

وخلص من ذلك إلى أن أول ما يجب القيام به هو إنشاء قوة خفر نظامية تكون عوناً للسلطة التنفيذية على الاضطلاع بمهامها الجسام ، والضرب على أيدى من تحدثهم أنفسهم بالوقوف فى طريق الاصلاح والتعمير . . .

وبعث الناظر الشاب بتقريره إلى رب الضيعة فى العاصمة ، ونهض يستنشى نسيم الراحة والاستجام ، كأنما يعد نفسه لذلك العمل الجبار الذى رسم خطته فى تقريره العظيم . . .

قضى الناظر أسبوعه الأول منهمكا يفكر ويدبر ، لتحقيق أول خطوة فى خطة الاصلاح ، تلك هى إنشاء قوة الخفر . . .

وكان أول ما عنى به اختيار زى للخفراء الجدد يوفر لهم المهابة المنشودة ، ويميزهم عن سائر خلق الله . . .

وما إن اطمأن إلى الزى حتى شرع يعرض فتيان الضيعة الأشداء ، ويصطفى من ينجحون فى اختباراته السيكلوجية لمعرفة حدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، وما أوتوا من مواهب فى الضبط والربط وسعة الحيلة .

وبعد أن بلغ من ذلك مأربه ، وتخير جمعاً من الفتيان توافرت لهم كل تلك الشرائط ، راح يفكر أيهم يؤمره عليهم شيخاً ، وجعل معوله فى الاختيار على قوة بصيرته التى يعتز بها وينزهها عن الزلل ، فوقع اختياره على فتى لم يكن أقدر الجمع ولا أسنهم ، وإنما هى قوة بصيرة الناظر الشاب رأت فيه ما لم ير سائر الناس .

ووقف الناظر أمام صف الخفراء ، فجذب إليه ذلك الفتى المحظوظ ، وصاح به :

— لقد اخترتك شيخاً للخفر ، فأدرك مهمتك حق إدراكها . . . إن الجندية أساسها الطاعة والنظام دون جدل أو نقاش . . . وعلى كل أن يلزم حده ، وأن يعرف واجبه . . .

وفى اليوم التالى ، تجلى شيخ الخفر فى « الدوار » يزهو بلبدته التى حملت شارة الرياسة ، وفى يده هراوة صلبة فارعة ، كأنها رمح القائد المظفر ، وهو يتخطر فى معطفه السابغ الأدكن ، وئيد الخطا ، وخلفه شرذمة الخفراء ،

يعلو وجوههم البشر ، وهم معجبون بما يكتسون من زى جديد . . .

وما إن توسط الخفراء ساحة « الدوار » حتى أهل عليهم الناظر الشاب ، وفى يده سوطه يتلاعب به ، وبدأ يعرض صفهم ، ثم وقف متهلل الوجه ، تتألق عيناه ، وصاح :

— انتباهاً !

وابتدأ معهم حصة التدريب ، فتعالت دبدبة الأقدام ، وتراءت السواعد تنثنى وتنبسط ، وتحركت الأجسام تعلو وتهبط ، وتعقد الغبار فى الجو كأنما أثارته حرب ضروس .

وفى أثناء تلك المعمعة كان الناظر الشاب يجأر بصوته فى الفضاء ، فتتردد أصداؤه فى الأرجاء ، إذ يقول :

— إلى اليمين در .

— إلى الأمام سر .

— خطوة إلى الخلف .

— أربعات تشكيل .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وكانت سطوح « الدوار » وأسواره قد عششت على حافاتها زمر من الصبية تتطلع ، وقد بهرها ما ترى من منظر عجيب !

لبث الناظر يمارس التدريب ساعة من نهار ، ثم استخلف مكانه شيخ الخفر يواصل العمل على النحو المرسوم . . . وانصرم النهار وشيخ الخفر مجد فى تدريب فرقته ، لا تهدأ له حركة ، ولا يخفت له صوت .

وراح إلى داره فى غيوب الشمس ، متشقق الحلق من متابعة الضجيج والصياح ، منهوك القوى تكاد تنفصم ركبتاه من طول الانثناء والدوران . . . ولكنه على الرغم من ذلك أقبل على الدار مشرئبا ملتمع العين ، فاستقبلته زوجه ، والتف حوله بنوه يتحسسون معطفه ، ويتواثبون عليه تطلعاً إلى لبدته ذات الشارة الحمراء !

فطفق الرجل يتحدث إلى زوجه فى مهام منصبه ، وكيف أن الجندية أساسها الطاعة والنظام . . . وما لبث أن بدا فى إشاراته وحركاته ونبرات

صوته محاكياً ناظر الضيعة الجديد . . . وجعل يدس فى أحاديثه تلك الجمل الرنانة والألفاظ البراقة التى صافحت سمعه أول مرة فى هذا اليوم ، من مثل : « أربعات تشكيل ، خطوة إلى الخلف ، تعظيم سلام » . . . فكانت أسرته تصغى إليه فى نشوة ، والعيون إليه رانية !

ولما حضرت صينية العشاء ، وتحلق حولها الجمع ، مفترشين الحصير ، أبى رب الدار إلا أن يحضروا له مقعداً يرتفع به عن أديم الأرض ! . . .

استنفد تدريب الخفر جهد الناظر كله ، فكلما فرغ من جانب عرض له جانب جديد . . .

وكان لايسير فى الضيعة أو يجوس خلال الحقول إلا مستصحبا شرذمة من أولئك الخفراء المدربين ، تتقدمه أو تقفو خطاه .

فأما شيخ الخفر فظل يتلقى تعاليم الناظر فى شأن مهمته ، وينهمك فى تنفيذها بين مرءوسيه فى همة ومضاء . فاذا أتم عمله ، واتخذ سبيله إلى داره ، أحس الأعين ترمقه بنظرات خشية وتهيب ، ويرى الصبية لا يكادون يلمحون شبحه حتى يلوذوا بالفرار مخلين له وجه الطريق !

ويوماً وهو يدرب فرقته ، لم يرض عن أحد الخفراء ، ورماه بالتقصير ، وجاوز فى تعنيفه الحد ، وكان الخفير أسن منه وأصلب عوداً ، فلم يعتم ذلك الخفير أن أغلظ له فى القول ، وما هى إلا أن هجم عليه شيخ الخفر وهوى على صدغه بلطمة شديدة ، وسرعان ما التحم الخصمان ، واستبد بهما العراك .

وانتهى إلى الناظر الخبر ، فقدم على عجل ، وفرق بين المتضاربين ، ثم لم يلبث أن أصدر أمره بفصل الخفير فصلا مشمولا بالنفاذ ، لأنه خالف أول مادة فى قانون الجندية ، وهى الطاعة والنظام ، دون جدل أو نقاش . . .

وتقدم إلى الصف ، فانتزع الخفير منه ، وجرَّده من شارة الخفارة ومن زيها الرسمى ، كما يجرد القائد جنديه المتمرد من شاراته ، وينزع منه ما معه من السلاح !

مضى الخفير الطريد مهيض الجناح ، يتضرم قلبه حقداً وضغينة . وفى جوف الليل أمام النار المتقدة التف بعض الخفراء يصطلون ، ويخوضون فى حادثة النهار ، فقال أحدهم :

— ليس من حق شيخ الخفر أن يصفع واحداً منا . . .

فأجابه رفيق له :

— ولكنهم يزعمون أن الطاعة أساس الجندية الصحيحة . . .

فصاح ثالث :

— مهما يكن من أمر ، فما يجوز لأحد أن يهين خلقة الله . . .

فقال الأول :

— الحق أن شيخ الخفر جاوز الحد ، وأنه صال واستطال ، مع أنه ليس أهلا لمنصبه ، وأنه ليس فينا من يقل عنه اقتداراً وقوة . . .

فقال الثانى :

— حقا خدع الناظر فى شأنه ، وسينتبه إلى خطئه فى اختياره . . .

فقال رابع آخر ، وكان برأيه ضنيناً :

— لا تنسوا أن راتب شيخ الخفر ضعف راتب الخفير ، على حين أنه ليس له من عمل إلا الجعجعة والتأمر .

ولمح الجمع شبحاً فى الطريق ، فسكتوا يتبينون شخصه ، فاذا هو الخفير الطريد ، فدعوه إلى الجلوس ، فاستجاب . . .

وكثر بينهم همس ، تخلله فحيح الكيد والدس . . .

تقضت أيام لم يجرؤ فيها أحد على أن يطالع الناظر بشكاة ، أو يرفع إليه ظلامة ، ولكن الضيعة عاشت هذه الأيام تحت ستار من الأسرار . . .

وتواصل العمل فى تدريب الخفراء بهمة ونشاط ، وأحس شيخ الخفر سطوة سلطانه ، فازداد من صلف وعتو ، وتتابعت منه صنوف الاهانات من ركل وصفع وطرد ، يسخو بها على مرءوسيه فى تجن وتقوّل وادعاء ، واجداً من ناظر الضيعة ظهيراً يواليه بالرضا والتأييد . . .

وسرت بين سكان الضيعة هيبة شيخ الخفر وجاهه ، فتقرب إليه الناس جماعات ، وخصوه بأنواع الزلفى ، وأصبح بيته مقصداً لطلاب الشفاعات فى شئون الضيعة وما يتصل بادارتها ، ومرفأ لكثير من الهدايا والاتحافات من خيرات الريف ! . . .

ومرة عنف الناظر بشيخ الخفر ، فى بعض الأمور ، فلم يرقه ذلك ، وبدت عليه بوادر التنمر ، ونسى فى غشية الزهو والسلطة أنه بين يدى رئيسه ، وتضاءلت فى مخيلته تلك الحكمة القائلة بأن الطاعة أساس الجندية .

وانتهى الأمر بالناظر وشيخ الخفر إلى جفوة تطاير غبارها وتسامع بها الناس .

وما أسرع أن تهاوت الظلامات تصايح الناظر وتماسيه ، مهيبة به أن يضع حدا لذلك الجبار العنيد الذى عاث فى الضيعة فساداً .

وفكر الناظر فى أمر شيخ الخفر طويلا ، وأسلمه التفكير إلى رأى حاسم ، هو إحالة ذلك الرجل إلى مجلس تأديب . . .

وانعقد المجلس ، فتولى الناظر رياسته ، متنفخاً فى جلسته ، وعن يمينه شيخ الجامع يرزح تحت ثقل عمامته ، وعن يساره ذلك الشيخ الذى يقوم بأعمال الكتابة فى الضيعة ، تكاد تخطئه العيون لضموره وانكماشه .

وبدت السين والجيم تتقاذف بهما الألسن فى تلك الحجرة المعتمة المتهدمة التى يكاد سقفها يخر ، وقد وقف المتهم يحاصره جمع من الشهود . . .

ونصل ضوء النهار ، وما برحت المحكمة جادة تحقق وتناقش ، وقد اختنق الجو بالأنفاس ، وتحلب العرق من الجباه ، وبدا الناظر محتقن الوجه ، مضطرم العينين ، ففك أزرار قميصه ، وشمر كميه ، وهو منخرط فى عمله يهيمن على نظام الجلسة ، ويلقى أشتاتاً من الأوامر والنواهى فى حمية وحماسة . . .

وأخيراً رأى رئيس الجلسة أن يختلى بنفسه ، ليصدر حكمه فى قضية اليوم ، فأمر باخلاء المكان . . .

وبعد هنيهة أذن للجمع فى الحضور ، لاعلان الحكم ، فاغتصت الحجرة بوافديها ، وتجمع الناس حولها يسدون منافذها ويرهفون الأسماع .

وما هى إلا أن اعتلى الناظر مقعده ، ووقف يقرأ ورقة فى يده ، وبعد أن أشبع نهمه من تكرار : « من حيث إن . . . » أعلن حكمه القاضى بفصل شيخ الخفر وإلزامه دفع غرامة جسيمة . . .

فدوّت فى الحجرة ضجة عارمة ، وتعالت أصوات تهتف بحياة العدالة ، وأخرى تهتف بسقوط الطاغية البغيض !

واخترق الناظر زحمة الناس ، وهو يضرب الأرض بخطا ثقال ، ويتلاعب بسوطه فى اهتياج ، وقصد إلى منزله مزهو النفس ، ولكنه ما كاد يبلغ المقعد حتى ارتمى عليه منسرق القوى .

وسهرت الضيعة ليلتها تتحدث فى شأن من يخلف شيخ الخفر المعزول ،

فتحلقت الجماعات على المصاطب ، واختلطت الأصوات فى مجادلة وحوار ، تحاول كل فئة أن ترشح من تهوى ، وتعمل على إحباط غيره من المرشحين لهذا المنصب الخطير الذى تعرفت الضيعة مكانته وأثره فى التسلط والاغتنام .

وتسللت الأشباح زرافات وفرادى إلى بيت الناظر ، يطويهم الباب فى مساترة وحذر .

وظلت حجرة النـاظر تبعث شعـاع مصباحها حتى جوف الليل ، وطيف الناظر يتراءى وراء النافذة فى جيئة وذهوب . . .

وبكر الناس فى رونق الصبح يتجمعون تجاه البيت مرتقبين مهبط الناظر ليروا ماذا بيت من رأى فى اختيار شيخ الخفر الجديد . فما إن لمحوه مقبلا حتى تكأكأت عليه الجموع تستخبره فى تعريض وتلميح . فمضى عنهم مشمخر الأنف ، محتفظاً بالسر العظيم !

وقصد الحجرة التى كانت أسس محكمة الفصل فى قضية شيخ الخفر ، وهنالك أعلن على الملأ أنه قد تخير الخفير الطريد شيخاً للخفر ، فكأنما رمى بذلك إلى أن ينصف مظلوماً هضم حقه الشيخ المفصول ، حتى يطمئن الناس إلى أن العدل أساس الادارة فى عهد ناظر الضيعة الجديد ومخرجها من حال إلى حال .

وما كاد الناظر يعلن ذلك حتى تبدت علائم الدهشة على الوجوه ؛ فما كان فى حسبان أحد أن يقع الاختيار على ذلك الخفير الذى طرد من قبل . . . ولقد رشحت كل جماعة واحداً ، فلم يكن ذلك الرجل أحد المرشحين جميعاً ...

وظل الهرج والمرج ينتهب الجموع ، حتى فرقع الناظر بسوطه ، فتراجع الناس ، وثاب إليهم الهدوء .

واكتسى الشيخ الجديد معطفه السابغ ، وسوى على رأسه لبدته ذات الشارة الحمراء ، وأخذ بيده الهراوة الفارعة . . . وسرعان ماشهدت ساحة « الدوار » ثانية جمع الخفراء يزاولون التدريب ، وتجاوبت الأرجاء بالكلمات الخالدة :

— إلى اليمين در .

— الى الأمام سر .

— سريعاً قف .

— تعظيم سلام .

وآب شيخ الخفر الجديد إلى بيته ، يومئ بالتحية يمنة ويسرة لمن وقفوا له ؛ وما كاد يلج باب الدار حتى استقبلته حشود من القصاد يحملون له الهدايا والطرف ، ويعاجلونه بعبارات التهنئة والدعاء .

وتواردت الأيام تروع شيخ الخفر المفصول بألوان الاضطهادات والاهانات يتقصده بها شيخ الخفر الجديد ، يؤازره أصحاب الثارات والأحقاد ممن كان يطغى عليهم الشيخ الأول إبان حوله وطوله .

وتبدلت حال شيخ الخفر الجديد ، فتراءت فى بيته أنعم طارئة ، وعرف طريقه طلاب الحاجات والشفاعات ، والتف حوله الشيعة والأنصار . . .

وأصبح منصب شياخة الخفر ذائع الصيت ، قوى النفوذ ، يجتذب بلألائه النواظر ؛ فهفت إليه القلوب ، وتعلقت به الهمم ، وتكاثرت حوله الأطماع ...

وريعت الضيعة مرات بأحداث السرقات ، وتقليع الزروع ، وتغريق الحقول ، وما إلى ذلك من ضروب الكيد والايذاء . . .

وتوالت على بيت الناظر عرائض الشكاة والاتهام ، تمس شيخ الخفر وترميه بكل نقيصة شنعاء . فكان الناظر يقضى ساعاته الطوال يتصفح تلك العرائض ، ويذيلها بملاحظاته وتقريراته ، مجتهداً فى الموازنة والتأويل والاستخراج . . .

واستيقظت الفتنة فى قلب الضيعة ، وتبادل الناس الخوف والحذر ، وتسلل التباغض إلى جماعة الخفراء ، فانقسموا على أنفسهم شر انقسام ، وراح يكيد بعضهم لبعض . فتفطن شيخ الخفر إلى ذلك كله ، وخشى سوء المغبة ، وتمثل مصير سلفه ، فاتخذ للأمر أهبته ، وجعل يتحوط ويتحفظ ، وتذرع بشتى الوسائل ، من بث للعيون ، وإغراء بالغنائم ، وحبك للمكايد ، وتأليب لنفر على نفر ، حتى يحتفظ بمنصبه ، ويقبض على نواصى الأمور . . .

وآنس الناظر وميض النار خلل الرماد ، فضاعف عدد الخفراء ، وظهر فى الملأ يحمل إلى جنبه غدارة ضخمة ، يكف بها خائنة العيون !

وكان فى كل فرصة تلوح له ، يؤكد أنه لن يألو جهداً فى إقرار الهدوء والنظام ، فلا نجاح لعمل إلا فى ظلال الأمن والسلام !

وليلة هب الناظر من رقاده قبيل السحر مذعوراً ؛ إذ أنهى إليه بعض

الخفراء أن سطوا وقع على بيت شيخ الخفر ، وأن البحث جار عن المعتدين حول منازل شيخ الخفر المفصول ونصرائه !

وما إن أتم الخفير قوله ، حتى سمعت ضجة عنيفة ، وتضارب بالعصى الغلاظ ، وقد انطلقت أصوات النساء فى ولولة وتصايح وانتحاب .

فأسرع الناظر يرتدى ملابسه ، وهرول إلى مساكن الضيعة ، فألفى الثورة فى عنفوانها ، والمعركة تدور رحاها حامية الوطيس . فاقتحم الزحام فى جرأة وإقدام ، وراح يزأر بصوته ينهى ويأمر . فلم يعبأ به أحد ، وذاب صوته فى حرارة العراك والمطاحنة ، وأراد أن يستنجد بغدارته فما كاد يمسكها فى يده حتى وجدها قد أفلتت منه ، وذهبت أدراج الزحمة والاختلاط !

وأحس الجماهير تعتصره وتضغطه ، فحاول ثانية أن يصرخ ، فتعثر صوته فى حلقه ، فأراد أن يفزع إلى أعوانه من الخفراء والحراس ، فلم يجد أحداً فارغاً له ، كل منهم بنصيبه فى المشاجرة مشغول . وضاقت به وجوه الحيلة ، فتراجع نجاء بنفسه مما لا تحمد عقباه ، فاذا به عن كثب من فئة تتضارب بالهراوات فى عنف وهوج . وما هى إلا أن اندمج فى هذه الفئة ، وقد تعاورته الضربات فخر مثخناً بالجراح . . .

وفى مرتفع النهار ، شمل الضيعة خمود وتخاذل وانهيار . . . ثمة أناس داخل الأكواخ وخارجها طحنتهم المعركة وأدمت أوصالهم ، فهم يلمـون شعثهم ويعالجون جراحاتهم . . . وثمة أمتعة مبعثرة أمام الدور ، وأنقاض ماتهدم من جدران تجوس خلالها الكلاب متشممة فى خوف وحذر . . .

وفى صبيحة غد شوهد شيخ الجامع يجوب الضيعة ، مستعيذاً بالله ، ملتمساً منه اللطف فى قضائه . . . وكان يمر بالدور لماماً يعود طريحاً أو يواسى جريحاً ، ويهدئ ثائراً أو يشاور ذا رأى من الأشياخ . . .

وأدى به المطاف إلى إدارة الضيعة ، فما إن رآه الشيخ الذى يتولى كتابة الحساب ، حتى ألقى إليه مفاتيح المخازن ، فاذا هى هى تلك الحزمة الضخمة من المفاتيح الخشبية ، وقال وهو يسلمها له :

ــ أبقها معك يا مولانا الشيخ ، ريثما يتم تعيين الناظر الجديد !

محمود تيمور

غاية الفن لا ترام

[أنشأ إمام الشعراء العرب المعاصرين هذه القصيدة الرائعة ليشكر بعض الذين شاركوا فى أداء بعض حقه من التكريم .

ولست أدرى أيهما أحق أن يقدم إليه الشكر : أهو الشاعر الذى غذا قلوب الأجيال العربية منذ أكثر من نصف قرن أم هو الذى يعرف له بأخرة هذا الفضل ويؤدى إليه فى استحياء بعض الحق . ولكنى أعرف أن هذه المجلة تشكر للشاعر العظيم الصديق إيثاره إياها بهذه القصيدة التى تصور قبل كل شىء ما يمتاز به خليل مطران من كبر النفس والقلب والأمل ومن هذا التواضع الذى يرفع أصحابه فوق المتكبرين .]

طه حسين

أمر من يطلب الخلود عسير … لا يعار الخلود من يستعير

ذاك أسمى مطالب المجد لا يد … ركه مدع ولا مغرور

غاية الفن لا ترام وما يقـ … ـرب منها إلا النبيغ الصبور

أدهش الخلق راقئيل ولم يبـ … ـلغه منه ما شاءه التصوير

نحتت فدياس حير الناس حتى … لغدت تدعى الحياة الصخور

ثم ولى ذاك الصناع ، وما فى … نفسه حال دونه التقصير

أشعر الخلق كان هومير هل أد … رك منه كل المنى هومير

لم يتم الذى توخاه جوتى … لا ولم يقض ما اشتهى شكسبير

فى الفرنسيس هل تقضى مرام … لمجيد أو استمر سرير

ومن العرب لا يحاشى امرؤ القيـ … ـس ويناى عن القياس جرير

قال شيئاً مما أراد حبيب … وتغنى بما تسنى الضرير

وأتى معجزاته المتنبى … وهى مما أراد شىء يسير

سَلْ فُحولَ القريضِ ممَّن بهم أثّـ ـلَ مَجْداً هذا الزمانُ الأخير
هل لسامٍ أو حافظٍ أو لإسما عيلَ فيمن أجادَ شِعراً نظير
جاء شوقي ببعضِ ما رامَ منه وهو في الحق للقريض أمير
كلُّهم لم يَصِلْ إلى ما توخّى فثوى في الطريقِ وهو حسير
سرّهُ وَحيُهُ فلم يألُ جهداً وأبى العجزُ أن يتم السرور
ولكلٍّ مكانهُ من هَوى النا سِ وكلٌّ بالتكرماتِ جدير

هذه يا أحبتي سانحاتٌ لا تماري في الحق والحق نور
كان في الشعر لي مرامٌ خطيرٌ فعدا طَوْقَ المرامُ الخطير
هائمٌ في الوجودِ أسألهُ الوحْـ ـيَ كما يسألُ الغنيَّ الفقير
لجٌّ ما ادّخرتُ عزماً ولكنَّ مُرادي ناءٍ وباعي قصير
أكبروني ولستُ أكبرُ نفسي أنا في الفنِّ مستفيدٌ صغير
فوق شعري شِعْرٌ وفوقَ أجلِّ الشّـ ـعر ما قدَّرَ البديعُ القدير
لا يضقْ صدرُ شاعرٍ بأخيه يكره الفضْلُ أن تضيْقَ الصدور
والسماواتُ لو تأملتَ فيها ليس تحصى شموسُها والبدور
كلُّ جِرْمٍ يعلو ويصبحُ نجماً فلهُ حيِّزٌ وفيه يدور
والنجومُ التي تلوحُ وتخفى ربواتٌ وما يضيقُ الأثير

ذاك قولي وليس ينقصُ شكري وأخوكم كما علمتم شكور
غير أني أخشى تخطِّيَ حدّي وهو ضعفٌ مني فهل لي عذير
إنَّ هذا الاكرامَ للفنِّ ، لا لي ، والمرامُ الذي ابتغيتم كبير
أيَّ قسطٍ أوليتموني منهُ هو فضلٌ على قليلي كثير

خليل مطران

رابطة الماء فى وادى النيل

فى مقالين سابقين عالجنا موضوع الوحدة فى وادى النيل من ناحيتيه الجغرافية والتاريخية [1] ؛ فرجعنا بهذه الوحدة إلى أسسها الأولى فى البيئة ، واستعرضنا بعض ما فى تاريخ شعب الوادى من عبر وآيات قد تنير السبيل أمام من يعملون من أجل الوحدة فيما نحن مقبلون عليه من جهاد . ولكن هذا البحث لن يكمل أو يقارب الكمال إلا إذا عرضنا لناحيتين أخريين ، تتمثل إحداهما فى الماء وروابطه المادية ، وتتمثل الأخرى فى الجنس والثقافة وما إليهما من صلات . ويكفينا فى هذا المقال أن نعالج الناحية الأولى ، وأن نحاول أن نربطها بما للحياة فى وادى النيل من صلات مكينة بالبيئة ، واتصال وثيق بجريان هذا النهر العظيم الذى يمتد بمجراه الطويل فيصل ما بين البحر المتوسط وقلب إفريقية .

وقد سبق لنا فى تعريف وحدة وادى النيل أن اصطلحنا على أن يشمل « الوادى » تلك المناطق التى تعتمد فيها حياة السكان — فى مقوماتها الأساسية — على النهر اعتماداً مباشراً ، فى الاستقاء والرى والزراعة ، أو فى صيد الأسماك والأحياء المائية ، أو الاتصال بين جهة وأخرى على طول النهر ، أو فى غير ذلك من مرافق الحياة وأسبابها الأولية . وخرجنا من هذا التعريف بأن مصر والسودان وبعض أطراف الهضبة الاستوائية تدخل كلها ضمن هذا الوادى الذى ننادى بوحدته . ولكن هذا القول يحتاج إلى مزيد من الايضاح ، لا سيما فيما يتصل بأسباب الحياة الأولى فى الرى والزراعة . فمن المعروف أن الحياة الزراعية فى مصر لا يمكن أن تقوم بغير النيل ؛ إذ الأمطار فى حكم العدم ، ولا يمكن أن تكفى لشئ من الزراعة إلا على بعض السواحل الشمالية . ومثل هذا

---

(١) انظر الكاتب المصرى عددى فبراير ١٩٤٦ ومايو ١٩٤٧ .

ينطبق أيضاً على معظم جهات السودان لا سيما السودان الشمالى والأوسط حيث توجد الأراضى ذات التربة الغرينية الصالحة فى دنقلا ، وعلى جوانب النيل الأعظم وفى أرض الجزيرة ودلتا كسلا ، وهى كلها مناطق نشأت فيها بعض الزراعة فى العصور القديمة ، ولكن التوسع الحديث استلزم تنظيم الإفادة من مياه الرى على نطاق واسع جديد . أما جنوب السودان ، حيث تكفى الأمطار للزراعة ، ويمكن أن يستغنى عن مياه النهر ، فان التربة ليست من الجودة بما عليه الحال فى مناطق الرى بالشمال ، كما أن انعدام نظام الملكية الفردية وقلة استقرار السكان ونزوعهم إلى التجول والارتحال وتعلقهم بالرعى أكثر من الزراعة ، بل قلة عدد هؤلاء السكان وما هم عليه من حالة فطرية قطع الاستعمار ما بينها وبين المدنية الشمالية من أسباب ، كل هذه مضافاً إليها سوء الحالة الصحية وانتشار بعض الأمراض ، قد عطلت تقدم الزراعة فى الجنوب ، وستعطله ما دام المسيطرون على السودان يحولون دون توغل العناصر الشمالية إلى جنوبه لتزيد من سكانه ولتعلمهم فنون الزراعة واستغلال التربة على نحو يقربهم من أهل الشمال .

لذلك فان السودان فى حالته الراهنة ، وبمناطقه التى تصلح للرى والانتاج الزراعى الحديث فى الوسط والشمال يتساوى مع مصر فى اعتماده على مياه النهر . ومن واجب أولئك الذين يشرفون على ضبط النيل وتنظيم مشروعاته أن يسلموا بهذه الحقيقة ، وأن يدركوا إلى جانبها أن أى تفرقة بين أدنى الوادى فى مصر وأوسطه فى السودان إنما هى تفرقة مصطنعة ، نادى بها صوت الاستعمار فانخدع له فريق من الناس فى مصر فتحدثوا عن حقوق مصر المكتسبة فى مياه النيل ، وانخدع له فريق من الناس فى السودان فهمُّوا أن يتحدثوا عن حقوق السودان المغتصبة من مياه النيل ، فى حين أن الطبيعة ذاتها وحدت بين شطرى الوادى فى كل شئ ، حتى فى الاستقاء والرى للانسان والحيوان والنبات ؛ ثم إنها فى هذا التوحيد قد رتبت من الماء ما يكفى كل حى على جوانب النهر ، مهما تكاثرت الأحياء من إنسان وحيوان ونبات فى حدود ما يسمح به المكان ويتسع له نطاق الأرض الصالحة للحياة المستقرة وللزراعة والانبات فى كل من مصر والسودان . فنحن إن حسبنا مجمل تصريف النهر بعد اقتطاع ما يفقد من الماء بسبب التبخر والتسرب وغير ذلك وجدنا أنه لايقل فى المتوسط عن الثمانين

ملياراً من الأمتار المكعبة فى كل سنة ؛ يقدر ما تستخدمه منها مصر الآن من مياه النهر الجارية بطبيعتها ومن المياه المختزنة بالخزانات بما لا يزيد عن الستة عشر ملياراً ؛ ويقدر أيضاً أن مصر مهما توسعت فى الزراعة فى المستقبل ورى الأراضى البور بعد استصلاحها ، فان ما تستخدمه من مياه النهر لن يجاوز الخمسة والعشرين ملياراً ، أى أقل من ثلث موارد الماء فى النهر . أما السودان فان ما يستخدمه من مياه النهر الآن لا يعرف على وجه الدقة ، ولكنه على كل حال لا يجاوز المليار الواحد . وليس من شك فى أن مساحة الأرض المنزرعة والمروية مهما اتسعت فانها لن تستوعب أكثر من نسبة محدودة من مياه النهر التى تمر بالسودان . بل ليس من شك فى أن هذه المياه تكفى حاجات مصر والسودان جميعاً حتى فى سنوات قلة الماء قلة نسبية . ولكن الشئ الضرورى هو أن نتدبر أمرنا فى ضبط هذا النهر ؛ فمن المسلم به أننا لن نستطيع أن نتغلب على جميع الصعاب الطبيعية ، التى تقضى أن نخسر جانباً كبيراً من مياه النهر إبان الفيضان فندعها تنصرف إلى البحر دون أن يستفاد منها فى الزراعة . فالفيضان أقوى من أن يتحكم فيه إنسان تحكما تاما ؛ وقد تؤدى محاولة التحكم فيه إلى كارثة ليس من الخير أن نتعرض لها بوسائلنا الحالية فى الهندسة النهرية . بل إننا إذا حاولنا احتجاز مياه النهر فى بعض أجزاء مجراه إبان الفيضان الحبشى فقد ينتهى الأمر إلى إرساب طمى الحبشة فى حيضان الخزانات فتخسره التربة المصرية من جهة ، وتمتلئ الخزانات بهذا الطمى وتقل سعتها على مر الأيام من جهة أخرى . ولذلك فمن الخير أن تقتصر مشروعاتنا لاختزان المياه على تصريف النهر فى غير موسم الفيضان ، فلا يبدأ احتجاز الماء إلا بعد أن يجاوز ذروة الفيضان الحبشى من رافدى العطبرة والنيل الأزرق ، وهما اللذان تحمل مياههما أكبر كمية من الطمى . ومعنى هذا أننا لن نستطيع أن نتحكم بالاختزان فى أكثر من نصف تصريف النهر العام على وجه التقريب ؛ وهو قدر يكفى حاجات مصر والسودان فى الحاضر والمستقبل ، وإن استدعى الاحتياط لسنوات الجفاف أن تخصص بعض الخزانات لتكوين احتياطى من الماء يضاف إليه فى كل سنة ويحتفظ به للتعويض فى سنوات الجدب وقلة المطر فى منابع النيل .

وليس هذا مجال الاطالة فى سرد مشروعات النيل مما يعنى به المهندسون

ومما نراه مفصلا فى الكتب[١] . ولكن هناك ثلاث مسائل عامة يجب أن نتناولها بشئ من الابانة والتوضيح . فأما الأولى فان للنيل منبعين أساسيين ، أحدهما يأتى من الهضبة الاستوائية ويجلب الماء بانتظام طوال السنة ، ولكنه لا يمد النيل فى الوقت الحاضر بأكثر من ١٤,٥ فى المائه من مياهه فى المتوسط وهى نسبة محدودة إذا ما قورنت بالحبشة ومياهها ، ولكنها دائمة وتفيد فى الرى الصيفى فى مصر بصفة خاصة ، رغم أن جانباً كبيراً من هذه المياه الاستوائية يفقد فى الطريق إلى الشمال بسبب البخر ، وشدة الحرارة والجفاف فى سهول السودان . فأما المنبع الآخر فيأتى من الحبشة ويمد النيل بباقى مياهه ، وقد تصل نسبة مياه الحبشة فى بعض السنوات التى يشتد فيها المطر على تلك الهضبة إلى سبعة أثمان مياه النيل كلها ؛ فضلا عن أنها تجلب معها معظم الطمى والغرين أو كله تقريباً ؛ وهو ضرورى بل حيوى للتربة المصرية ، وإليه يرجع الفضل فى احتفاظ أرض الكنانة بخصبها المعروف ، وفى تجديد قوة الانتاج فى كل عام . بل يقدر أن هذه المياه تجلب إلى مصر فى كل سنة مالا يقل عن خمسة وثمانين مليون طن من الرواسب ترفع مستوى الأرض ملليمتراً فى كل عام ، وتعوض ما يفقد فى إنماء النبات وتغذيته . على أن هذين المنبعين الاستوائى والحبشى إنما يتم كل منهما الآخر ؛ لأن مياه الهضبة الاستوائية قليلة ولكنها دائمة الجريان ولأن مياه الحبشة غزيرة ، ولكنها لا تجرى طوال العام ، بل تجرى فى فصل

---

(١) يكفى أن نضيف هنا أن من المشروعات التى تمت فى خزان اسوان وسعته الآن بعد التعلية الثانية حوالى خمسة مليارات ونصف مليار من الامتار المكعبة ، وخزان جبل الأولياء وسعته حوالى المليارين والنصف ، وخزان سنار أو مكوار وسعته حوالى ثلاثة أرباع المليار ، ومن مشروعات الخزانات المقترحة مشروع البرت وقد يتسع لأكثر من اثنى عشر مليارا . وخزان طانا وقد يتسع لنحو أربعة مليارات لتصرف سنوياً ولنحو ضعف هذا الرقم ليحفظ فى البحيرة على سبيل الاحتياط لسنوات الجفاف ، ثم خزان الشلال الرابع وتتوقف سعته على مقدار ارتفاع سده المقترح ، ولكن المنتظر أن تزيد سعته كثيراً عن خزان اسوان . وهناك خزان وادى الريان لتفادى خطر الفيضانات العالية ، ولكنه قد يفيد فى رى الدلتا بنحو مليارين . والى جانب الخزانات المقترحة هناك مشروع قناة لتفادى المستنقعات ومنطقة السدود فى بحر الجبل حيث يضيع الآن من الماء بالبخر والامتصاص ما يقدر بثمانية عشر ملياراً . ويلاحظ فى احتساب هذه المليارات الكثيرة من الامتار المكعبة أن جانباً كبيراً مما سيختزن فى الجنوب سيفقد بالبخر والتسرب فى طريقه إلى مصر فى الشمال . وقد تصل نسبة الفقدان إلى النصف أو أكثر إذا كانت الخزانات بعيدة فى أعالى النيل وأريد أن يستفاد بالمياه فى مصر .

معين من السنة ؛ ولولا مياه الهضبة الاستوائية لجف النيل فى بعض الأشهر لا سيما فى الربيع وأوائل الصيف . لذلك ينبغى فى رسم مشروعات النيل ألا يغفل أمر ما هنالك من تكامل بين مصادر المياه فى النيل ، ينبغى أن يتبعه وأن يترتب عليه تكامل مماثل فى مشروعات اختزان الماء ، فلا نعتمد على مياه الهضبة الاستوائية وحدها كما أراد أن يوجهنا الانجليز ومهندسوهم فى وقت من الأوقات ، ولا نتصور أننا نستطيع أن نستغنى بمياه الحبشة الموسمية الغزيرة والغنية بالطمى عن مياه النيل الأبيض الدائمة ولكنها تكاد تخلو من المواد العالقة .

أما المسألة الثانية فتتمثل فى أن مصالح مصر والسودان لا يعارض بعضها بعضاً كما يصور الحال نفر من المغرضين ؛ وإنما هى مصالح متكاملة . وليس من شك فى أن من صالح السودان أن تطمئن مصر إلى حبل الحياة الذى يمتد إليها من الجنوب ، وأن تجد كفايتها من الماء فى الوقت الحاضر وفى مقبل الأيام ؛ فازدهار الحياة فى مصر كان على الدوام معياراً لازدهار المدنية فى وادى النيل كله ، ومصر القوية تستطيع أن تدفع عن السودان كثيراً من الضر الذى قد يأتى من الشمال ، بل إن مصر كانت على الدوام مفتاح السودان ، فإن ضعفت طمع فيها الطامعون ولم يسلم من شرهم شطر وادى النيل الأعلى فى الجنوب . كذلك كانت مصر مخرجاً طبيعيا لحاصلات السودان منذ أقدم العصور ؛ فان رغدت حياة أهلها ازدادت مقدرتهم الشرائية ، وأفاد السودان من ذلك ما يفتح أبواب الرزق والتجارة ، ويعود على أهل الجنوب بالخير والبركة . وعلى نفس القياس نستطيع أن نؤكد أن مصلحة مصر المادية ذاتها تقتضى أن ينال السودان أكبر قسط من التقدم والمدنية . فقد كانت مصر على الدوام مضطرة إلى أن ترد عن السودان ضعفه إن كان ضعيفاً ، وأن ترد عنه فقره إن كان فقيراً لا يستطيع النهوض بنفسه . وقد عمدت سياسة الاستعمار فى السودان خلال ربع قرن كامل إلى أن تفقره بحيث يعتمد على الشمال فى المادة ويعتمد على يد الاستعمار فى الادارة ونظام الحكم . فلما استطاع السودان أن يقوم بنفسه وأن يقف على قدميه من ناحية الميزانية ، وقفت حكومة السودان فى سبيل التقدم الشعبى ، وحولت أبواب الرزق خلال ربع قرن آخر إلى الشركات البريطانية ، فاستنزفت من السودان كل قطرة فائضة من الرزق . وإذا سارت

الحال على سياسة الإفقار الحالية فان مصر ذاتها لابد أن تتأثر بالحالة فى السودان . ذلك أن مصر لا تملك أن تتقدم بنفسها وأن تترك السودان يتخلف عن الركب ؛ فجسد هذا الشعب جسد واحد ، رأسه فى الشمال وقوامه فى الوسط والجنوب . وقد رأينا سياسة المهندسين البريطانيين فى عهد الاحتلال والحماية فى مصر ترمى كلها إلى تركيز التقدم الزراعى فى الدلتا وشمال مصر حيث ينتج القطن الجيد والطويل التيلة لتموين المصانع البريطانية ؛ أما الصعيد وأما السودان فلم تهتم لهما بريطانيا ، بل كان إهمالها لهما فى أول الأمر عن قصد ، تنبه له نفر من مهندسينا المصريين . فلما استقل المصريون ببعض شؤونهم وجهوا همهم إلى الصعيد ، فأصلحوا من شأنه ونشروا الزراعة والرى الدائم فى ربوعه ، فرفعوا من مستوى أهله وقاربوا بذلك بينهم وبين أهل الدلتا . وليس من شك فى أن هؤلاء المصريين يدركون تماماً أن لا خير فى أن تقف هذه الحركة المباركة عند حدود الصعيد ، بل ينبغى أن تمتد إلى النوبة ودنقلا وبقية ربوع السودان ، مهما اشتط الانجليز ودفعتهم الأثرة إلى أن يضيقوا على الناس وقد بسط الله لهم فى الرزق ، بل مهما حاول مستعمروهم أن يقفوا فى طريق الزمن وأن يكتفوا بتلك المشروعات القليلة التى تستفيد منها الشركات البريطانية دون غيرها من أهل السودان .

مصلحة مصر إذن فى مصلحة السودان . وإذا نحن نظرنا بعين الأمل إلى هذا الوطن الموحد الكبير فلن يكون من الخير لأهله أن يزدهر فيه شطر دون شطر ، وأن يتقدم نصفه الشمالى فتدب فيه الحياة قوية فتية على حين يتأخر الشطر الآخر فيصيبه الهزال والكساح ويبقى عالة فى حياته الاقتصادية وفى كل ما يترتب عليها من فقر فى السكان وضعف فى القدرة على النضال والكفاح . . . بل الدفاع فى عالم تكاثر فيه المتكالبون على استغلال كل ضعيف .

وأما المسألة الثالثة التى ترتبط فيها حياة مصر وازدهارها بحياة السودان وازدهاره ، فتتمثل فى أن مصر لا تملك أن تستغنى عن السودان إن هى أرادت أن تنجز مشروعاتها المختلفة لضبط مياه النيل وتسخيرها فيما يجلب الخير . وكذلك السودان لا يملك أن يستغنى عن مصر إن هو أراد أن يتم من هذه المشروعات ما يضمن له الخير والفائدة وما يفتح أمام أهله أبواب الرزق . ذلك كله أن مصر لاتستطيع أن تقيم من أعمال خزن المياه ومشروعاته داخل حدودها

السياسية المعروفة غير خزان أسوان وهو لا يختزن أكثر من خمس حاجاتها النهائية من الماء بعد جيل واحد ، وغير مشروع مشكوك فيه بعض الشك هو مشروع وادى الريان . أما المشروعات الأخرى فيجب أن تتم كلها فى أرض السودان من جهة ، وقرب منابع النيل فى الحبشة والهضبة الاستوائية من جهة أخرى . فأما فى السودان فطبيعة المجرى تسمح باختزان المياه من سنة لسنة ، كما هى الحال فى خزان جبل الأولياء الذى يملأ فى كل سنة ليفرغ فى أشهر التحاريق ، أو كما هى الحال فى خزان سنار أو مكوار . وهذا النوع من الخزانات السنوية يفيد إلى حد بعيد ، ولكنه لا يكفى بمفرده لأن النيل عرضة لأن يأتى شحيحاً جدا فى بعض السنين الشاذة ، بحيث يخشى ألا يكفى ماؤه فى بعض تلك السنين حتى لملء الخزانات ورى المساحات المزروعة بالفعل ، مما يترتب عليه قحط و إجداب ومجاعة لا شك فيها (١) . لذلك كان من الواجب أن يفكر أهل الهندسة والرى بمصر والسودان على السواء فى بناء خزانات تحتجز فيها كميات من الماء لمدة طويلة ، بحيث تكون بمثابة « احتياطى » يصرف منه فى مثل تلك السنوات المجدبة . وهذه الخزانات لايمكن إقامتها فى سهول السودان ، و إنما تقام إما فى بحيرة طانا بالحبشة و إما فى إحدى بحيرات الهضبة الاستوائية وهى بحيرة البرت . و إذن فان السودان تواجهه — ولو فى المستقبل على الأقل — مشكلة من نفس النوع الذى يواجه مصر ؛ وهو أنه لا يمكن أن يعتمد اعتماداً كليا على مايقام فى أراضيه من خزانات . بل إن الطبيعة ذاتها قضت بما هو أكثر من ذلك ؛ فالسودان لا يستطيع فى يسر أن يفيد حتى من بعض مايخزن فى أرضه من ماء . فنحن نعرف مثلا أن النيل الأبيض يجرى فى مستوى منخفض عدة أمتار من مستوى أرض الجزيرة ، بحيث يتعذر تماماً أن تروى تلك الأرض من خزان جبل الأولياء . كما نعرف أنه حتى فى حالة خزان مكوار ، وهو على النيل الأزرق، لا تستطيع أرض الجزيرة المرتفعة أن تفيد منه أكثر من ثلاثة أخماس مايخزن فيه ؛ أما الباقى فلا مندوحة من أن يترك ليجرى فى النهر من جديد لتفيد

(١) من أمثلة تلك السنوات المجدبة عام ١٩١٣ حيث انخفضت جملة تصريف النهر طول العام الى ٤٤ مليارا من الامتار المكعبة عند اسوان ؛ هو قدر يزيد قليلا عن نصف متوسط التصريف العادى للنهر هناك .

منه أرض النيل فى الشمال . وهكذا قضت الطبيعة ذاتها بألا يستطيع السودان أن ينفرد أو أن يجد كفايته تماماً فيما يقام فوق أرضه من مشروعات . . . بل هكذا قضت الطبيعة بأن يستوى السودان ومصر فى الحاجة إلى تنسيق مشروعات الرى كلها من منابع النيل إلى أدانيه ، وبأن يشارك السودان مصر فيما يخشى على تلك المشروعات من خوف ، وما قد يعترض تحقيقها من صعوبات تمتد إلى خارج نطاق الوادى بحدوده السياسية . فالمصالح الحيوية لمصر والسودان تتداخل أشد التداخل فى نطاق الوادى ، وتمتد إلى ماوراء الحدود السياسية امتداداً لا حياة معه لمصر والسودان إلا إذا كانتا يداً واحدة .

وفوق ذلك فمن غير المعقول ولا الممكن أن تكون لمصر مشروعاتها المستقلة فى نهر النيل ، وأن تكون للسودان مشروعاته . فذلك إن تصوره الخيال فان الحقائق الطبيعية الواقعةلاتجيزه . ولقد رأينا كيف أن خزان مكوار ، وقد أنشئ من أجل أرض الجزيرة إنشاء ، لم تملك حكومة السودان بحكم جريان النهر أن تحبس فائدته على نفسها ؛ وكذلك خزان جبل الأولياء (وهو مشروع مصرى) أو خزان الشلال الرابع إن تم إنجازه يمكن أن تفيد منه أراضى دنقلا الشمالية بواسطة الآلات الرافعة ، أو بواسطة إقامة بعض القناطر الموازنة فى المستقبل . ونستطيع أن نجرى فى سرد الأمثلة التى توضح مبلغ تداخل مصالح الرى فى مصر والسودان ؛ ولكننا نكتفى بأن نضيف أن السودان فى حالته الراهنة وبموارده المالية ، لا يستطيع أن يقوم حتى ببعض المشروعات الضرورية للرى . وقد أنشئ فيه سد مكوار ، ولكنه أنشئ بمال أجنبى ولمصلحة أجنبية قبل أن تكون مصلحة سودانية . وليس من الخير للسودان أن تمضى أموره فى المستقبل على نحو مامضت عليه فى الماضى ؛ فذلك حكم على أهله بالاستعباد الاقتصادى ، وبكل مايجره من استغلال يصيب الحياة القومية فى الصميم . ولكن السودان إن استجاب لما تقضى به الضرورة المادية من الارتباط بمصر فلن يخشى أن تجر عليه المعونة المصرية استغلالا أو مذلة ؛ فقد سبق أن أنفقت مصر فى السودان خلال أكثر من قرن ملايين وملايين ، ومنحت السودان من مالها ورجالها ومن خيرها ومادتها ما لم تمن به عليه . . . وهيهات أن تمن ، وهى إذ فعلت ذلك لم تقصد إلى أن ترتب

لنفسها حقوقاً مضاعفة ، ولا إلى أن تجلب لنفسها منفعة رابية كما فعل الانجليز فى السودان وفى مصر على حد سواء .

ولكن حديث الوحدة المائية بين شطرى الوادى لا يتم إلا إذا عرضنا لبعض ماجرت عليه الأحوال فى السودان عندما بدأ المشرفون عليه يوجهون مصايره ، ويعملون على تحقيق ما أسموه « رفاهية السودانيين » . وقد يكفينا أن نضرب مثلا بأرض الجزيرة ومشروعات الرى فيها . فقد بدأ التفكير فيها فى أوائل هذا القرن ، ونضج المشروع بعض الشئ قبيل الحرب العالمية الأولى ، حيث قدرت له بضعة ملايين قليلة من الجنيهات . ولكن وقوع الحرب عطل المشروع ورفع تكاليفه فى النهاية إلى أكثر من ثلاثة عشر مليوناً بما فى ذلك مصاريف السد ذاته عند مكوار . والشئ الطريف أن حكومة السودان تطوعت فسخرت نفسها ونفوذها فى خدمة نقابة الزراعات السودانية، وهى شركة بريطانية خالصة تولت المشروع ، فمكنتها الحكومة من الاستيلاء على الأرض نظير ثمانين قرشاً للفدان الواحد شراء ، أو نظير عشرة قروش للفدان إيجاراً فى العام ! وتم الاتفاق بين النقابة والحكومة على أن يتم انتزاع الأرض من أصحابها السودانيين ، ثم يجبرون بعد ذلك على استئجارها وزراعتها قطناً بحسب الشروط التى تضعها النقابة ؛ ويقسم المحصول فى النهاية بنسبة ٤٠ فى المائة للأهالى ومثلها للحكومة والباقى للشركة ، مع منح الأهالى الحق فى زراعة بعض المحاصيل الغذائية كاللوبيا والذرة وغيرهما مما قد تشتريه الحكومة أو النقابة أو غيرهما من شركات الإصدار بأسعار محدودة ليباع فى الخارج بأسعار مربحة !

وهذا المشروع الذى يبدو كأنه أدى إلى رفع مستوى المعيشة وزاد من رفاهية السودان قد يكون ظاهره الخير ولكن باطنه شر لا شك فيه . فالأرض قد انتزعت من الأهالى الذين أصبحوا بذلك أجراء بعد أن كانوا ملاكاً ؛ وهذا فى حد ذاته لا يمكن أن يكون أساساً لنهضة صادقة ، ولا يمكن أن تحتفظ معه جمهرة المنتجين بما ينبغى للمواطن من روح الاعتداد الشخصى والعزة القومية ، فضلا عن أن فيه غبنا فاحشاً لا يعادله إلا مافعله المستعمرون البيض حين استولوا على الأرض الصالحة من أصحابها السود فى مستعمرات شرق إفريقية وجنوبها . وفوق ذلك فان حكومة السودان ، مع الأسف الشديد ،

لم تشأ حتى أن يجرى العمل بعد تسوية مسائل أرض الجزيرة على أساس الاستئجار الجبرى من الأهالى . . . فسنت فى عام ١٩٢٥ قانوناً جديداً أسمته قانون تسوية الأراضى ، اعتبرت به جميع الأراضى غير المسجلة فى السودان ملكاً للحكومة حتى يثبت عكس ذلك . فاذا راعينا أن شؤون العقود والتسجيل لم تكن مرعية على الدوام فى ربوع السودان أدركنا كيف أن الحكومة قد استطاعت فى ظل هذا القانون أن تحرم الأهالى حتى قيمة الايجار الاسمية حين وضعت يدها على مساحات واسعة من الأرض ، ومهدت لنفسها أو للشركات البريطانية أن تستغلها برءوس أموالها الأجنبية .

وليت أضرار مشروع كمشروع الجزيرة تقف عند هذا الحد من الاستغلال ؛ فقد استطاعت الحكومة بمالها من سلطة الاستيلاء أثناء الحرب الأخيرة مثلا أن تضع يدها على محصول السودان كله من القطن ، وأن تورده إلى المصانع والسلطات البريطانية بثمن حددته هى بما لا يزيد كثيراً على نصف ثمن القطن فى الأسواق المصرية بالذات .

لذلك كله لم يكن غريباً أن ينفر السودانى من التعاون والمشاركة الصادقة فى مشروع لم يلبث أن أدرك أن عليه منه الغرم . ولم تلبث حكومة السودان ذاتها أن رأت ذلك منذ البداءة فشجعت بعض الوافدين من السودان الغربى ونيجيريا على المرور والاقامة بأرض السودان أثناء ذهابهم إلى الأرض المقدسة للحج ، وأثناء عودتهم إلى بلادهم ؛ فتستأجرهم النقابة والشركات بأجور منخفضة وتضارب بذلك الأيدى العاملة الوطنية . وقد ترتب على ذلك فى آخر الأمر أن أصبح نحو ربع الأراضى المنزرعة قطناً بالسودان يفلح بأيد عاملة أجنبية عن السودان . وهكذا تنزع الأرض من الأهالى وتزرع برأس مال أجنبى وبأيد عاملة أجنبية . . . وهيهات أن يكون ذلك أساساً صالحاً لنهضة قومية فى بلد يقال إن القائمين على شؤونه يعملون من أجل رفاهيته ، ومن أجل إعداده للاستقلال الاقتصادى والقومى العام !

ولو أن حكومة السودان كانت تعمل حقا من أجل رفاهية السودانيين ورفع مستواهم العام لكان الواجب أن تفكر فى التوسع فى زراعات أخرى غير زراعة القطن التى تمون مصانع بريطانيا . بل لكان الواجب أن تعنى قبل ذلك بنشر زراعة الحاصلات التى تيسر الاستهلاك المحلى وترفع مستواه بين

عامة طبقات الشعب ، مثل القمح فى بعض الجهات التى تصلح له ، ومثل الفواكه ، ويكاد السودانيون يحرسون منها إلا من استطاع أن يدفع الثمن غالياً لما يستورد من الخارج ، ومثل قصب السكر الذى يمكن أن تنشأ عنه صناعة نافعة لولا أن الحكومة ذاتها تحتكر استيراد السكر وتجارته .

بل لو أن حكومة السودان كانت تعمل حقا من أجل تربية السودانيين وإعدادهم للنهضة الاقتصادية المرتقبة لكان الواجب ألا تغالى فى إقامة مشروعات الرى والزراعة على أساس المزارع الكبيرة التى تشرف عليها الشركات الكبرى وتستخدم فيها الآلات الحديثة ويرتب العمل فيها على أساس لا يمكن أن يتعلم منه الأهالى ولا أن يقلدوه بأنفسهم أو يحتذوه فى مزارعهم الصغيرة ، بل لا يمكن أن ينقل عنه وأن يقلده غير كبار المولين والملاك السودانيين ، وقليل ما هم ! لقد كان الأولى بالحكومة إن هى راعت مصلحة الشعب أن تشجع الملكيات المتوسطة ، وأن ترشد صغار المزارعين الملاك ، وأن تعد لهم من المشروعات مايعاونهم على تحسين أحوالهم ورفع مستواهم فى العمل والانتاج .

وغير هذه المسائل كثير مما يمكن أن نأخذه على حكومة السودان ، مع الأسف الشديد . وقد شوه ماجرت عليه من سياستها فى الرى والزراعة معنى إفادة السودان من مياه النيل ؛ كما شوه ماينبغى أن يفهم من مشاركة السودانيين والمصريين جميعاً فى مايسبغ النهر على واديهم من خير وبركة ، وما يجرى به عليهم من فيض وإنعام .

أما بعد فان الله سبحانه قد أجرى النيل فى فيض زاخر ، وأمده بالغيث فى أكثر من منبع واحد ، وميزه على غيره من الأنهار فأخرج من مائه كل شىء حى ، وأنبت على ضفافه من كل الثمرات . وما كان الله ليقتر على خلقه فى الكنانة الكبرى حين أبدلهم من أمطار السماء ماء يجرى على الأرض ، وحين شاء لهم أن تأتيهم أسباب الحياة مع الفيضان فى كل عام . وليس أبغض إلى الله من أن يمن الناس بعضهم على بعض بما لا يملكون ، ولا أبغض إليه من أن يضيق الناس بعضهم على بعض وقد بسط الله لهم فى الرزق . وليس أحب إليه من أن يذكر الناس نعمته السابغة ورحمته التى وسعت كل شىء . والله

سبحانه قد دبر الماء للناس فى ربوع هذا الوادى من أقصاه إلى أقصاه ؛ ولكنها الجهالة قد أعمتنا عن نور الله ، وكادت تضلنا سواء السبيل . بل هو المكر السيئ من جانب أولئك الذين فرضوا أنفسهم على الوادى وأبنائه ففرقوا بينهم وسعوا بالباطل يقطعون ما وصل الله ، ويحبسون الخير وقد منحه الخالق، ويقيمون أنفسهم حلفاء لنا ولكنه حلف الغالب للمغلوب ، ويظهرون للناس بالنصح والارشاد وهم نحو الغاية ساعون وبالباطل مرجفون . ومع ذلك فقد يكون من الخير لنا ونحن فى هذه المرحلة من كفاحنا القومى فى الشمال والجنوب ، أن نذكر قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . وليس أمام أبناء الوادى جميعاً إلا أن يكونوا يداً واحدة تعمل من أجل الخير ، وإلا أن يوقنوا أن القطيعة فيما بينهم لم يأمر بها الله ؛ فقد أجرى عليهم الحياة من نيل واحد ليعيشوا فى كنانته الكبرى شعباً واحداً وأمة واحدة . وهم إن فعلوا ذلك فستدين لهم الأمور ، وسيجدون من ماء النيل إن هم عرفوا قدره وأحسنوا تدبيره مايروى الأرض ويخرج الثمرات ويفيض بالخير والبركة على الخلق جميعاً بين أقصى الجنوب وأقصى الشمال.

سليمان حزين

تطور الدبلوماسية الأمريكية

من العزلة إلى سياسة عالميــة استعمارية

لم يكن خطاب الرئيس ترومان فى البرلمان الأمريكى (الكونجرس) وهو الخطاب الذى رسم فيه صورة قاتمة لعالم ما بعد الحرب ، وأعلن عزم الولايات المتحدة على مساعدة اليونان وتركيا ، ومقاومة خطر الدكتاتورية والشيوعية الذى ينساب رويداً إلى بعض نواحى القارة الأوربية ويهدد مصاير الشعوب الحرة ، مفاجأة لأولئك الذين تتبعوا سير الدبلوماسية الأمريكية فى عشرة الأعوام الأخيرة ، ولكنه كان بلا ريب عهداً جديداً يؤكد أهمية الطور الجديد الذى تجتازه الدبلوماسية الأمريكية فى عصرنا .

وقد تقلبت الدبلوماسية الأمريكية فى طورين بارزين ، لزمت أولهما زهاء قرن من الزمان ملازمة قوية أمينة ، وهو طور العزلة السياسية التى لبثت دهراً أبرز ظاهرة فى السياسة الأمريكية ، ولم تعدل عنه إلا بفعل أحداث عالمية خطيرة رأت أنها لا تستطيع إزاءها المضى فى سياسة الانكماش والجمود القديمة ، وأنه لا بد لها أن تنزل إلى ميدان الحوادث الدولية لتأخذ فى توجيهها بنصيب يتفق مع قوتها ومكانتها وغناها .

ويقترن طور العزلة السياسية بتاريخ الولايات المتحدة طوال القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر . ولا بد لنا لفهم البواعث التى حدت بالسياسة الأمريكية إلى مجانبة عزلتها المأثورة أن نرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر حينما اتخذت أمريكا قرارها الشهير بانتهاج العزلة السياسية . ففى ذلك الحين كانت الولايات المتحدة حديثة عهد بالحرية والاستقلال ، وكانت أوربا قد هبت عليها عقب الحروب النابوليونية ريح من الطغيان تؤازره الملوكيات الأوربية المحافظة فى روسيا وألمانيا والنمسا ، وهى التى عقدت فيما بينها المعاهدة المقدسة لتتعاون على قمع الحركات الحرة ، وكانت أمم أمريكا اللاتينية التى تحتل أواسط أمريكا وأمريكا

الجنوبية ، قداستطاعت أن تفوز بالتحرر من نير سيدتها القديمة أسبانيا . وكانت الولايات المتحدة وهى أقوى الأمم الجديدة المحررة تخشى عدوان الدول الأوربية القوية ، وتخشى أن تعود هذه الدول فتحاول غزو الأمم الأمريكية المحررة واستعمارها ، قبل أن يكتمل استقرارها ، وبذلك تهدد سلامتها وسلام القارة الأمريكية كلها . عندئذ اعتزمت الولايات المتحدة أن تصارح أوربا بنية كانت تساورها منذ عهد واشنطون ذاته ، فاتخذت قرارها الشهير الذى أعلنته على لسان الرئيس مونرو فى ديسمبر سنة ١٨٢٣ .

ويتلخص تصريح الرئيس مونرو وهو الذى ألقاه أمام البرلمان فيما يأتى : « إن الولايات المتحدة لا شأن لها بالحروب الأوربية . ولكنها تحذر الدول الأوربية وتنذرها أن أية محاولة من جانبها لبسط سيادتها على أية بقعة من نصف الكرة الغربى سوف تعتبر خطراً على سلام الولايات المتحدة وسلامتها ، وإن حكومة الولايات المتحدة لن تحاول التدخل فى شأن المستعمرات الحاضرة فى أمريكا أو الأراضى التابعة للدول الأوربية ، ولكنها لن تسمح أن تقوم هذه الدول بأى ضغط أو تدخل يراد به اضطهاد أية دولة من دول أمريكا اللاتينية الجديدة أو السيطرة عليها . » ومعنى ذلك أن أمريكا لن تسمح لأية دولة من الدول الأوربية أن تحاول استرداد مستعمرات أسبانيا المحررة أو السيطرة على أية بقعة أخرى من القارة الأمريكية فى المستقبل سواء بالفتح أو الشراء أو التعاقد .

تلك خلاصة التصريح الأمريكى الشهير الذى عرف من ذلك الحين بمبدأ مونرو ، والذى غدا أساساً لسياسة أمريكا الخارجية يؤكده كل رئيس جديد للولايات المتحدة ، ويعتبر بمثابة أصل دستورى لا محيص عنه ، وذلك بالرغم من كونه لم يدمج فى الدستور ، ولم يصدر به قانون ولم يعترف به كأصل من أصول القانون الدولى .

وقد غدا مبدأ مونرو من ذلك التاريخ شعار الولايات المتحدة ، لا تبغى به بديلا أو تجعله موضع مساومة ، وتحرص على أن تضمن كل معاهدة دولية تعقدها تحفظاً خلاصته أنه لن يعتبر شئ فى المعاهدة يخالف أو ينقص أو يضعف من مبدأ مونرو .

وشهرت أمريكا مبدأ مونرو فى وجه فرنسا سنة ١٨٦٥ حينما أرسل نابليون الثالث حملته إلى المكسيك تحاول أن تنشئ فيها إمبراطورية على رأسها

مكسمليان فون هبسبورج ، وهددتها باستعمال القوة المسلحة لمقاومة محاولتها .
ولكن فرنسا ما لبثت إزاء تطور الحوادث وثورة الوطنيين أن اضطرت إلى الانسحاب وكان هذا أعنف تطبيق لمبدأ مونرو لجأت إليه أمريكا فى القرن الماضى .
وكان مبدأ مونرو ما يزال أساس الدبلوماسية الأمريكية فى أوائل القرن الحالى ، وقد لخصه الرئيس ولسون فى قوله : «إن مذهب مونرو تؤيده كل موارد الولايات المتحدة » يلخص فى قولها لباقى دول العالم « ارفعوا أيديكم عن نصف الكرة الأمريكى » .

وبالرغم من أن مبدأ مونرو كان أعظم سياج لحماية الدول الأمريكية اللاتينية من الاستعمار الأوربى فإن هذه الدول كانت تشعر دائماً بأن مبدأ مونرو يهدد سيادتها فى الوقت نفسه ، ويجعلها دائماً تحت رحمة اتجاهات السياسة الأمريكية .
وقد تدخلت أمريكا فى الواقع أكثر من مرة فى شؤون بعض الدول الأمريكية الصغرى مثل هايتى وكوبا وسان دومنجو ونكاراجو وبناما . واتهمت أمريكا بأنها تعمل تحت ستار مبدأ مونرو لفرض سيادتها على دول أمريكا اللاتينية وإخضاعها لنفوذها الاقتصادى . ولكن الولايات المتحدة كانت تؤكد دائماً بأنها ليست لها أية غايات استعمارية فى أمريكا اللاتينية .

ولما نشبت الحرب الكبرى وقع أعظم تطور فى الدبلوماسية الأمريكية ، وكان من جراء اعتداء الغواصات الألمانية المتكرر على السفن الأمريكيةو إغراقها أن دخلت أمريكا الحرب إلى جانب الحلفاء فى أبريل سنة ١٩١٧ . ولكن هذا السبب الظاهر كان يقترن بفكرة أبعد مدى ؛ فقد أشار الرئيس ولسون فى خطابه الذى طلب فيه من البرلمان إعلان الحرب إلى « أن العالم يجب أن يكون ملاذاً أميناً للديمقراطية» . وهكذا وقفت أمريكا إلى جانب جبهة الحلفاء الديمقراطية ضد ألمانيا الإمبراطورية ، وخاضت بذلك أول حرب أوربية فى تاريخها ، وكان ذلك أول خروج صريح على مبدأ مونرو وسياسة العزلة الأمريكية .
وفى أوائل سنة ١٩١٨ ألقى الرئيس ولسون دعوته إلى عقد الصلح « دون نصر » وأذاع مبادئه الشهيرة لتكون دستوراً لعقد الصلح ، ومنها النص على حرية البحار ، و إلغاء الحواجز الجمركية ، وخفض السلاح ، وتسوية المسائل الاستعمارية بمراعاة مصالح الشعوب ذات الشأن ، و إنشاء عصبة أمم

تشرف على تحقيق الاستقلال السياسي والسيادة الإقليمية لجميع الأمم كبيرها وصغيرها . ولما عقدت الهدنة مع ألمانيا وبدأت مباحثات الصلح فى فرساى (أوائل سنة ١٩١٩) كان الرئيس ولسون نفسه على رأس الوفد الأمريكى . ولكن ولسون لم يستطع أن يحقق فى مؤتمر الصلح كل ما كان يرمى إليه ، وكان أكبر عزاء له أن دستور عصبة الأمم أدمج فى معاهدة فرساى واعتبر جزءاً لا يتجزأ منها . على أن المعاهدة لم تحز قبول البرلمان الأمريكى . وبالرغم مما بذله ولسون من وسائل الاقناع والمحاجة ، وبالرغم مما ألقاه فى البلاد من خطب رنانة لتأييد السياسة التى سار عليها ، فقد رفض مجلس الشيوخ الموافقة على معاهدة فرساى . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى أخفق الديمقراطيون فى انتخابات الرياسة وانتخب للرياسة مكان ولسون رئيس جمهورى هو ورن هاردنج بأغلبية ساحقة . وبذلك أبدى البرلمان وأبدت الأمة كلها عداءها الصريح لسياسة ولسون الخارجية ، وهى السياسة المنطوية على التدخل فى الشؤون الأوربية ، وإيثارها لسياسة العزلة القديمة والتمسك بمبدأ مونرو .

واستمرت الدبلوماسية الأمريكية مدى حين على عزلتها المأثورة ، ولم تقبل تورطا فى المشاكل الأوربية حتى بدت نذر الخطر من جديد ، يذكيها ما أبدته إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية من ضروب الاعتداء والتحدى . ولما بدت طلائع الحرب العالمية الثانية واضحة ، رأى الرئيس روزفلت — وكان الحزب الديمقراطى قد عاد يومئذ إلى الرياسة — فى سياسة التحدى النازية والفاشستية ما يهدد سلام العالم وسلام أمريكا بطريق غير مباشر . فبذل وساطته لدى هتلر وموسولينى لكى يعملا على اجتناب أسباب الحرب والمعاونة لصون السلم فلم يثمر سعيه . ووقعت الحرب ، وظهر يومئذ من قوة ألمانيا وشدة بأسها ، وما أتيح لها فى فترة قصيرة من اجتياح فرنسا ودول أوربا الغربية كلها ، أن الخطر على الديمقراطية فى هذه المرة أعظم وأبعد مدى ، كما ظهر من روعة سلاح الطيران الألمانى وامتداد نشاطه حتى الجزيرة الخضراء جرينلند ، وامتداد نشاط الغواصات الألمانية حتى شواطئ الاطلنطيق الغربية ، أن الخطر ليس بعيداً عن أمريكا . وكان الرئيس روزفلت يرى منذ البداية ، ومعه فريق كبير من الشعب الأمريكى ، فى الاعتداء النازى تهديداً صريحاً لسلامة أمريكا ، وأن سقوط فرنسا بهذه السرعة ، وضعف انجلترا ووقوفها بمفردها فى الميدان من أخطر النذر التى تهيب بأمريكا

أن تعمل لتدارك الموقف ؛ ولذلك لم يدخر الرئيس روزفلت جهداً فى معاونة الجبهة الديمقراطية ومعاونة انجلترا بمختلف الوسائل الاقتصادية والعسكرية قبل أن تدخل أمريكا الحرب ، ولم يحجم عن توقيع ميثاق الأطلنطيق مع مستر تشرشل وهو صريح فى التحالف على مقاومة الاستبداد النازى والقضاء عليه . ولم تأت أواخر سنة ١٩٤١ حتى كان الرأى العام الأمريكى يؤيد روزفلت ويناصره فى سياسة التدخل فى الحرب . وما كاد الاعتداء اليابانى يقع على بيرل هاربور فى شهر ديسمبر حتى دخلت أمريكا الحرب العالمية الثانية توًّا إلى جانب الجبهة الديمقراطية وضد ألمانيا وإيطاليا واليابان .

ولم يكن اشتراك أمريكا فى الحرب فى هذه المرة مسألة عاطفية أو مثالية فقط على نحو ما كان يغلب على تدخلها فى الحرب العالمية الأولى . ولكنه يرجع إلى شعور أمريكا شعوراً عميقاً بأنها تدافع عن سلامتها وكيانها وسلامة نظمها ، وإلى الاقتناع بأن سقوط الديمقراطية فى أوربا وسقوط انجلترا حصنها الباقى أمام الغزاة النازيين نذير بسقوط الديمقراطية فى أمريكا . ومن ثم فقد نزلت أمريكا هذه المرة إلى الميدان بكل قوتها ومواردها ، واشتركت قواتها فى سائر الميادين : فى آسيا وإفريقية وأوربا ، وأمدت جميع دول الحلفاء بالعتاد والسلاح ، واضطلعت بأكبر قسط فى غزو التحرير فى أوربا ، ولبث رئيس الولايات المتحدة طول أيام الحرب أحد الأقطاب الثلاثة الذين يوجهون مصايرها فى مؤتمراتهم المختلفة . ولما انتهت الحرب العالمية الثانية بظفر الحلفاء أو الأمم المتحدة ، اشتركت أمريكا فى احتلال ألمانيا وإيطاليا واليابان ، واشتركت فى تنظيم شروط التسليم وفى مؤتمر بوتسدام وفى إعداد معاهدات الصلح مع إيطاليا وغيرها من الدول التى كانت محالفة لألمانيا . وهى تشترك فى مؤتمر وزراء الخارجية الذى تقرر إنشاؤه فى مؤتمر بوتسدام منذ البداية . وقد قامت بدور بارز فى مؤتمر موسكو الذى الذى اجتمع لتقرير مصير ألمانيا . والخلاصة أن الدبلوماسية الأمريكية تأخذ اليوم بأعظم نصيب فى توجيه السياسة الدولية وتسوية المشكلات الأوربية والعالمية .

أضف إلى ذلك كله أن أمريكا قامت بنصيب بارز فى إعداد دستور هيئة الأمم المتحدة ، وهى اليوم من أبرز أعضائها وإحدى الدول الخمسة ذات الكراسى الدائمة فى مجلس الأمن . وفى أمريكا ذاتها يوجد مركز الأمم المتحدة ويجرى نشاطها الدولى الخطير .

وإذاً فنحن نشهد عهداً جديداً للدبلوماسية الأمريكية نبذت فيه عزلتها القديمة للمرة الثانية ، ونبذتها فيه هذه المرة بصورة مطلقة ، ونزلت إلى معترك المشاكل العالمية بكل قوتها ومواردها . بل يبدو فوق ذلك أن أمريكا قد وطنت النفس على أن تنزل فى الوقت نفسه إلى ميدان التنافس الاستعمارى . وقد جاء خطاب الرئيس ترومان الخاص بمساعدة تركيا واليونان دليلا واضحاً على هذا الاتجاه الجديد . ولم يخف الرئيس ترومان أن أمريكا تقصد بهذه المعاونة المالية والعسكرية الواسعة المدى للدولتين اللتين تقعان فى المدخل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط أن تعمل على صد الزحف الروسى نحو هذه المنطقة ووقف التيار الشيوعى الذى يسيطر اليوم على رومانيا ويوجوسلافيا وبلغاريا . وقد كانت انجلترا حتى اليوم تتولى مهمة حراسة هذه المنطقة وتعمل بكل ما وسعت على معاونة تركيا واليونان لمقاومة سياسة الاندفاع الروسى ، فلما لم تستطع المضى بمفردها فى تلك المهمة قامت أمريكا تؤازرها وتأخذ على عاتقها بذل هذه المعاونة وذلك باتفاق بين الدولتين . ومن الواضح أن المصالح الأمريكية البريطانية العظيمة فى الشرق الأوسط والتى تتركز حول استغلال مناطق الزيت الغنية فى إيران والعراق وجزيرة العرب هى الهدف الأول المقصود بالحماية ، وذلك مهما حاول الرئيس ترومان أن يسبغ على أقواله لوناً عاطفيا مثاليا يتعلق بحماية الأمم الديمقراطية المحبة للحرية من عدوان الشيوعية والنظم الدكتاتورية . بل نحن لا ننسى أن الرئيس ترومان يعمل بمساعدته لتركيا على دعم الدكتاتورية العسكرية الكمالية التى تفرض على تركيا منذ خمسة وعشرين عاماً حكم طغيان مطبق ، ويعمل بمساعدته لليونان على دعم نظام فرض على الشعب اليونانى بقوة الحراب البريطانية .

والحقيقة السافرة هى أن الدبلوماسية الأمريكية تتأهب لمقارعة سياسة التوسع الروسية ومقاومتها . وقد غدت منطقة البحر الأبيض الشرقية والشرق الأوسط مسرحاً هاما من مسارح هذا النضال . وأمريكا تحرص مثل بريطانيا على ألا يتسرب الروس إلى الدردنيل أو بحر إيجه والخليج الفارسى . وتحاول أمريكا فى الوقت نفسه أن تحصل على قواعد بحرية فى البحر الأبيض المتوسط ؛ ولعلها تحصل على قاعدة فى قبرص ، وفى رودس . ومن المعروف أنها تبذل مثل هذه المحاولة بالنسبة لطرابلس قاعدة

لوبية الغربية ، وهى محاولة تؤيدها انجلترا دفعاً لمطامع روسيا التى تطالب أيضاً بطرابلس .

والظاهر أن أمريكا لن تقف فى مقاومة التيار الشيوعى عند مساعدة اليونان وتركيا . فقد ورد فى الأنباء الأخيرة ما يدل على أن أمريكا تزمع مساعدة فرنسا اقتصاديا وذلك لتمكينها من مقاومة الضغط الشيوعى الذى يهدد لديها كل استقرار ونهوض ويخشى إذا عجزت عن مقاومة أن تنحدر إلى معترك الفوضى .

وتشعر روسيا السوفيتية بخطورة التدخل الأمريكى فى شؤون البلقان والشرق الأوسط على سياستها ومشاريعها . وقد ظهر صدى خطاب الرئيس ترومان فى تعليقات الصحف السوفيتية وحملاتها على مشاريع الاستعمار الأمريكى بعنف . ولكن أقطاب الكرملين لم يفصحوا حتى اليوم عن الاتجاهات الجديدة التى يمكن أن تجنح إليها روسيا لمقاومة السياسة الأمريكية .

وتثير السياسة الأمريكية الجديدة فى داخل أمريكا ذاتها كثيراً من الريب والاعتراضات . وقد حمل عليها كثير من قادة الرأى ، وفى مقدمتهم مستر ولاس نائب الرئيس السابق حيث وصفها بأنها سياسة استعمارية وسياسة عنف وتحد تؤدى إلى الحرب . ورأى البعض الآخر أنها مناقضة لميثاق الأمم المتحدة ، ولكنا رأينا مجلس الأمن حين أثيرت لديه هذه المسألة يقر أمريكا على برنامجها لمساعدة اليونان وتركيا ويأبى كل تدخل فى شأنه .

تلك هى أطوار الدبلوماسية الأمريكية فى نحو قرن من الزمان . فقد بدأت فى أوائل القرن الماضى حريصة على عزلتها التى قررها مبدأ مونرو ، ثم خرجت عن عزلتها التاريخية لأول مرة فى الحرب الكبرى ،ولكنها سرعان ما انكمشت وعادت إلى التمسك بعزلتها . ومنذ الحرب العالمية الثانية تعود أمريكا فتهجر عزلتها وتنزل بكل قواها ومواردها إلى ميدان الكفاح العالمى سواء فى الحرب أوالسلم . وهى اليوم تنزل إلى ميدان التنافس الاستعمارى الاقتصادى والسياسى لأول مرة فى تاريخها . وكل ما هنالك يدل على أن أمريكا سوف تمضى فى سياستها الجديدة قدماً ، وأنها لن تستطيع نكوصا إلى الوراء ولن تعود إلى عزلتها المأثورة ؛ فسبيل هذه العودة قد انتهى ، فيما يبدو ، بما ارتبطت به أمريكا من العهود والمصالح الدولية والاستعمارية الخطيرة ، و بما حققته لنفسها بانتصاراتها

فى الحرب الأخيرة من نفوذ عالمى تدعمه القوة الحربية والاقتصادية .

على أنه يبقى دائماً من مذهب مونرو شطر تتمسك به أمريكا وتحرص أشد الحرص على تطبيقه ، وهو ما ينص عليه من أن أمريكا لن تسمح لأية دولة من الدول الأوربية بأن تقوم بأى ضغط أو تدخل فى شؤون نصف الكرة الغربى . وقد كان مذهب مونرو يضع هذا الانذار للدول الأوربية مقابل العهد الذى أخذته أمريكا على نفسها من أنها لن تحاول تدخلا فى الشؤون الأوربية . ولكن ظروف العالم قد تغيرت اليوم تغيراً عظيما ، ولا تجد الدبلوماسية الأمريكية اليوم غضاضة فى أن تتحرر من هذا العهد القديم .

محمد عبد الله عنان

أمير تركى فى قصر البابا

ظل أهل روما منذ استولى محمد الفاتح على القسطنطينية خائفين ، يتوقعون بين لحظة وأخرى أن يتصل بهم الشر . لقد وضع المسلمون أقدامهم فى أوربا ووطدوها بالاستيلاء على عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فأحدث ذلك رجة فى تلك المدينة العظيمة التى كانت عاصمة الامبراطورية الرومانية فيما مضى ، والتى كان يسيطر عليها عندئذ البابا وريث تلك الإمبراطورية فى سلطته الزمنية التى تشمل إقليما من إيطاليا ولكنها تمتد بسلطته الدينية لتظل العالم المسيحى بأسره .

دعا البابا أمراء المسيحيين للاتحاد والتآلف كى يقاوموا الخطر المحيق بهم ، ولكن المطامع كانت تحول دون ذلك . وظل الخطر يزداد باستيلاء السلطان التركى المسلم على أرض بعد أرض حتى وضع قدمه فى إيطاليا نفسها حين استولى على أوترانتو ، ولكنه لم يتقدم بعد ذلك .

وتتابعت السنون ولعبت المطامع دورها ، فوجد الفاتح حتى بين الأمراء المسيحيين أنصاراً وحلفاء ، وصارت السلطنة العثمانية التى تهدد المسيحية الأوربية لعبة سياسية تتخذها الدول الأوربية أداة للتغلب على خصومها ، وكانت روما تموج بالاشاعات والمتنبئين الذين يؤثرون فى عقول السذج . وكانت من أكثر النبوءات انتشاراً فى ذلك العهد نبوءة المتشائمين الذين يقولون إن سلطان الترك سيدخل روما .

وفى مساء يوم السبت ١٣ مارس سنة ١٤٨٩ تحققت هذه النبوءة . إذ عرف شعب روما بأسره أن سلطان الأتراك قد جاء إلى روما ، ولكنه جاء فى مناسبة سعيدة ، فهو يقابل مقابلة الضيف ، ولكنه أقرب ما يكون إلى الأسير . وهرع الناس إلى باب بورتيزى الذى سيقبل منه موكبه حين يدخل المدينة المقدسة قادماً إليها بالبحر من ميناء شيفيتافكيا . وذهبت الوفود من

رجال بلاط الفاتيكان على رأسهم جمع من الكرادلة لاستقبال السلطان التركى .
حتى إذا دخل المدينة بموكبه يحف به رجاله تلقوه بالترحاب وأبلغوه تحية الحبر الكبير البابا إنوسنزو الثامن ، فتقبل هذه التحية فى هدوء وركب جواد البابا الأشهب وسار صامتا مربد الوجه وحوله المستقبلون . واحتشد الشعب يهتف لهذا السلطان التركى ضيف البابا . وكان هو يقابل هذا الهتاف فى كثير من الوقار ، لا تظهر على وجهه علائم الارتياح والغبطة ولا يحفل بهذا الهتاف إلا قليلا .
وسار موكبه مخترقاً إيزولا دى سان بارتولوميو ثم ساحة جوديا ثم كامبودى فيورى ثم إلى قصر البابا حيث نزل فى الجناح المعد للضيوف من الملوك . وفى اليوم التالى استقبله البابا استقبالا خاصا ، وقد غير فى المراسيم من أجله ، فلم يفرض عليه أن يقبل قدم البابا كما كان يفعل الأمراء المسيحيون ، بل تقدم السلطان وقبل كتف البابا اليسرى فرحب به البابا كثيراً .

والحق أن هذا الأمير المسلم لم يكن سلطاناً ، بل كان ثانى أنجال محمد الفاتح ، ثم ادعى بعد وفاة أبيه أنه أحق بالسلطنة من أخيه الأكبر بايزيد ؛ لأنه ، على قول علماء الفقه والملتفين حوله من الروم ، ولد فى عهد سلطنة أبيه فهو ابن سلطان ، فى حين أن أخاه الأكبر بايزيد ولد قبل أن يتولى أبوه السلطنة . وكان التنافس بين الأخوين كبيراً حتى فى حياة والدهما . ولعل هذا الأمير الذى يدعى الأمير جم كان يشعر بشىء من الزهو ؛ لأن أمه أميرة سربية تزوجها محمد الفاتح ، على حين كانت أم بايزيد من الجوارى .
وكان الأمير حتى فى صغر سنه يجد أنصاراً من رجال أبيه يعجبون بشجاعته ومايظهر عليه من مخايل النجابة والحكمة وحسن تصريف الأمور .

حتى إذا مات محمد الفاتح فجأة وهو لا يزال فى عنفوان رجولته وتولى بايزيد الحكم إذ هرع إلى القسطنطينية ، نازعه الأمير جم هذا الأمر ، وتألف جيشان ، وقام النزاع عنيفاً بين الأخوين ، ولكن حزم بايزيد قضى على الفتنة . واضطر الأمير جم أو جم سلطان ، كما كانوا يلقبونه ، أن يتقهقر إلى أطراف آسيا الصغرى ؛ وأرسل إلى الأستاذ الأكبر للفرسان الصليبيين فى جزيرة رودس مستنجداً به وبفرسانه . ففكر الفرسان وتناقشوا طويلا فى هذا الأمر وقرروا أخيراً أن يعاونوه فى الالتجاء إليهم ؛ إذ رأوا أن ثورته على أخيه قد يكون فيها بعض الفائدة لهم وللأمم المسيحية ، فكاتبوه يستدعونه إلى جزيرتهم .

وأرسلوا سفينة من سفنهم لتأتى به معززاً مكرما مع خاصته من الرجال .

ولم يكن أكبر الرسل الذين أرسلهم الأمير جم مطمئنا كل الاطمئنان إلى هذه الوعود ، ولكن الأمير لم يلتفت إلى رأيه وركب السفينة قاصداً إلى جزيرة رودس .

استقبل الأمير عند نزوله إلى الجزيرة بحفاوة كبيرة ؛ فقد تقدم الفرسان لاستقباله بمجرد أن وضع قدميه على البر ، فى حين أخذت القلاع تطلق المدافع تحية له والموسيقى تعزف مرحبة به . وتقدم الأمير فى وقار يحيط به أعوانه المخلصون ورد التحية لمندوبى الأستاذ الأعظم ثم امتطى فرساً وسار بموكبه وسط الجماهير التى كانت تهتف له بين طلقات المدافع . حتى إذا ماوصل إلى الساحة الكبرى للمدينة وجد الأستاذ الأعظم فى انتظاره . فنزل الأمير جم وتقدم إليه وحياه على الطريقة التركية بأن يرفع سبابته إلى فمه ثلاث مرات ، ورد الأستاذ الأعظم إليه التحية على طريقة الأمراء المسيحيين ثم تصافحا ، وسارا معا نحو القصر الذى خصص للأمير وهما يتحادثان ، بوساطة المترجم . فاذا وصلا إلى القصر استأذن الأستاذ الأعظم تاركا الأمير ليستريح من وعثاء السفر ، فدخل الأمير القصر .

فى ذلك اليوم افتتحت فى حياة الأمير صفحة جديدة لم يكن هذا الأمير ليقدرها . فقد جاء يطلب النجدة ، وظن أن الأمراء المسيحيين سيعاونونه على اعتلاء العرش ، وقد بذل له الأستاذ الأعظم الوعود نيابة عن الجهات التى كان متصلا بها من ملوك ورؤساء دينيين . وقد رأى ورأى معه مستشاروه من الفرسان أن من الخير أن ينقل هذا الضيف إلى فرنسا ، حيث يكون من اليسير الاحتفاظ به ، فأخبروه بذلك ، وأطمعوه فى مساعدة ملك فرنسا لويس الحادى عشر له ، وأنه سيكون بمأمن من أخيه ؛ فهم يخشون غضب السلطان بايزيد ومهاجمته جزيرتهم لإيوائهم أخاه الثائر . فلما سمع الأمير ذلك رحب بالفكرة ، وطلب الاسراع فى تنفيذها ، وعلى ذلك جهزت له السفينة التى تسير به إلى بلاد المغرب ، وأقيمت له مأدبة الوداع .

ويصف الواصفون أن الأمير جم جلس إلى المائدة التى جلس إليها الأستاذ الأعظم ، وكان يجد مشقة فى جلسته على الكراسى إذ لم يعتد هذا الجلوس أمام

مائدة حين يتناول طعامه ؛ فعادته فى بلاده أن يجلس على الأرض بعد أن تفرش له الوسائد ، ولذلك كان منحنياً فى جلسته ورأسه مطأطئ على صحاف الطعام . وكان بين وقت وآخر يسترق النظر إلى الأستاذ الأعظم للفرسان ليرى طريقته فى الأكل . وفى أثناء الطعام كانت الموسيقى تعزف ألحاناً أوربية ، وغنى أحد الانجليز لحناً أوربيا ، ولكن الأمير كان يجد هذه الألحان وتآلفها غريباً عليه ، فأظهر من العجب أكثر مما أظهر من الاعجاب . ولحظ الأستاذ الأعظم ذلك فأمر بأن يؤتى بعبد تركى ، فجئ به وغنى أناشيد بلاده مما أدخل السرور فى نفس الأمير وظهر على محياه شئ من الابتسام .

فلما انتهى الطعام تقدم الأمير وشكر الأستاذ الأعظم وشكر سائر الفرسان الحاضرين لما أظهروه من حفاوة ، وأعلن أنه لو استرد ملكه فسيعرف كيف يعبر عن شعوره بما هو فوق الشكر . وقدم إلى الأستاذ وثيقة عليها توقيعه وخاتمه يعلن فيها أنه يتعهد بالمحافظة على سلم دائم مع الفرسان بمجرد استرداد عرش أبيه ، وأن يكون بينهم وبين تركيا حرية التجارة ، دون أن تفرض أية ضريبة ، وأن يسلم إلى الأستاذ فى كل سنة ثلاثمائة من العبيد المسيحيين يتصرف فيهم كيف يشاء . وأخيراً وعد بأن يدفع لهم مائة وخمسين ألف دينار من الذهب للنفقات التى سببها لهم .

كان فرح الفرسان عظيما لهذه المعاهدة ، على أنها لم تكن الوثيقة الوحيدة التى استخلصوها من الأمير جم ؛ فقد قطع على نفسه عهداً بأن يخضع لرأى الأستاذ الأعظم ومشورته فى تصرفاته المقبلة كما وكل إليه حرية التفاوض مع أخيه لصالحه .

وفى اليوم التالى لهذه الليلة الحافلة التى كرم فيها الأمير جم ، نزل هذا الأمير إلى البحر مع أتباعه فى سفينة الفرسان قاصداً أرض أوربا .

لم يضع الأستاذ الأعظم الوقت سدى . ففى اليوم التالى كانت سفينة رسله تمخر عباب الماء قاصدة السلطان بايزيد ، ليخبروه بما كان من أمر أخيه ، ويعتذروا إليه بأنه إنما قوبل فى حدود ما يفرضه الواجب الانسانى ، وأن جزيرة رودس ملجأ مفتوح لكل من يلوذ به ، وأنه قوبل المقابلة اللائقة بأمير تركى من البيت الذى نشأ فيه . وجرت المفاوضات بين هؤلاء الرسل

ورجال السلطان ، وانتهت بعقد معاهدة بينهما كانت فى مصلحة الحاكمين فى الجزيرة ؛ فقد نصت على وقف الأعمال العدائية بين الفريقين المتعاقدين واستئناف التجارة بينهما ، وأن تكون الرسوم التجارية كالمألوف ، وأن يرفع أى خلاف إلى المحاكم المختصة ، وأن تحى سفن كل فريق سفن الفريق الآخر ، وأن يعاد الذين يهربون من الرقيق إلى أصحابهم ماداموا لم يغيروا من دينهم وألا تدفع عنهم الفدية .

وعاد الرسل ومعهم رسول تركى قابل الأستاذ الأعظم للفرسان ، واتفق معه على أن السلطان يتعهد بأن يدفع فى أغسطس من كل سنة مبلغ خمسة وأربعين ألف دينار دوقى من عملة فينيسيا ، على أن يحتفظ الأستاذ الأعظم بحراسة الأمير جم ويحول دون أن يكون هذا الأمير خطراً على السلام القائم بينهما .

وهكذا أقدم الأستاذ الأعظم على أول خطوة فى سبيل الغدر بذلك الأمير الذى استجار به . ولكن هل هذا العمل كان بعيداً عن روح العصر ؟

سارت السفينة تحمل الأمير جم وفى قلبه الآمال الكبار إلى ساحل أوربا وهى تقترب من مسينا حيث رأى الأمير تلك الجزيرة المحترقة ، وهى جبل يكتنفه الدخان من الصباح إلى المساء ، فاذا جن الليل صارت جبلا من النار .

كانت السفينة فى سيرها تتجنب سفن الدول الأوربية الأخرى لاسيما دولة البندقية ؛ إذ أن هذه الدول التى سمعت بحكاية هذا الأمير ، كانت تحاول الاستيلاء على شخصه طمعاً فيما يجره ذلك من فوائد مادية . وأخيراً وصلت السفينة إلى أرض سافوا حيث أنزل الأمير إلى مدينة نيس ، بحدائقها الغناء وغانياتها الحسان ، كما يقول المؤرخ التركى . وهنالك عاش جم فى انتظار الإذن بالالتجاء إلى ملك فرنسا كى يعاونه على استرداد حقوقه وملكه .

ولم يكن الأمير جم ليعلم ماقام حوله بين ملوك أوربا وأمرائها من تنافس مقنع ثم سافر للاستيلاء على شخصه ، يزعم كل منهم فى بادئ الأمر أنه يريد خير المسيحية ، ثم لا يلبث القناع أن يزول وتتبين روح الجشع فى النفوس .

فهذا ملك نابولى يبدى موافقته على مسلك الأستاذ الأعظم ، وهذا البابا يثنى على سلوكه ، وهذا ماتياس كورفن ملك المجر المهدد من الأتراك يؤيد ما فعله الأستاذ الأعظم .

وظل الأمير مقيما فى نيس أربعة أشهر ، ثم انتشر فيها وباء مخيف . فرئى أن ينقل منها ، وكان حراسه يفهمونه بأنهم ينفذون رغبته . ولكن من المؤكد أنه بدأ فى ذلك الوقت يشعر بما يدبره له الحراس وأنه ليس إلا سجينهم . ولقد سار موكبه وئيداً إلى شامبرى حيث التقى بدوق سافوا الذى وعده بالمعونة ، ولعله كان جادا فى وعده ، ولذلك أسرع به حراسه إلى الأراضى الفرنسية .

وقبل أن يدخل تلك الأراضى وصلته رسالة من أخيه السلطان بايزيد على يد رسول كان بايزيد قد أرسله إلى ملك فرنسا ، وفى هذه الرسالة يعاتب أخاه على مافعله من الخروج عليه ، ويتمنى له السعادة فى منفاه . وكان الرسول يرغب فى مقابلة الأمير جم ، غير أن الحراس عارضوا فى ذلك معارضة شديدة . وظهر للأمير جم تماماً أنه سجين ، وأنه لا سبيل لتحقيق مطامعه إلا بالافلات من حراسه ، فأخذ منذ ذلك الوقت يبدى الحذر فى تدبير أموره واستسلامه لهؤلاء الحراس .

أما حارسوه فأحسوا من جهتهم ريبة الأمير التركى بهم . وحدث أن توفى الملك لويس الحادى عشر الذى كان متولياً عرش فرنسا فى ذلك الوقت ، فخشوا أن ينتهز الأمير فرصة ما قد يحدث من اضطراب فى الأمور فى فترة تغير الجالس على العرش ، فقرروا أن يفصلوا بين الأمير وبطانته من الأتراك . وعلى ذلك أصبح الأمير ذات يوم فاذا به يجد مقره محاطاً بنحو ثمانمائة من الفرسان المسلحين الذين ينتزعون بالقوة تسعة وعشرين من رجاله الأتراك . واحتج الأمير احتجاجاً شديداً ، ولكن حراسه أجابوه بأنهم إنما يعملون ما فى مصلحته وما تقتضيه الأحوال ، وأن هؤلاء الرجال من بطانته سيعاملون خير معاملة ، وأقسموا له على ذلك بالانجيل .

ونقل الأمير مع من بقى له من رجاله إلى قصر حصين فى بلدة روشنفور ، وهنالك كان يزوره بعض النبلاء من حكام البلدان المجاورة . ومن الذين كانوا يزورونه وألفهم الكونت دى ساسناج ، وكانت له ابنة جميلة

تعرفت إلى الأمير التركى فمال إليها وأحبها ، وقد وضع المؤلفون حول ذلك الحب أكثر من قصة وأكثر من قصيدة .

وكانت الأنظار كلها فى ذلك الوقت متجهة إلى ذلك الأمير التركى الأسير على أن الأمير كان يفكر فى تدبير ما يرى فيه مصلحته ؛ فقد اتخذ عن طريق أتباعه جواسيس من الايطاليين ينقلون إليه الأخبار التى تهمه ويسعون للاتصال بأعوانه ، وكانت أمه قد ذهبت إلى قايتباى سلطان مصر تستنجد به كى يساعد ابنها على الخلاص من أيدى الفرنج ، فأخذ السلطان وهو مناوئ للعثمانيين يسعى لاستخلاص الأمير وإجلاسه على عرش آل عثمان كى يكون صديقاً بدلا من عدو .

وكان أخوه بايزيد فى الوقت نفسه يتوجس خوفاً من أن يفلت أخوه من يد ساجنيه ، فأخذ يتصل بأمراء الفرنج ويتودد إليهم محاولا أن يقنعهم بالاحتفاظ بأخيه وباذلاً لهم المال إغراء لهم بأن يظلوا على علاقاتهم الحسنة معه . وقد سبق أن قلنا إنه أرسل إلى لويس الحادى عشر رسولا من كبار رجاله اسمه حسين بك لكى يعقد معه اتفاقاً ، وكان الرسول يحمل الهدايا والطرف النفيسة . ولكن الملك لويس كان فى أيامه الأخيرة ، مشغولا بمن كان يحيط بهم نفسه من مشعوذين وسحرة لكى يحاول أن يطيل من أيامه المعدودات ، وقد ذهب فى سبيل ذلك إلى أن يشرب الذهب المذاب ، وقيل إنه شرب من دماء الأطفال ، فلم يكن مستعدا فى ذاك الوقت إلى أن يعقد أواصر الاتصال مع أمير غير مؤمن وهو على حافة القبر . وعاد حسين بك دون أن يصل إلى نتيجة وهو الذى حمل رسالة السلطان بايزيد إلى أخيه جم ، وحاول أن يقابل الأمير ولكن الحراس حالوا دون أن يوفق فى هذه المهمة أيضاً .

ورأى السجانون أن الوقت حان للانتقال بسجينهم إلى جهة أخرى ، إذ خافوا من هذه الاتصالات التى صار الأمير مركزها بعد أن مكث طويلا فى تلك الجهة ، فقرروا أن ينقلوه إلى أحد حصونهم فى مقاطعة أوفرن وذهبوا به إلى حصن حصين تقوم إلى جانبه أربعة أبراج ضخمة ، وهذا الحصن كان ملكا لأخى الأستاذ الأعظم ، ثم عادوا فنقلوه إلى جهة أخرى إلى أن يتيسر لهم أن يقابلوا بأسيرهم ملك فرنسا الجديد .

وكان الأستاذ الأعظم غير مكتف باحتجاز جم لصالح خزينته أو لصالح

المسيحية كما يزعم ، بل بدأ يتخذه سلاحاً سياسيا ينال به المراتب ، وهذا ما فعله مع البابا أنوسنزو الثامن حين التمس منه أن يرقى أخاه إلى مرتبة كردنال ، فقد كان البابا يعلم أنه يلوح بتسليمه الأمير التركى فى نظير ذلك ، فنال أخوه هذه المرتبة ؛ ولكن الأستاذ الأعظم ظل محتفظاً بأسيره فى أرض فرنسا .

ودخل الأستاذ الأعظم فى الوقت نفسه فى مفاوضة مع فراتى ملك نابولى الذى رغب إليه فى أن يسلمه الأمير التركى ، ولكنه اعتذر بأنه خاضع للبابا . وكذلك كان يتقبل المنح والهدايا من قايتباى سلطان مصر ثم يلتمس الأعذار عن تحقيق رغبته . وأخيراً تمكن البابا بعد مفاوضات طويلة مع الأستاذ الأعظم من أن يصل إلى ما يشبه الاتفاق على أنه لصالح المسيحية جمعاء يجب أن ينقل الأمير إلى إيطاليا ويكون فى كنف قداسة البابا والكنيسة حيث توضع تحت تصرفه ضيعة يقيم فيها ، فى حراسة كردينال فرنسى يقسم على أن يحافظ عليه كل المحافظة ، ولايسلم فى الأمير إلا بأمر البابا والمجمع المقدس والأستاذ الأعظم ومجمع فرسانه . وإزاء ذلك رفع البابا مرتبة الأستاذ الأعظم إلى مرتبة كردينال للكنيسة المقدسة ، وتم هذا الاتفاق فى سنة ١٤٨٦ .

ومن الدلائل على أن الأستاذ الأعظم كان يستفيد فائدة كبيرة من اللعب بالورقة التى يحتجزها أنه تلقى من السلطان قايتباى مبلغاً كبيراً من المال لكى يسمح باتصال والدة الأمير به ، فقبل المال وأرسل رسائل مزورة من الأمير إلى والدته يزعم فيها أنه مطلق السراح وأنه باق برغبته . ولكن ظهرت الحقيقة فيما بعد وعرف أنه تقبل المال دون أن يفى بوعده ، وغضب بعض الأمراء المسيحيين لهذه الحال .

وظل الأمير مقيما فى فرنسا وملكها شارل الثامن يمانع فى تسليمه للبابا إلى سنة ١٤٨٩ حيث رأيناه يدخل إلى روما فى موكب حافل كأنه ضيف كريم لا أسير محمول ليكون ألعوبة فى يد ساسة ذلك العصر .

عاش الأمير جم فى كنف البابا أنوسنزو الثامن . ولم يكن البابا فى ذلك الوقت خالياً من المتاعب ، بل الواقع أنه كان يجد عدوا شديد المراس فى شخص جاره فراتى ملك نابولى الذى كان يجمع جنوده ليستولى على الأراضى التى يحكمها البابا ، وكان يبعث للبابا بالرسائل مهدداً وساخراً ، حتى خيل إلى

الناس فى يناير سنة ١٤٩٠ أن الحرب واقعة لا محالة بين البابا وجاره . وكان البابا يستنجد أمراء إيطاليا لمعاضدته ، وكانت تلك السنة ملبدة بالغيوم بالنسبة للبابا وثقلت وطأة المتاعب عليه حتى أصيب فى أغسطس بالحمى ، وبلغ به المرض حد اليأس . ثم استرد صحته قليلا ، ولكن المرض عاد إليه أشد مما كان ، وأشيع فى ٢٦ سبتمبر أن البابا توفى ، وأرسل بعض السفراء هذا النبأ لدولهم . تتسلح أهل روما انتظاراً لما سيحدث من اضطرابات فى المدينة بين وفاة البابا وانتخاب آخر . وحاول ابن البابا غير الشرعى — فرانشسكو تشيبو — أن يضع يده على خزائن المال البابوى ، وأن يخطف الأمير جم أسير والده الذى كان يقيم عندئذ فى القصر البابوى ، ليبيعه لملك نابولى . ولكن الكرادلة كانوا يقظين فلم تتم هذه المحاولة . وظهر أن البابا لم يمت وإنما غشى عليه ، ثم بدأ يتمالك صحته على ما به من ضعف كبير . وتمكن من السفر إلى بلدة أوستيا الساحلية للاستشفاء وعاد منها ولم يزل المرض يلازمه . وكان بعض الأمراء قد سعوا إلى الصلح بينه وبين ملك نابولى فتم ذلك ، ولكن حالة البابا كانت تدل على أنه لا يعيش طويلا . وفى ٢٥ يوليه من سنة ١٤٩٢ توفى البابا ، وكان على أمراء الكنيسة أن ينتخبوا من يشغل عرشه .

وهكذا ارتقى هذا العرش إسكندر السادس بورجيا ذلك البابا الأسبانى الذى كان يتصرف فى مركزه الدينى تصرف الأمير ، لا يهتم فى سياسته إلا بالأمور الدنيوية فى توطيد مركزه الكبير دون الرسالة الروحانية والمقام الدينى ، بل كان يتخذ من هذه الرسالة وهذا المقام وسيلة لتحقيق أطماعه كملك يريد الدنيا ويعمل لها . فكانت مساعيه ترمى إلى زيادة نفوذه، وتمكين أولاده غير الشرعيين الذين كان يجاهر بهم ، من اقتطاع عروش لهم من أرض الأمراء الايطاليين ، فكان لا يتردد فى استعمال كافة الأسلحة التى عرفها ذلك العصر من خناجر وسموم فى محاربة خصومه والقضاء عليهم أو فى إزالة أصدقائه إذا كان من وراء ذلك تحقيق مطمع له .

ولقد وجد فى تركة سلفه جوهرة ثمينة تدر عليه الخيرات والنعم ، هذه الجوهرة هى الأمير جم الذى كان أخوه يدفع مبلغاً كبيراً فى كل سنة لكى يظل أسيراً لا يفلت من يد ساجنه . وكان البابا إسكندر السادس خير سجان . فليس له من ضميره ما يجعله يتردد فى هذه المهمة الثقيلة . ولذلك تلقى البابا تهانى

بايزيد بالترحاب وقوبل رسله مقابلة عظيمة ، وأفهموا فى التو أن البابا حريص كل الحرص على أسيره ما دام يتلقى المال السنوى الذى يدفع فى سبيل الاحتفاظ به . بل لقد تسلم البابا أول دفعة منه ، وقيل أكثر من ذلك إنه عرض عليه أن يسلم الأمير جثة فى سبيل مال مضاعف .

وعاد الأمير جم كما كان دائماً مطمح أنظار البابا وخصومه ومدار النزاع فى روما ؛ فقد حاول الأمراء الذين يناوئون البابا ، كأمراء أسرة كولونا ، أكثر من مرة أن يستولوا على شخص الأمير ودبروا المؤامرات لذلك ، ولكنهم لم يفلحوا . ذلك لأن البابا كان حريصاً كل الحرص على أن يحتفظ بكنزه الثمين . وكان الأمير فى الوقت نفسه قد بلغ منه اليأس مبلغاً وصار لا يعتمد على المجادلات والمؤامرات للتخلص من موقفه ، بل انصرف إلى الملذات والشراب والنساء واستولى عليه الخمول . وكان بلاط إسكندر السادس مما يشجع على الانصراف إلى مثل هذه الملاذ .

وكان البابا إذا ما وقع فى مأزق من خصومه نقل الأمير معه إلى مأمن كأثمن مايمتلكه . وذلك ما فعله عند ما حاربه شارل الثامن . حتى إذا وضعت شروط الصلح بين ملك فرنسا المنتصر وبين البابا فى ١٥ يناير سنة ١٤٩٥ ، نص فيها على أن يسلم الأمير التركى إلى فرنسا على أن يحتفظ البابا بالمال الذى يدفع له سنويا فى سبيله .

ولكن قدر ألا يسلم هذا الأمير ليد سجان آخر ؛ فقد توفى فجأة فى ٢٥ فبراير سنة ١٤٩٥ وفى مثل هذه الأحوال وفى مثل تلك الأيام كانت هذه الوفاة الفجائية تعزى دائماً إلى السم . فهل نفذ البابا إسكندر السادس ما وعد به بايزيد ، أو ما قال خصومه إنه وعد به بايزيد ؟ ذلك ما يعتقده بعض المؤرخين ، وإن كان البعض الآخر يرى أن هذه الوفاة نشأت عن انصراف إلى اللهو والغماس فى المجون .

حسن محمود

يوم البطل الوطنى جعفر أبو التمن

طالت ، ولو قصرت يد الأقدار   لرمت سواك . عظمت من مختار
من صفوة لو قيل أىّ فذّهم   لم تعدُ شخصك أعين النظار
لكن أرادت أن تحوز لنفسها   عين القلادة ، فازدرت بنثار
وأرى المنايا – بالذى تختاره   للموت – عاطلة ، وذات سوار
فطوتك فى درج الخلود فعطرت   بك سالف الأحقاب والآثار
واستنزلتك لغربة ولأنت من   عليائك ، فى لجب من الأنصار
وتجاهلت أن البلاد بحاجة   لك ، حاجة الأعمى إلى الإبصار
مُدت من « الأخرى » إليك معاصم   من رفقة لك قادة أبرار
خلصاء سعيك فى الجهاد ، وإخوة   لك فى الوفاء المحض والايثار
ورفاق هذى الدار فيما أسلفوا   للكاتبين ، رفاق تلك الدار

بكر النعى فما سمعت بمثلها   عبئاً على الأسماع ، والأبصار
رمت العمايات العيون ، وصكت الآذان صافرة من الإنذار
وترنح الأحرار ينذر بعضهم   بعضاً ، بفقدهم أبا الأحرار
لله درك من نقىّ ، لم ينل   أذياله وضر من الأوضار
فى حيث تزدحم الشرور وترتمى   شبهاتها ، حتى على الأخيار
خاض السياسة ، وانجلى عن لجها   ألق الجبين ، مكللا بالغار
فى حين رام سواه خوض عبابها   فطغى عليه ، فضاع فى التيار
وصليب عود ، حين بعض مرونة   فى ضعفها خطر من الأخطار
وطرىّ نفس . حين بعض صلابة   فى عقمها حجر من الأحجار
وخفىّ كيد حيث يسمو كائد   ومن المكايد جالب للعار
وصريح رأى لم يحد عن خطة   ليلوذ عن تأويلها بجدار

حرب على مستعمر وربيبه — ومسالم مستعمراً ، ومجار
أعزز عليّ – أباعزيز – أن أرى — حضّار حفلك زائغي الأبصار
خلت المحافل من علاك ، وأوحشت — من بعد وجهك ندوة السمار
وتعرت الأنظار عن مستشرف — بادي السنا عال على الأنظار
ولقد يعز عليك ، أنك لا ترى — في الأربعاء مواكب الزوار

أأبا عزيز ، كنت تذكي جذوتي — ويلذ سمعك منطقي وحواري
غوث الصريخ ، أتتك تعول حرة — حراء ، صارخة ، من الأشعار
هيجت مني أي داء كامن ، — وقدحت مني أي زند وار
قسماً بيومك ، والفرات الجاري — والثوْرة الحمراء ، والثوار
والأرض بالدم ترتوي من دمنة ، — وتمجه عن روضة معطار
والخيل ترحف لم تدع لمغيرها — جثثٌ تغطي الأرض أي سغار
قسما بتلك العاطفات ولم تكن — لي من يمين قبلها بالنار
إن الذين عهدتهم حطب الوغى — لولاهمو لم تشتعل بأوار
واللاقحين نتاجها بأعز ما — ملكت يمين من حمى ، وذمار
والداهنات دماؤهم لم الثرى — والمؤنسات شواطئ الأنهار
والناحرين من الضحايا خير ما — حملت بطون حرائر أطهار
ما إن تزال حقوقهم كذويهم — في القفر سارحة مع الأبقار
وأعز ما تبغي الحلائل منهم — أن تستر العورات بالأطمار

خمس وعشرون انقضت وكأنها — بشخوصها ، خبر من الأخبار
ضقنا بها ضيق السجين بقيده — من فرط ما حملت من الأوزار
وتجهمت فيها السماء فلم تَجُدْ — للخابطين بكوكب سيار
شاخ الشباب الطيبون وجددت — فيها شبيبة شيخة أشرار
وبدا على وجه الحفيد وجده — للناظرين ، تقارب الأعمار
من كان يحسب أن يمد بعمره — حكم أُقيم على أساس هار
ومن الفظاعة أن تريد رعية — في ظل دستور لها وشعار
ما يطلب المأسور من يد آسر — إسداء عارفة ، وفك إسار

ورواية حبك الزمان فصولها فبدت لنا ممسوخة الأدوار
من شر ما اختلق الرواة ولفقت حيل ، وضمت دفة الأسفار
وممثلين تصنعاً ووراءهم خلف الستار ، ملقن متوار !

ومفرقين عناصراً ، ومذاهباً متكفلين سياسة استعمار
نزلوا على حكم (الغريب!) وعرسوا فى ظل مأثمة له وفجار
وتحلبوا أوطارهم ! فاذا بها وشل لما استحلى من الأوطار
واستفرش الشعب الثرى ودروبهم مفروشة بنثارة الأزهار
وتحلأ الجمع الظماء ووكلت أبناؤهم بالورد والإصدار
ذعر الجنوب فقيل كيد خوارج وشكا الشمال فقيل صنع جوار
وتنابز الوسط المدل ، فلم يدع بعض لبعض ، ظنة لفخار
ودعا فريق أن تسود عدالة فرموا بكل شنيعة ، وشنار
ومشى (المغيث) على الجياع يقوتهم وعلى العراة ، بجحفل جرار !
وتساءل المتعجبون لحالة نكراء ، من هم أهل هذى الدار؟
هى للصحابة ، من بنى الأنصار ! من كل «بدرى» ؟ وكل «حوارى» !
للحاكمين بأمرهم عن غيرهم ولصفوة الأسباط والأصهار
من كل غاز شامخ فى صدره زاهى الوسام ، مدوخ الأقطار
هى للذين لو امتحنت بلاءهم لعجبت من سخرية الأقدار
هى للذى من كل ما يصم الفتى كاسٍ ، ومن جهد يشرف ، عار

ومسلط لمسلطين ، مشت به الأهواء ، مشية مثقل بخمار
نسى المعير ، ولو تذكر لا نثنى خزيان من ثوب عليه معار
كم رام غيرك مثلها فأحله نزق الغرور بشر دار بوار
بل لو تذكر ، لم يجد لضميره ومصيره ، عوناً من التذكار
لم يبق إلا أن تتم خطوة ويظل يلعب لاعب بالنار
فلربما نفث الشكاة ، وقربت يوم الخلاص ، سياسة الإصرار

أأبا عزيز والحديث ـ كما رووا ـ … شجن وحر القول عذب جار
ومن العواطف ما يثور ويغتلى … مثل الجحيم ، ويرتمى بشرار
عفواً ، وإن شط المدى عن غايتى … ونبت جياد الشعر عن مضمارى
فلقد تحشّدت البواعث واشتكت … صمت القريض ، لفحله الهدار
ولقد عهدتك بالبلاد وأهلها … جم الشجون ، موزع الأفكار
ووجدت قدح الذكريات شجية … برداً لأفئدة عليك حرار
وعرفت أشجاناً يثيرك بعثها … فأثرتهن ، فطرن كل مطار

إيه ، شباب الرافدين ومن بهم … يرجو العراق تبلج الأسحار
الحاملين من الفوادح ثقلها … ليسوا بأنكاس ولا أغمار
والذائدين عن الحياض إذا انتحت … كرب ، ولاذ مكابر بفرار
والباذلين عن الكرامة ـ أرخصت ـ … أغلى المهور ، وأفدح الأسعار
الفقر ! إذ طُرُق الغنى مفتوحة … والبؤس إذ غدق النعيم جوارى
ومؤججين نفوسهم وقلوبهم … شعلا يسير على هداها السارى
والحابسين زئيرهم بصدورهم … فاذا انفجرن به ، فأى ضوارى
والقانعين من الحياة رخية … بلماظة ، ومن الكرى بغرار
والمغريات مراودات ترتجى … وتخيب ! من عُون ومن أبكار
يرثون للمتفيئين ظلالها … علماً بما شريت به من عار
لا تيأسوا ، إن لم يلح من ليلة … فجر ، ولم تؤذن بضوء نهار
فلئن صليتم من هنات جمرها … ومشيتم منهن فوق شفار
فطوال ضائقة الأمور وإن قست … فى شرعة التاريخ جد قصار
لا بد أن يثب الزمان وينثنى … حكم الطغاة مقلم الأظفار
وتجدد الأيام عهد وصالها … من بعد إعراض لها ونفار
فهناك سوف يكون من زهراتكم … أصفى معارفها . وأطيب جار
وهناك سوف يرى الغنيمة معشر … أن يمسكوا من خلفكم بغبار
فحذار من عقبى القنوط حذار … وبدار ! للعهد الجديد بدار

[بغداد] محمد مهدى الجواهرى

معروف الرصافى

الشاعر المجدد والمفكر الثائر

الوقت ظهراً ، واليوم الجمعة فى السادس عشر من آذار (مارس) ١٩٤٥ كنت أسير فى موكب حاشد ضاقت به دروب الأعظمية من ضواحى بغداد . وأكثر هذا الخلق من الشباب الواعى يتدافعون مع جموع الدهماء ، متسابقين إلى حمل نعش الشاعر الذى غنى بأحاسيس أمته وهى تتوجع بقيود الاستبداد والاستعباد ، وصور لها بقصيده مآسى الجمود وظلمات الجهل ، وعبر بألحانه عن نشدانها الحرية والاستقلال والمجد - فى هذه اللحظات ونحن نشيع جثمان معروف الرصافى إلى الحفرة التى كتب على ابن آدم أن يستريح فيها الراحة الأبدية كان يساورنى سؤال ملح :

ما نبغ الرصافى واستفاضت شهرته فى البلاد العربية ، وقد أذاعت أشعاره صحف مصر منذ أربعين سنة إلا ولمح المدركون فيها ظاهرتين سجلهما تاريخ النهضة الأدبية الحديثة عندنا : الأولى نصوع الديباجة وشدة الأسر فى النظم وفصاحة الكلم ، والثانية نزعة التمرد على الظلم وتعشق الحرية مع فهم صحيح لمقومات الحياة . فكيف نحلل الظاهرتين فى هذا الفتى ؟ ومن أين تأتيا له وهو من نعلم فى ثقافته وبيئته ؟

يولد النابغة ، ويولد معه عالمه الخاص ، فتلتمع مواهبه ، فاذا هو يرى بعينيه مالا يراه بنو جلدته ، ويسمع بأذنيه مالا يطرق سمع إخوانه ، وتخترق نظرته آفاقاً بعيدة وينفذ فكره إلى أعماق سحيقة . وهذه حال تنطبق على الرصافى ؛ فقد جدد ديباجة الشعر العراقى ، فحاكى أثره فى وادى الرافدين أثر البارودى فى وادى النيل ، مع أنه تخرج من المدرسة العتيقة وشب وترعرع فى جو الأدب التقليدى من السجع المتكلف والنظم المفكك والنسج المهلهل ، وبرز مفكراً جهورى الصوت فى قولة الحق من بيئة تملكها الخنوع وغشى على قلوب أهليها طغيان الحاكمين بأمرهم من فلول الغزاة والمغيرين .

ولكن لا ! إن هذه المواهب التى أفرغها الخلاق فى معروف الرصافى إنما هى انتفاضة من عبقرية الأمة العراقية ، تجود بها الأزمان بين عصر وعصر ، وتختار لسطوعها شخصية تكون عصامية حيناً ، وعظامية حيناً آخر .

فهذا الشعر المجلجل بفصاحة الضاد ، قد تحدّر إلى شاعرنا من وحى سماء السواد بزرقتها الصافية ، وتموجات دجلة والفرات فى لججهما المصطخبة ، وهذه المعانى الكثيرة قد تناقلتها الأجيال إلى أديبنا ، من سليقة أمراء الشعر العباسى ذى الطابع المذهب فى تاريخ الأدب .

أما الثورة على عسف الطغاة ، ومصاولة الاستبداد ، فهذه النفس العراقية ، وهذا الإباء العربى ، وهذه الكرامة القومية ، التى عجزت سيوف القاهرين وحديدهم ونارهم عن أن تعرى الشعب منها ؛ فقد تتعب الحوادث الجسام الأمة الكريمة فتسكن فترة من دهرها ولكنها لا تنحل إلى الأبد ، وقد تهمد جذوة الشمم حقبة من السنين غير أنها لا تنطفئ تماماً ، حتى إذا أرهقت الأيام النفوس، واعتصرت المظالم القلوب ، تفجرت ينابيع السجية الأصيلة ، فظهر بطل الفكر فى الميدان ، وطلع وجه القائد على الناس ، وارتفع صوت النابغة فى قومه .

ها نحن أولاء نتطلع إلى الماضى غير البعيد نريد أن نتعرف حال العراق قبل نصف قرن أو يزيد قليلا ، لنتخيل البيئة التى ولد فيها معروف ونما ، وشدا الأدب وتلقف المعرفة ، فنهتدى إلى بواعث الحس فى الشاعر ، ونستبين موحيات الوعى فى المفكر .

بلاد صحراوية ، أهملتها السلطنة المرهقة ، إذ عفى عليها الزمن ، فخملت بعد شهرة ، وخربت بعد عمران ، وذوت بعد ازدهار . فيها أنشأت الدول الناهضة حضارات خالية وسمت تقدم الإنسانية بمياسم العز والسؤدد فى العهد القديم والعصر الوسيط . وعليها كدست الحكومة العاجزة غبار الإهمال ، وأنقاض المغازى ، وتهديم الفتوح .

وكأن استبداد المماليك من باشوات بغداد ووزرائها فى غفوة الانحطاط لم يكن كافياً ، فمزقت تضامن الشعب غارات القبائل وشحناؤها المتواصلة ، وقد استخفت بهيبة الحكام ، وأغراها ضعف الدولة فى قاعدتها القصية ، فظل هذا القطر الغنى

بحيراته الطبيعية غارقاً فى سباته حتى بعد أن تنبهت مطامع الاستعمار إلى خطورته وحيويته فى طريق الهند . وقامت فى أذهان حراس الإمبراطورية مشروعات الخط الحديدى الذى يربط جزرهم بمستعمراتها الضخمة ماراً بوادى الفرات ، وأخذت اللجان الدولية التى تقصده لحسم النزاع على الحدود بين إيران ودولة بنى عثمان تكتب لحكوماتها التقارير المفصلة عن هذه الكنوز المدفونة من بعيد . وقام أصحاب الأموال يحسبون لأسواق بين النهرين ألف حساب ، وشخصت عيون المنقبين الأثريين إلى ما تغطيه أطلال نينوى وخرائب بابل من أسرار لما ارتفع على هضابها من عروش وهياكل .

فى هذه الفترة هبت على الشرق الأوسط نسمة من يقظة فكرية بدأت بحملة نابليون على مصر ، ونهض محمد على باشا بأعباء مملكة جديدة أرادها عربية شرقية تتدرع بعلوم الغرب وفنونه ، لتنافس سلطنة عثمانية إسلامية وهنت منها القوى وأخذتها رعشة الانهار . واقترنت هذه الأحداث بمجىء البعوث الدينية وإرساليات التعليم الأجنبية من أوربا ، فانفتحت للتمدن الأوربى مسارب إلى الشرق . ولكن العراق بقى منعزلا أول الأمر عن كل هذا النشاط لبعد رقعته عن مراكز النهضة الغربية ، ثم أخذ يتأثر بعض الشىء لصلته بالأقطار العربية الأخرى فى اللغة والدين وأصول الثقافة القديمة وبخاصة الشام ومصر .

أما الحياة الفكرية العراقية فى المرحلة التى نتحدث عنها فكانت محصورة فى محافل الدين وحلقات المساجد . ومجالاتها فى الغالب بغداد والنجف والحلة والموصل ؛ وفى الأخيرة ولدت فكرة الثقافة الجديدة فى المدرسة والمطبعة اللتين أسسهما المبعث الفرنسى للآباء الدومنيكيين ، وكان الأدب شرعة الواردين عند القوم ومهوى أفئدة النابهين ؛ لأنه يعتلج فى القلب ، وأدواته الحس والذوق ، وعماده الموهبة الفطرية . وطبيعى أن يتقدم الشعر على النثر لهذه العوامل ، ولأن المآتم الحسينية فى مدائن الفرات يهزها الانشاد ، ومجالس البيوتات ودواوين الولاة فى حواضر دجلة تحفل بالنظيم ، وبفضل هذين المجالين احتفظ العراق بروح العزة الموروثة ، واندفع إلى استحياء المجد التليد ، وتناقل المفاخر العربية تحت نير السيطرة التركية ، فصان اللغة الفصحى من الاندثار فى ربوعه . أما

الأسلوب والطريقة ، فكلاهما تقليديان ، يتأثر الناظمون بالسلف ويترسمون خطوات الشعراء القدامى ، للصنعة فيه آثار بارزة ، والتكلف باد مفضوح . ويكفى أن أذكر ثلاثة من شعراء هذا الطور بل أعلامه ، وهم عبد الباقى العمرى ، وعبد الغفار الأخرس ، والسيد حيدر الحلى ، ليحكم الملمون بتاريخ الأدب العربى فى القرن التاسع عشر على أن معروفاً الرصافى سباق فى هذه الحلبة ، يصح لنا أن ننعته بالمجدد الذى رجع ديباجة الشعر العراقى إلى روعتها أو بعض روعتها بعد أن أخلقتها عصور التقهقر .

ولد معروف فى بغداد سنة ١٨٧٥ فى أسرة لا مال لها ولا نشب . أبوه عبد الغنى محمود ينتسب إلى عشيرة كردية تقطن بين كركوك والسليمانية تسمى (الجبارية) . وفى زعم العشيرة أنها علوية النسب ، ويسلم لها أهل كردستان بذلك . فان صح ادعاؤها فهى عربية النجاد . أما أمه فاطمة بنت جاسم فهى من عشيرة القراغول بطن من شمر الذين يمرحون فى سهول العراق ، وهو ثانى ولدين لأبويه ، وقد اختضد أخوه البكر فى مهد طفولته . وحدث أن صحيفة بغدادية قالت وهى تؤبن الرصافى : إن أباه كردى وأمه عربية ؛ فبرم بهذا التصريح صديق له من أساتذة الأدب فأشار فيما كتبه عنه فى مجلة عراقية أن الفقيد كان قليل التحدث عن نفسه وعن أسرته ؛ وأورد طرفاً من قصيدته التى مطلعها :

عهدتك شاعر العرب المجيدا فمالك لا تطارحنا النشيدا

وخلص منها الكاتب إلى هذا الإنكار : « فمن قال لك إن أباه من أصل كذا وأمه من أصل كذا ؛ فقد أبعد . . . » . فعادت تلك الجريدة ونشرت مقالا ضافياً حول العرق وكيف أنه لا علاقة له بمواهب الرجل ، وأن إنتاجه العقلى هو الأصل ، ولا عبرة بأن يكون الرصافى غير عربى الدم ، فهو عربى الروح والنزعة والثقافة إلى غيرها من شجون الحديث .

والذى تلقيته منه — رحمه الله — قبل خمس وعشرين سنة وأنا أكتب سيرته فى مجموعتى « الأدب العصرى فى العراق العربى »[1] إنه من أب كردى وأم عربية ، ولم يكن يتحرج من هذا مطلقاً ، حتى أنه اعتاد — كما أقرأنى

(١) طبع منها جزآن فى مصر (المطبعة السلفية سنة ١٩٢٣)

فى بعض مكاتباته — كما سأله كاتب أو مؤلف عن ترجمته أن يحيله إلى هذا الكتاب . هذا كان شأنه بحيث لم يكن يحفل بحسب موروث أو جاه دنيوى بل كان همه فى الحياة الجوهر لا العرض ، كما سنفصله فى بحثنا .

وكان أبو الشاعر عبد الغنى عريفاً فى الجيش العثمانى يتكلم التركية والكردية غير العربية - ولا يعجز عن القراءة والكتابة بأبسط مقدار ، خاض غمار الحرب الروسية التركية ، فلما نجا من القتال مال إلى مسلك الدرك فى صنف الخيالة ، فقضى معظم وقته نضو سفر على ما يتطلبه نظام الخدمة فى قوة الدرك . والمنطبع فى ذهن الولد عن والده أنه قد بدا له تقيًّا ورعاً يواظب على الصلاة وقراءة الذكر الحكيم ، كما يؤثر عنه حدة الطبع ، والعنف فى تأديب ابنه إذا خالف له رأياً .

ويظهر أن الطفل نشأ فى حضن أمه فانطبع حبها فى قلبه ، وأودعته خصائص نفسها وإن لم تقل الشعر وتكتب فى السيرة ، أو لعله لانفراده بعطف الأم فى غياب الأب فى الأغلب من الأوقات غرز فى نفسه هذا الأثر العميق لحنان الوالدة .

روى صديقه الأستاذ طه الراوى فى مقاله عنه أنه زاره يوماً فرآه منفعلا تنطق آثار الدموع فى محجريه ، فسأله ما به . فقال : « سمعت قينة إلى جوار منزلى تغنى غناء شجيا ، فأذكرنى غناؤها البيت الذى كنت أعيش فيه ، وعلى الأخص أمى التى كانت تحنو على حنوًّا ما عليه من مزيد ، وقد كانت تتعهدنى بالعناية جسما وروحاً » .

وطالما ردد معروف لأصحابه أن أمه كانت مرجعه فى كل شئ حتى بعد أن جاوز العقد الأول من حياته ؛ فهى التى أرسلته إلى الكتاب صبيًّا ، وظلت ترعى عمله فى المدرسة حتى تسأله عما يدرس فيها . ولم تكن تهجع إلا إذا أمسكت به إلى جانبها . وكانت تتصاعد من صدره زفرة وهو يذكر شديد حدبها عليه وسهرها على راحته ، وعنايتها بطعامه وملبسه ، فيحن إلى كنفها مهما باعدت السنون بينه وبين طفولته . وكم أسف لأن الحظ لم يسعده على وفائها بأداء واجبه نحوها إلى أبعد حد . وخير تعزية له أنه كان يصلها ببعض الدراهم وهو غائب عنها فى إقامته بدار الخلافة ؛ فلما اشتعلت الحرب العالمية ، وسقطت بغداد بيد الجيش البريطانى المحتل انقطعت عنه أخبارها ، وذكرها يتردد فى صدره . وكأن

عقله الباطن دله على مفارقتها الحياة فى غيبة ولدها الحبيب ، فنطق وهو فى الشام عام ١٩٢٠ يشهد ألاعيب السياسة وتقلبات الأيام وقد اجتواه أصدقاؤه وأنكره معارفه ، لأن السياسة أفسدت بينه وبينهم ، بقصيدة تعد من عيون شعره ، وفيها كثير من فلسفة الحياة وحقائق الدنيا ، موضوعها وعنوانها « ضلال التاريخ » ن فيها إلى أمه ، ويتحرق إلى رؤيتها بكبد حرّى :

لعمرك أقصانى الزمان المفرّق ... فهل أنا من بعد التشاؤم[1] معرق[2]

خليلىّ هل من بالرصافة عالم ... بأنى الى من بالرصافة شيّق

بلاد إذا ما هبت الريح نحوها ... تمنيت لو أنى بها أتعلق

ابيت على شوق وقلبى موثق ... بهمى ، ودمعى فوق خدى مطلق

إذا ما تذكرت العجوز بكيتها ... بدمع به الأهداب تطفو وتغرق

وما شرقى بالدمع يا أمّ وحده ... ولكن بروحى عند ذكراك أشرق

ويهفو بقلبى الشوق حتى كأنما ... تخطفه من بين جنبىّ سوذق

فيا أمّ صبراً إن لابنك همة ... إلى المجد ترمى أو إلى المجد تسبق

تضايق عنها الدهر مستعظما لها ... وأهلوه عنها يا أميمة أضيق

أكلف منها الدهر ما لا يطيقه ... فليس بعار أننى فيه مخفق

لقد صغرت بغداد عن أن تضمها ... وما وسعتها بعد بغداد جلقُ

نظم الرصافى هذا النسيج ، وهو لا يعلم أن أمه قد غيبها الثرى ، فلما عاد إلى بغداد بعد شهور افتقدها فلم يجدها . ولا أعلم أنه نظم شعراً فى رثاء أمه ، وقد تنحبس العواطف وهى فى عنفوان هيجانها ، فيكون هذا الحصر هو الشعر الحبيس المكروب ، وهو يقول : « إننى عند أوبتى إلى بلدى لم أقو على رؤية البيت الذى كنت أعيش فيه مع والدتى ، ولم يسعفنى جلدى حتى إلى سلوك الطريق المؤدية إليه . »

وعند ما نتعرض لألوان شعر الرصافى ، سنقف عند تفاهة شعره الغرامى ، وضعف حرارة الحب فى أناشيده ، فنحلل هذا على ضوء موقفه من المرأة ، ومذهبه فى الجنس . ولكن هذا لم يمنعه من أن ينظم شعراً جيداً فى الدفاع عن حقوق النساء فى الحياة ، والانطلاق من عبودية الرجال ، والحملة على الحجاب ، إنما

---

(١) صار فى الشام . — (٢) صار فى العراق .

عاطفة البنوة وتقديس الأمومة ظلت لصيقة به فانبثت فى تضاعيف شعره ولا سيما فى الطور الأول من مجده الأدنى ؛ فله قصيدة يتناشدها الفتيان إذ تحفل بها جل الكتب المدرسية فى لبنان وسورية والعراق وهى « التربية والأمهات » ؛ وفيها يقول :

ولم أر للخلائق من محل	يهذبها كحضن الأمهات
فحضن الأم مدرسة تسامت	بتربية البنين أو البنات
وأخلاق الوليد تقاس حسناً	بأخلاق النساء الوالدات
وليس ربيب عالية المزايا	كمثل ربيب سافلة الصفات
وليس النبت ينبت فى جنان	كمثل النبت ينبت فى الفلاة
فيا صدر الفتاة رحبت صدراً	فأنت مقر أسنى العاطفات
نراك إذا ضممت الطفل لوحاً	يفوق جميع ألواح الحياة
إذا استند الوليد عليك لاحت	تصاوير الحنان مصورات
لأخلاق الصبى بك انعكاس	كما انعكس الخيال على المِراة
وما ضربان قلبك غير درس	لتلقين الخصال الفاضلات

وإذا أردنا أن نتعرف شكل الرجل وسمته رأيناه طويل القامة، عظيم الألواح ممتلىء الجسم ، قوى البنية ، أسمر اللون ، أسود الشعر والعينين ، تشوب بياض عينيه حمرة خفيفة ، وظل بصره حاداً ، فلم يستعن بنظارات ، إلا أن عينيه أصيبتا بالمرض فى أخريات أيامه ، وقد درج على التؤدة فى مشيته حتى فى اكتمال شبابه وصحته . وكان يحمل مخصرة على مألوف الذوات فى عصره ، ثم صارت عصا يتوكأ عليها بعد أن هدّته السنون وزعزعت هيكله الأوصاب .

بعد أن بلغ معروف الثالثة من عمره حملته أمه إلى كتّاب فى الحى الذى يقطنانه ، وكانت المعلمة فى هذا الكتاب امرأة ، والتلاميذ الصغار من الجنسين . وتنقل بعده إلى عدة كتاتيب تيسر له فى حجراتها الضيقة وأسلوبها العقيم ، وفى رهبته من قصبة «الملا» وصياحه أن يختم القران العظيم . ولشدة حسه أبدع فى رجولته فى وصف هذه الخلايا التى تكون لتًّا للدجاج حيناً ، أو كهوفاً ومغاور فى الأحايين .

وفى سن الثانية عشرة دخل مدرسة نظامية هى المدرسة الرشدية العسكرية ؛ لأن هوى الأهلين كان عهدئذ أن يتخرج أولادهم ضباطاً فى الجيش . وهذا سبيل الجندية أو إمارة الجند . وكانت المدرسة الأميرية الوحيدة فى مدينة السلام ، تعلم فيها ثلاث سنوات ثم رسب فى الامتحان ؛ لأن التعليم فى عمومه باللغة التركية ، لسان الحكومة ، فانزعج الحدث المرهف الذهن ، وغادر معهده إلى غير رجعة .

وبعد لأى اتجه اليافع اتجاهاً جديداً فى الدرس الذى كانت أمه تحضه عليه ، فوضع العمامة على رأسه وأخذ يختلف إلى المدارس الدينية العلمية فى جوار الجوامع وحجرات التكايا ؛ فتتلمذ بادئ الرأى على الأستاذ محمود شكرى الألوسى الذى عرف بأنه علامة العراق ، واشتهر أديباً واسع الاطلاع مذ ألف كتابه « بلوغ الأرب فى أحوال العرب » فمهد له المكانة المرموقة . وأحسب الالوسى صاحب اليد على الأدب العراقى بما ألقاه فى روع هذا الفتى الموهوب من تعلق بالأدب وقد التفت إلى موهبته الفياضة وحافظته القوية ، ومثابرته على الدرس ، فصار أثيراً عنده ، وفتح له خزائن مكتبته فعب منها طالب الأدب الناشئ الظمآن ، ما وسعه الوقت آناء الليل وأطراف النهار ، تمده قريحة متوقدة وينهض به نبوغ مهيأ ، فكان شاعر العراق المتفوق ، ومفخرته الخالدة .

ولنا أن نصرح بأن الرصافى تسمية أطلقها أستاذه شكرى عليه . وفى ذهن الناس فى الزوراء مقام « معروف الكرخى » الصوفى الشهير ، فتنبأ المعلم لتلميذه أن سيسجل التاريخ « معروفاً رصافيًّا » لا فى الصوفية التى تواضع عليها الفقهاء ، ولكن فى الشعر الفصيح ، وحرية الفكر التى عنت لها كل سلطة ظلوم .

تعلم الرصافى من الآلوسى مبادئ العربية وشيئاً من أوائل الفروع ، واتصل بعد ذلك بجماعة من أشياخ ذلك العهد ، منهم الشيخ عباس القصاب ، والشيخ قاسم القيسى . و إذا استثنينا مُعلمه الأول الذى تخطى الجادة البالية فى نزعة إصلاحية سلفية فالآخرون من أساتيذ الشاعر شديدو الحرص على التزام الخطة التى درج عليها من تقدمهم . وقد لازم صاحبنا شيخه المفضل اثنتى عشرة سنة وتخرج عليه فى علوم العربية وما يتصل بها ، فحفظ المتون من الاجرومية إلى ألفية ابن مالك وشرح السيوطى عليها ، ومن هذه المرحلة بدأ ينظم الأبيات من بحر الرجز . روى عن نفسه لصديقه الأستاذ الراوى قال : « حبب إلىّ فى بدء دراستى العربية

التبسط فى فهم الشواهد وشروحها وتذوق ما فيها من بلاغة ، فكنت أحفظ الشاهد وما يسبقه وما يلحقه من أبيات ، فاجتمع فى حقيبتى وفى حافظتى منها شئ كثير ؛ وعندها كنت أحاول أن أنظم الشعر محاكياً ومحاذياً ، فقرضت الشعر وسنى دون السادسة عشرة ، فاجتمع عندى منه طائفة صالحة . وقد كان القريض يأخذ من وقتى الشئ الكثير . » عند هذا الاعتراف يلتفت الراوى فيعزو جزالة الشعر الرصافى ورصانته وروعة ديباجته إلى هذه النشأة والانطباع ؛ إذ أن شعر الشواهد مقصور على شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وهو أمتن شعر عرفته العربية .

ويؤثر عن معروف أنه ألف ، لشدة ولعه بالشواهد وجمعها ، كتاباً سماه « شواهد القطر » وقد أمعن فى حفظها بحيث جاوز المخزون منها فى حافظته عشرة آلاف بيت ، مما دعا أستاذه إلى أن يطلق عليه لقب « كتاب الشواهد » . وتسجل نشأة الشاعر أن قصيدته الأولى كانت فى مدح معلمه .

أما بقية ما أوغل فى نفس التلميذ من تعاليم الشيخ السلفى الكبير فهى هذه العزيمة الماضية فى عيشة غليظة وصلابة فى الفكرة ، ومقت للفخفخة والمظاهر ، وعدم الركض وراء المال ، حتى ليؤثر عنه أنه فى ذلك الطور من حياته وهو شاب حاد الشباب عنيفه كان كثير التهجد فى الصلاة يتلو القرآن الكريم باكياً . وقد أراد الأستاذ عبد المسيح درير فى تعليقه على ديوان الرصافى سنة ١٩٣١ أن يفسر تأثير هذه الفلسفة فى نفس الشاعر والمفكر فأوصلها إلى أن تسامت فى القراءة والتعمق فى الدرس والانغماس فى العواطف الدينية إلا أن عشقاً دهمه فى تلك المرحلة فمال به إلى وجهة أخرى . غير أننى أرى هذه الانطباعات ظهر تفاعلها فى ذهن الأديب الخصب فى مضامير حياته فى الاجتماع والسياسة ، حتى إذا أدركته الشيخوخة ، واعتكف فى كوخ له فى قرية الفلوجة ناجيا من صخب بغداد وتكالب الجشعين وأفاعيل السياسيين والحاكمين فيها ، تفرغ للتأليف ، وانصرف أكثر وقته لكتابة السيرة النبوية ، فوضع كتابه « اللغز الأعظم أو الحقيقة المحمدية » . ووجدناه فى هذا الكتاب يناقش كثيراً من العقد فى حياة محمد (ص) بالقياس إلى حيرات الزعماء السياسيين ومؤسسى الممالك .

رفائيل بطى

ثلاث شخصيات فى مسرحيات سوفوكليس

أذكر للكاتب الشهير فرنسوا سورياك عبارتين عندما أفكر فى مسرحيات سوفوكليس (٤٩٨ — ٤٠٦ ق.م) ، وأحاول أن أطوى تحت كلمات قليلة المعانى الفلسفية العميقة التى تحملها بين سطورها . وردت العبارة الأولى فى قصة عنوانها « ثوب الشباب » ، وهى : « فى كل إنسان شئ يفوقه بكثير » . وجاءت الثانية فى قصة « نهر النار » ونصها : « إنه كان يخشى منها على نفسه أكبر خيانة وهى أن تصبح غير التى ألفها » .

ويبدو لى أن سوفوكليس لم يطمح إلى أن يعلمنا شيئاً غير هذا ؛ وهو يضع تحت أنظارنا أناساً عند مفترقات الحياة ، فى آونة عسيرة قاسية ، وهم عاكفون على تعرف شخصياتهم وضمائرهم ، ومقبلون على اللحظة الثمينة التى يثوب الانسان فيها إلى نفسه ، فيفطن لكل ما يستطيع أن يأتيه من أعمال وأن يعالجه من أمور يعرض لها ، ليحاول ، كما يقول أندريه جيد فى « ثيسيوس » ، أن « يمضى إلى أبعد مما بلغ » . وتلك القوة اللانهائية التى نحملها بيننا وبين أنفسنا فى أعماق ضمائرنا هى التى برع سوفوكليس فى التنبه إليها فى الشخصيات التى وجدها فى الأساطير والتاريخ ، وهو يعلم حق العلم أن المواقف الحرجة الخطيرة ، والأهوال الشاقة العسيرة ، هى وحدها التى تعين الانسان على أن يدرك حقيقة نفسه ، وهى تلقى له القناع عن عالم داخلى كان يجهله ، وعن إرادة حاسمة تريد أن تعمل دون أن تقوى أية عقبة على ردها عن العمل .

وأنا إذا ذكرت كلمة « الارادة » لا أقصد قطعاً ذلك الميل إلى الالتزامات الخلقية والقيود الفكرية ، الذى يحبب إلى الانسان الحلول الصعبة ، ويدفعه إن لم يستدرجه على رغمه ، إلى التصرفات التى يأباها عقله وتنفر منها طبيعته . فالإرادة التى يتكون منها الركن الأساسى فى مسرحيات سوفوكليس إنما هى الحرية التى تقيم وزناً للقوة الإلهية فى العالم ، وتترك لإرادتنا فى الوقت نفسه ، مجالا واسعاً لتقدم على ما تحب وتحجم عما تأنف .

ليست الحرية فى آثار إيسكيلوس، وبنوع خاص فى « الأورستيا »[١] بالشئ الواضح البارز الذى يسيطر على ذهن القارئ أو الشاهد ، ولكنه ، على عكس ذلك ، وجود قدر محتوم يفوق الأبطال ويسحقهم . فكلوتيمسترا وألكترا وأورستيس يشبهون الدمى قيدت أطرافها بالخيوط واضطرت إلى حركات معينة . فالغضب السائد على قصر أجاممنون يريد أن يثأر لقتل فتاة [٢] ؛ ولا بد له من آلة ، فلتكن كلوتيمنسترا تلك الآلة ، ولتقدم على قتل زوجها ؛ وهى تعلم أن هناك قوة تقودها إلى ارتكاب الإثم ، ونسمعها تتحدث عنها فى موقفين من المسرحية قائلة : « هذه القوة بين أحشائنا تقوى ظمأنا إلى الدم » ثم « تمضى الأشياء كما يجب أن تكون » . وفى مسرحية « الصافحات » يقول رئيس الجوقة لأورستيس : « إلى العمل ، واخضع لتجربة القدر » ، وفى مسرحية « المنتقات » ، يوجه أبولون حديثه إلى أورستيس ليحميه من شر آلهة السوء والثأر قائلا : ألست أنا الذى دفعك إلى طعن أمك ؟

ومن هنا كان اعتقادنا أن البطل الرئيسى فى مسرحيات إيسكيولوس ليس رجلا أو امرأة مثل فيلوكتيت أو ديجانير (زوج هركل) فى آثار سوفوكليس ؛ فالأدوار الهامة فى آثار إيسكيلوس تقوم بتمثيلها آلهة الأولمب عوضاً عن البشر ، وقد تستعين الآلهة بالمخلوقات لتحقيق إرادتهم على حين يلتمس البشر مساعدة الآلهة فى مسرحيات سوفوكليس ليعينوهم على ما يريدونه من أهداف .

ولننتقل الآن إلى هذه المسرحيات لنواجه الأبطال الرئيسيين ، وهم يقاسون المتاعب والمعضلات التى تعرض لهم ؛ ولنرى مثلا أهناك مواقف لم يبرهنوا فيها على تمسكهم بالمبادئ الخلقية وبالمثل العليا فى الحياة ؛ وهل حدث لهم مثلا أن يقبلوا على تلك الخيانة الكبرى التى وصفها موريالك بأنها حالة يكون فيها الانسان على غير ما ألف أن يكون أمام ضميره وأمام الناس .

وليس فى نيتى أن أعطى فكرة شاملة عن آثار سوفوكليس ولا أن أعرج على دراسة أخلاق الأبطال وطباعهم ؛ وكل ما يعنينى فى هذا المقال أن أتبين كنه بعض الانفعالات النفسية . وأنا إذا فعلت ذلك لا يفوتنى أن أفطن لما

---

(١) ثلاث مسرحيات تصور مصرع أجاممنون بيد امرأته وانتقام ابنه منها ثم معاقبة ابنها على هذا الانتقام .

(٢) هى ايفيجينى التى ضحى بها أبوها أجاممنون لتسمح له الآلهة بعبور البحر إلى طروادة .

يتعرض له مثل ذلك البحث من نقص وإخفاق لكثرة العوامل الخفية التى تدفع الانسان إلى العمل والكلام ، والتى يصعب على الباحث أن يخضعها لأساليبه فى التحرى والنقد ، إلا إذا كان له بها دراية كاملة وتجربة شخصية ؛ والشئ الوحيد المشجع هو أننا نعرف مع سوفوكليس ، كما نعرف مع راسين ، منذ المشهد الأول من آثارها ، جوهر الموضوع ، وحقيقة الصراع الداخلى الذى تتكون منه عقدة المسرحية ، فلا تلبث تلك المشكلات النفسية وتلك المواقف الشاذة المؤلمة التى يعانيها أبطال القصة أن تثير فى نفوسنا حب الاستطلاع الحاد لشدة ما تحتوى عليه المأساة من عنف وقسوة .

فلننظر إلى شخصية أياس مثلا فى المسرحية التى أطلق عليها سوفوكليس اسم هذا البطل : إنه يعد نفسه فى مأزق وفى حالة نفسية يرثى لها ؛ فقد أهدى الجيش اليونانى إلى أوديسيوس أسلحة أخيل ، مثيراً بذلك غضب أياس وسخطه وعزمه على سفك الدماء ، وقد ضللته أثينا ، فأخذ يعمل بسيفه فى ماشية اليونانيين ، وهو يخالها جماعات من الرجال ؛ وقد أثمله منظر الدماء السائلة بغزارة حوله ؛ ثم يعود إليه صوابه ، فيفطن لما أقدم عليه ، ويتبين الأمور على حقيقتها ؛ وهو إذا أمعن النظر فى الماشية التى نحرها ، اضطرب وارتعد ؛ لأنه سيصبح أضحوكة أعدائه .

وينبغى هنا على الشاهد أو القارئ أن يضع نفسه فى شخصية أياس ليلحظ ما فى موقفه من يأس وعذاب ؛ فمن هو هذا الرجل ؟ إننا نعرفه بما وصفه به هوميروس فى الالياذة من شجاعة وقوة ، ومن الصورة التى تركها لنا عنه سوفوكليس فى مسرحيته . فاذا تحدث عنه أوديسيوس وصفه « بأياس ذى الترس المعروف » (١) وهو يعلم قدر جرأته وبطشه ؛ ولذلك يرتعد عندما يتوقع خروجه من الخيمة ، ويستحلف أثينا : « ألا تطلب إليه البروز ». وتسأل الآلهة أوديسيوس : « أى رجل يمكنه أن يكون أعقل منه وأشجع منه إذا جد الجد ؟ » فيجيبها : « لا أعرف أحداً يعدله عقلا وبأساً » . وإذا تحدث أياس عن نفسه قال : « أنا الذى يفاخر بأن طروادة لم تر مثله أحداً ». فكيف لا يجذب مثل

---

(١) العبارات التى نستشهد بها فى مسرحيتى « أياس » و « أوديبوس ملكا » مقتبسة من ترجمة الدكتور طه حسين بك لسوفوكليس فى كتابه « من الأدب التمثيلى اليونانى » .

هذا الرجل غضب الآلهة ! ولا بد لمثل هذه الكبرياء الفادحة المهينة أن تنزل بصاحبها أشق العذاب ؛ ولكن لم تكن هذه الضرورة كافية لتحط من شأن أياس ، ولتضعف إيمانه بحقه ؛ فعزة النفس تشرف صاحبها ، وإن أياس من الذين يقبلون الشدة ويواجهونها بشجاعة ، ولا يعرضون ، بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين الناس ، عن الطريق الذى دأبوا على سلوكه ؛ والمثل العليا التى يستنير بها أياس ويسترشد بها فى تصرفاته واضحة ، لا يعتريها أى تردد ، وهو يقول : « إنما قصارى الرجل الكريم أن يعيش ماجداً أو أن يموت كريماً . وهو يريد قبل كل شئ أن يكون كريماً ، وأن يقاوم كل عقبة حتى لا تحدثه نفسه بأية خيانة ؛ فهو لا يرضى بحكم أتينا ، ولا أن يتخذ من السكوت حلا يلجأ إليه وراحة ينعم بها ، ولكنه على ذلك لا يئن ولا يتظلم ، وهو يقول : « إن الشكوى لا تليق إلا بالجبناء والضعفاء » ؛ أما هو فمحارب ، مقدام ، وجرئ لا يلازمه إلا النجاح ، فكيف يتراجع ويسلم نفسه للعدو ؛ وهو يؤثر الانتحار على عيش تنغصه السخرية والاهانة ؛ وقد يحرم عليه احتقاره لأعدائه أن يترك لهم فرصة الانتصار عليه . كلا ! إنه لن يسمع تهكمهم ، ولن يعرض نفسه لأذاهم ؛ وما من حل أمام أياس سوى الانتحار ؛ فهو يعلم ذلك ، ويقدر أهميته ، ويتنبأ بوقعه فى نفوس من يتركهم ، وهو يذكر ابنه الذى يحبه ، ويرق قلبه لاستعطاف زوجه ، ولكن كل ذلك لا يبقى له أثر بمجرد اصطدامه بتلك القوة الداخلية التى أشرنا إليها فى مطلع المقال ، والتى تفوق الانسان ، ولا ترضى إلا بأن تكون لها الكلمة الأخيرة فى كل جدال أو نزاع .

وهناك وجه شبه بليغ بين شخصية أياس ومسرحيته ، وشخصية فيلوكتيت ومسرحيته : إنه معذب مثل أياس ، لدغه ثعبان أثناء حملة طروادة ، فخاله اليونانيون مقصوداً من الآلهة ، وضاقوا بجرحه ، حتى إنهم نفوه إلى جزيرة ليمنوس ؛ فعاش بها عشر سنين فى عزلة وتقشف تام لخلو منفاه من السكان . وفى المشهد الأول من الفصل الثانى ، يقص فيلوكتيت على نيوبتوليم قصة بؤسه ؛ فلا يصعب علينا أن نتصور ونقدر عذابه ؛ فهو يقاسى ألم العزلة المادية ومشقة الوحدة النفسية فضلا عن دائه الذى يشتد عليه فى كل يوم . أما الأخبار التى يحملها إليه نيوبتوليم فانها تزيده حزناً ويأساً ،

لأنها تعرفه سوت أخيل وأياس وأنتيلوك ، وشقاء نستور ، فيمتزج صوت هؤلاء الأعزاء بصوت الوطن ، وتصبح حياته لا تطاق ؛ إنه يريد أن يعود إلى بلاد اليونان ليرى أباه ، ويتوسل إلى نيوبتوليم ألا يهجره ؛ فيرضى ؛ ويبتهج فيلوكتيت ، ويتغنى بسعادة ذلك اليوم . ولكنه — وهنا نلمس أدق ناحية فى المسرحية — يعلم أن اليونان فى حاجة إليه ليحالفهم النصر فى حرب طروادة ؛ فيحدث لساعته انقلاب قوى فى نفسه ، ويتحول الفرح إلى حزن ، والأمل إلى يأس ، والابتسام إلى عبوس ؛ فقد زال القناع عن كل شئ ،وظهرت له الأمور ، كما ظهرت لأياس ، واضحة ، جلية ، قاسية : أياس قد ضللته أثينا ، وفيلوكتيت خدعه الناس ، وعاملوه كما يعامل الانسان الآلة التى يلجأ إليها ثم يتركها فى زاوية إذا فرغ من استخدامها .

أما هذا الرجل فانه ، بالرغم من الآلام الطويلة التى أوهنت بدنه ، يحتفظ بقوة إرادة لم يضعفها ولم يمسها أى سوء ؛ فهو يعلم أنه لن يلين ، وأن اليونان الذين أهانوه وأذاقوه ألواناً من الشقاء لم تطرق بخاطره ، لن ينالوا منه شيئاً . ونيوبتوليم ، وهو أكثر حكمة أو بالأحرى أقل بؤساً ، يتحدث عن « الضرورة » وعن « القوانين » ، ولكن فيلوكتيت لايفهم هذا الحديث مع إدراكه أن حياته متعذرة فى لمنوس إن هو بقى على عصيانه ، وقد جرده نيوبتوليم من قوسه وسهامه . وفى موضع بعينه من المسرحية عند ما يأخذ ، أوديسيوس فى تأنيبه ومعاملته بعنف ، يقول فيلوكتيت الأعزل القوى فى آن واحد ، هذه العبارة التى تهمنا فى هذا البحث : « ما أشقانى ! ألم يجعل أبى منى رجلاحرا ؟ » ثم هو يفكر مثل أياس أن يلقى نفسه فى أحضان الموت بمحض إرادته وحريته : « سأندفع إلى هذه الهاوية لأشج رأسى وأنا أقع من أعلى تلك الصخور » .

غير أن فيلوكتيت حريص على صداقة نيوبتوليم ، وربما أبى أن يكون إلى النهاية الرجل المنعزل الذى يعاند ويلح فى امتناعه ، ويحرم نفسه ، تحت تأثير الكبرياء ، لذة المغفرة وعذوبة الوئام ؛ فقد عاونه إيمانه بحريته على معارضة اليونان وحمله عليهم . أما الآن ، وقد طرق أذنيه صوت الصديق المقنع ، وسعت إليه الآلهة تستميله وتستعطفه ، فانه يستمد من حريته مايساعده على أن يأخذ نفسه بشئ من الرفق والهدوء ، وأن يجيب اليونان إلى مايطلبون ؛ وإن كان فى تصرف فيلوكتيت وفى تفهمه للحرية شئ أقرب

إلينا مما يصدر عن أياس ؛ فانه من الخطأ أن نؤثر الأول على الثانى ؛ ليس لنا أن نفصل بينهما ، ولا أن نحكم عليهما ، وكل ما يعنينا هو أن الإرادة فى المسرحيتين هى العنصر الأساسى والعامل الجوهرى .

أما أوديبوس فيكفى أن يلفظ اسمه ليسبح خيال السامع فى عالم الأساطير الخالدة التى طالما استقى منها الكتاب موضوعات مسرحياتهم أو بعض عناصرها. ونحن إذا عكفنا على مسرحية « أوديبوس ملكا » نجد أنفسنا أمام رجل عطوف يؤلمه منظر البؤس الذى يسود البلاد التى يحكمها ، وهو لا يبخل بشئ فى سبيل معالجته و إبداله بأسباب السعادة والرفاهية ، لينعم السكان ، ولا سيما المحرومون منهم ، بذلك الفرح الساذج البرئ الذى يشيع فى النفس إذا زال عنها ألم الحاجة والفقر وثقل البؤس والقنوط . نسمعه يقول متحدثاً إلى شعبه : « لست أجهل أنكم تألمون جميعاً ، ولكن ثقوا بأن ليس منكم من يألم كما آلم » . وهو على أتم استعداد ليضحى من تلقاء إرادته بكل شئ لينسيهم وطأة ذلك العذاب المضنى ؛ يستنجد كريون بأبولون ، ويتضرع إليه، فيأمر الإله بالتحرى عن قاتلى لايوس وينفيهم عن البلاد أو الحكم عليهم بالقتل ؛ وهنا يصمم الملك أوديبوس ، فى شئ من الكبرياء الواضحة ، (وقد يؤاخذه عليها كريون فيما بعد) ، وهو يسعى وراء مصلحة غامضة قوية ، على أن يرجع إلى « المصدر » ، ليكتشف المجرم . وقد انقضى زمن طويل منذ ارتكاب الجريمة ، ولكن الملك لا ييأس ، بل يتسلح بذلك الصبر العجيب الذى يتصف به جميع أبطال سوفوكليس . وربما فكر البعض أن هناك إرادة إلهية عبر عنها أبولون لابد لها أن تنفذ ، وأن تعيد الأمور إلى نصابها ، كما هى الحال فى آثار إيسكيلوس . وقد قدمنا فى مطلع المقال الجواب على هذا الاعتراض عندما أشرنا إلى البون الشاسع بين مسرحيات الشاعرين . ليس أوديبوس لعبة تتناولها الآلهة ، وهو يعلن ذلك حينما يقول : « قد أنبأنا بذلك وحى الإله . كذلك أريد أن أنفذ أمر الآلهة وأن أثأر للملك المقتول » . ففى استطاعة أوديبوس إذن أن يتحرر من إرادة أبولون ، وهو يقر بالحاح أنه إذا أنصت إلى صوت الآلهة ولبى دعاءهم ، فانما يفعل ذلك بمحض إرادته .

وعندما يكشف تريسياس للملك أنه هو القاتل الذى أمر بالبحث عنه ،

يبرهن أويديبوس على مقاومة نادرة . تأخذه الدهشة من كل صوب ، فتنفر نفسه وتشمئز ، فهى ثائرة أكثر مما هى مضطربة ؛ ولا يفقد الملك وعيه بل يهدأ روعه ، وتمر بخاطره الفروض والتأويلات ؛ فهو يظن فى أول الأمر أنه فريسة مؤامرة دبرها كريون ، وأن الغرض من حديث تريسياس هو إيقاع الريب فى النفوس ، وخلق جو مضطرب مسمم حول العرش . وإذا أتت يوكاستيه بالبينات والأدلة التى تزيل الغموض ، تغمر أويديبوس موجة من الحيرة والقلق ، ويظهر ذلك فى حوارهما السريع المضطرب ؛ ويشعر القارئ حينئذ أنه إزاء رجل أوشك أن يتراجع وأشرف على الهلاك ، ولكنه يحاول ، وقد أثر فيه اليأس ما أثر وأحاطه القنوط من كل وجه ، أن يبذل آخر مجهود ليصون عزة نفسه ، ويبقى رجلا كريماً حرا . يريد الملك أن يستزيد علماً وأن يحصل على أوفر قسط من الحقيقة ، وألا يرده شئ عن معرفة القاتل ، فيحضر الراعى الذى كان أول من خبر الناس باغتيال لايوس ويسأله ويستمع له .

تحاول يوكاستيه ، وهى لا تعير أهمية كبيرة للتنبؤات ، أن تصرف الملك عن ذلك الإلحاح ؛ ولكن أويديبوس يؤمن بحريته ، ويتمسك بها ، ولا يرضى أن يتنحى عما تبيحه له من دقة فى التحرى ومداومة على الاستطلاع ؛ وهو يقول ليوكاستيه : « لا سبيل إلى طاعتك ؛ لابد من أن يتبين هذا اللغز » . ونحن نعلم جليا تلك الحقيقة المحزنة التى بلغها الملك بعد جهد طويل ، ولسنا فى حاجة إلى الامعان فيها ؛ ويكفينا أن نلاحظ ، وذلك كل ما نبتغيه ، أن أويديبوس لم يرتكن إلى شئ كما ارتكن إلى حريته من أول المسرحية إلى آخرها ، من اللحظة التى دعاه فيها بؤس الرعية إلى التفكير والتأمل والسعى وراء الحقيقة ، إلى وهلة الشؤم التى دفعته إلى عالم الظلمة الذى اختاره لنفسه، وإن لم ينكر أثر أبولون فيما يقاسى ؛ فانه يعترف بأمر خطير إذ يقول : « دفعنى إلى ذلك أبولون ، نعم أبولون أيها الصديق هو مصدر آلامى التى لا تطاق ، ولكنه لم يفقأ عينى إلا أنا وحدى » . وعندما تفزع الجوقة لصورة الملك الضرير وتجرؤ على أن تنكر لون النكال الذى ألحقه بنفسه ، تعاود أويديبوس نزعة كلها عظمة وجلال ، فينفعل لها ويقول : « لا تحاول أن تظهر لى أنى كنت أستطيع أن أفعل خيراً مما فعلت » .

ولم ينته هنا عهدنا بتلك الحرية التامة التى يحتفظ بها الملك فى صميم بؤسه ،

فانها تظهر فى أكثر من مناسبة فى مسرحية « أوديبوس فى كولونا » ؛ ولكنها تختلف إلى حد ما عن الحرية الثائرة الصاخبة التى ألفناها فى « أوديبوس ملكا » ، فقد زال عنها عنفها ، وحل مكانه ذلك الهدوء الذى يتصف به وجه المرء وصوته وما يصدر عنه كلما أيقن بحسن نيته وبطهارة قلبه ، بالرغم مما أقدمت عليه يداه من إثم أوجدته الظروف وأبدعه الدهر شر إبداع .

والمسرحية تظهر لنا « أوديبوس البائس » كما تصفه ابنته ، وقد بلغ كولونا بعد هيام طويل ، تقاذفته فيه المدن الواحدة تلو الأخرى ؛ وأنتيجونا تصحبه منذ أصبح ضريراً ، ولم يطع الشيخ إلا ابنته . ومما يستوقفنا فى تلك المسرحية أن الملك الذى كان يضيق بنصائح زوجه ، ويأبى أن يعطى أى حساب عن تصرفاته ، يقول لأنتيجونا ، على مسمع من أهل كولونا ، وهم يزجرونه عن مكان آلهة الانتقام المقدس : « ما العمل يا ابنتى؟ » ثم يستسلم لرأيها .

ولكن الويل لمن يعرض أمامه لسيرة ابنيه اللذين عاونا على نفيه ووافقا عليه بأمر رسمى صدر عنهما ؛ فانه لا يقوى وقتئذ على كبح شعوره ، وعلى رد ذلك اليأس الشديد الذى ينصب عليه ويتغلغل فى نفسه المعذبة . تقبل عليه أسمينا وتنبئه بأن هناك نزاعاً بين إيثيوكليس وبولينيس ، فيجيبها بكبريائه المألوفة قائلا : « لن أدافع عنهما أبداً » ؛ وهو يعلم أيضاً أن كريون أوشك أن يأتى إليه ليرده إلى وطنه ؛ لأن قبره مصدر يمن على الشعب الذى يناله ، ولكن أوديبوس واثق أنه لن يلين ولا يخضع ، مثله فى ذلك مثل من صادفناهم فى المسرحيات السابقة ، وكأننا بفيلوكتيت آخر يمتنع عن العودة إلى وطن أساء إليه ، وآذاه فى حريته ، ودفعه عن أرضه وقصره ، ثم يجرؤ ، ساعة الحاجة إليه ، على استدعائه . فأوديبوس على عكس ذلك يثبت حريته، ويقدم نفسه هدية بائسة لثيسيوس الذى رحب به وأكرمه .

يحضر كريون ويحاول أن يقنع أوديبوس بضرورة العودة إلى ثيبة ، فينشأ جدال بين الماكر القوى والضرير الضعيف ؛ والكريم هو أوديبوس لأنه يتمتع بحرية أكبر من حرية كريون ؛ فكريون رسول أهل ثيبه ، مقيد برغبتهم ، وقد تنحى عن شخصيته فى سبيل إرضائهم . أما أوديبوس فهو هو ، بعيد كل البعد عن نزعات الشعب وأوامره والتزاماته ؛ وهو يشعر أن كريون يريد أن يباعد بينه وبين أنتيجونا وأسمينا ، وأنه ربما فكر فى خطفه و إعادته

رغم إرادته ، إلى ثيبة ، ولكنه لا ينفعل ولا يتقلقل لتهديد كريون ونذيره ؛ بل يبرهن على نفس القوة عندما يأتيه بولينيس ، بعد أن طرده أخوه من ثيبة ، ليستغفره ويستنجد به .

هكذا يظهر أويديبوس فى مسرحياتيه لسوفوكليس بشخصيته القويةالوقور التى استطاع القضاء إخمادها دون أن يقوى على إخضاعها .

إذا رأيتنى أحرص على درس بعض الشخصيات فى مواقف قليلة معينة ، فانما فعلت ذلك لتألف قليلا ما فى تلك المسرحيات من معان جوهرية ثمينة ، ولتلمس حقيقة ربما ظهرت غريبة فى أول الأمر ، وهى أن هناك شبهاً أساسياً بين أبطال سوفوكليس ؛ فمشكلتهم الداخلية الخفية هى نفس المشكلة ، إذا صرفنا النظر عن الأحوال والظروف والحوادث والعناصر الخارجية التى تختلف مع اختلاف الشخصية والبيئة والعمر ، وهى مشكلة كل فرد عالم بقيمته الانسانية ، وعازم على أن يقاوم الشدائد الناشئة عادة عن احتكاكه بغيره ، وعلى أن يقهرها مهما يكلفه ذلك من تضحية وعناء . ويبدو لى أنه من الخطأ أن نصفهم فقط بالثائرين الغاضبين الذين لا يقبلون الحياة ، ويرمون ، على كل حال ، إلى تغييرها أو إزالة أثرها ؛ لأنهم فى الواقع لا يأنفون إلا الحياة الذليلة التى تهينهم فيما بينهم وبين أنفسهم ؛ وإيمانهم بالعدل المطلق هو الذى يسمو فى قلوبهم بحرصهم على حريتهم . وما أنين اليأس الذى يصدر من ضمائرهم إلا سؤال موجه إلى الآلهة والانسانية عن معنى البؤس وأسبابه . وإذا غاب الجواب أو جاء مخالفاً لما دأبوا عليه من حقائق الحكمة والعقل فانهم يلجأون حينئذ إلى أقصى الحلول وأخطرها ؛ وهم لايضعون شيئاً إلا على بصيرة ، وبعد إمعان طويل ؛ وربما سبق السكوت أغلب تصرفاتهم ، وكأنهم ، فى تلك اللحظة الصامتة ، ينصرفون عن العالم الخارجى ليتبينوا بوضوح حقيقة أمرهم ، ولتصل تلك الحقيقة إلى أعماق قلوبهم ، ثم يطفون فوق سكوتهم وتفكيرهم ، إن صح هذا القول ، ويذعنون آخر الأمر إلى هذا الإحساس القوى الذى يقودهم فى الحياة ، أى شعورهم بالحرية التى هى أعز شىء عندهم ، حتى لو جنت عليهم فى بعض الأحيان .

د. عوده قرنسيس

L'ART NOMADE

HILDE ZALOSCER

الفن البدوى*

تنقسم القارة الإراسياتية ، أى آسيا وشبه جزيرتها الصغيرة أوربا ، بحكم تكوينها الجغرافى إلى قسمين يختلفان اختلافا جوهرياً : شواطئ القارة وأشباه جزرها النضيرة ، ووسط القارة الصحرواى القحل . وقدنمت الحضارة هى أيضاً نمواً متبايناً واتخذت شكلين مختلفين : فأزهرت عند الساحل « الثقافات الرفيعة » ثقافات البيوت – أى بيوت النبات – لأن النباتات يزداد نموها فى الظروف الملائمة ، وتصل فى أغلب الأحيان إلى الخصوبة والوفرة ، والحضارات كذلك تتأثر بالظروف إذا كانت صالحة . هذا على حين أن فى وسط القارة حيث السهول المترامية ، والجبال الشامخة ، فى تلك الطبيعة التى على عظمتها لا يأمن إليها الانسان ، نشأت حضارة أخرى ، وشب قوم آخرون ، وظهر بظهور الفن الذى أبدعته تلك الحضارة ، اتجاه فكرى يختلف اختلافا كلياً عن الاتجاه الفكرى الذى عرفناه حتى الآن .

إلى يومنا هذا كانت الثقافات التى سميناها « ثقافات رفيعة » هى وحدها موضوع دراسة علماء الاجتماع والآثار والمؤرخين بوجه عام ؛ وقد أينعت فى تلك الواحات الشاسعة مثل الصين ، عند وادى هونج هو ، والهند عند وادى الجانج وميزوبوتيا بين دجلة والفرات ، وأخيراً فى وادى النيل . والمعتقد أن تلك الثقافات هى التى على التوالى مهدت للحضارة القائمة فى أيامنا هذه . فقد كان لمذهب داروين التطورى أثره أيضاً فى التاريخ ؛ إذ وضع سلماً للقيم الاجتماعية ، وأوضح قوانين التطور التى استخرجتها هذه القيم من تلك « الحضارات العظمى » .

وإن الاكتشافات التى جاءت عفواً ، وعمليات الحفر المنظمة التى شرع فيها فى وسط آسيا من بحر الصين حتى البحر الأسود ، لم تكشف إلا منذ نحو

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

ثلاثين عاماً فقط ، عن تحف فنية لحضارة كانت مجهولة إلى ذلك الوقت . نظمت عمليات الحفر والتنقيب فى سيبريا والقوقاز ولورستان وفى وادى الأردوس حتى منغوليا ، وكانت التربة فى كل مكان تلفظ آثاراً من ثقافة غريبة ، تنم عن اتجاه فكرى وجمالى خاص بها . ونحن نستطيع اليوم بوساطة هذه الحفريات أن نكوّن تاريخ الحضارة والفن للشعوب التى تعيش فى وسط القارة الاراسياتية . وأفراد هذه الشعوب هم قبل كل شئ من البدو صيادين كانوا أم رعاة ، لا يعرفون لأنفسهم مقرا ثابتاً ، بل يجوبون أحراراً الفيافى الواسعة ، وينفقون أيامهم على صهوات الجياد ، وقد أعدوا أنفسهم أتم إعداد لحياة السهول . وليس لدينا من الوثائق المكتوبة ما يساعدنا على سرد تاريخهم ؛ وإن ما بقى لنا فهو ما استطعنا أن نتبينه من تأثير مباشر أو غير مباشر فى الشعوب الأخرى ، كما بقى لنا ما حفظته الأرض من آثار فنية .

وبفضل ماتجمع لدينا استطعنا أن نتعرف إلى حضارة جديدة ، وقوانين جديدة ، وقيم جديدة، هى الحضارة البدوية . وفى وسعنا اليوم أن نضع بصفة نهائية جنباً إلى جنب لونين من الثقافة يختلفان فيما بينهما كل الاختلاف : ثقافة الواحات التى نسميها بدافع الكبرياء « الثقافة الرفيعة » ، ثم ثقافة البدو .

فى المناطق المعتدلة حيث الجو ملائم والظروف مواتية ، عدل الإنسان أثناء تطوره عن هذا الصراع العنيف الذى كان يخوضه فى سبيل البقاء . لم تعد الطبيعة له عدوا ، ولم تعد قوة تشعره بضعفه بَلْهَ أن تشعره بقلة مكانته . ومن هذه الثقة بحقيقة ذاته ، استنبط الانسان أهمية نوعه ؛ فيظهر دين تكون الآلهة فيه على صورة الانسان ؛ ويسود نظام سياسى يوضع الحاكم فيه موضع الإله ؛ وينشأ فن يكون الانسان فيه النموذج الأوحد والعنصر المفضل ، والمعيار لكل القيم . ففن الواحات أى فن «ثقافات البيوت» هو فن يتجه فى جوهره وفى كل نواحيه إلى تصوير الانسان .

وإن البراهين لتملأ المتاحف . فلنذكر كل التماثيل التى تصور بوذا ذا الابتسامة التى لايدرك معناها ، ولنذكر كل هؤلاء الملوك والكهنة الأشوريين وهم جامدون فى جلالتهم ، ولنذكر الآلهة والملوك من الفراعنة ؛ فى كل تماثيل العذراء وفينوس والأبطال والقديسين ، فى كل هذا الموكب المكون من آلهة وملوك ، نجد مطبوعة صورة الانسان ، جامدة كانت تلك التماثيل أو منبهجة ،

واجمة أو حاكية للطبيعة ؛ فان صورة الانسان هى التى تتمثل لأعيننا فيها . وهكذا يبدو الفنان فى هذه الحضارات مقلداً أكثر منه مبتكراً ، وينحصر فنه فى تصوير الانسان .

وعلى النقيض من ذلك لانجد إطلاقاً فى آثار الشعوب البدوية هذا الاتجاه نحو التقليد (وهو الذى يساعد على زيادة تقريب فن «الحضارات العظمى» إلى الرائى) ؛ ففى الفن البدوى يستوحى الفنان خياله ، وهو إذا استعان بنموذج ، لا يحاول أن ينقله نقلا مطابقاً للأصل ، بل يحمله قيمة رمزية ، وهو دائماً يهدف إلى اختراع الرمز . وبذلك يكون النقل الفنى تاما ، فينشأ شكل جديد ، شكل مجرد بعيد دائم البعد عن الشكل البشرى ، خاضع لقوانين من عالم آخر .

ماذا نعرف من أمر أولئك المبتكرين ، ومن أمر تلك الشعوب البدوية ؟ من كان هؤلاء النفر من الناس الذين قامت على أكتافهم هذه الحضارة العظيمة؟ لا زال تاريخهم أبعد من أن يكون معروفاً تمام المعرفة . لا توجد وثائق مكتوبة ، غير أن الحفائر الحديثة والحملات الجديدة ، تأتينا بآثار لفن نستطيع على ضوئه أن نعيد بناء الأركان المميزة لاحدى الحضارات ، وأن نتبين اتجاهها الفكرى .

إلى أى الأقطار ينتمى هؤلاء المبتكرون ؟ إن أثر الجنس فى إنتاجهم أمر غير موثوق به . لا شك أن هذه السهول المترامية لا يقطنها شعب واحد . غير أن ساكنيها سواء كانوا من الجنس الايرانى كالقيثيين أو من الجنس التركى المنغولى كالهان والمجيار والأتراك ، فهم قبل كل شئ بدو تطبعهم حياة مشتركة . هو فن واحد ، فن السهول ، الذى أظهرته لنا فى هذه المساحات كلها ، الآيات الفنية التى عثر عليها ابتداء من مقابر أقاصى منغوليا حتى السهل المنغارى . والمعتقد أن مركز هؤلاء الأقوام هو سفح جبل التاى **Mont Altai** . وكما أن الخزان إذا اشتد امتلاؤه فاض ماؤه ، كذلك نجد قبائل تنصرف مبتعدة عن المركز ، متجهة نحو السواحل ، ثم تصب فى الواحات الواقعة عند ساحل القارة . وأثر هذه التنقلات واضح فى تاريخ تلك الحضارات . فنجد أول ما نجد « الهجرة العظمى » التى تقلب أوربا ، وتؤدى إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وتساعد على تكوين مجموعة جنسية . ثم لا ينقضى قرن حتى تهز قبيلة جديدة أركان القارة الأوربية ، تتبعها قبائل أخرى : الأفار ، والبلغار ، والمجيار ، وأخيراً الأتراك . على حين يزدهر فى آسيا الصغرى حكم السلاجقة

وعاصمتهم قونية ، فيهدد جنكيز خان مرة أخرى شبه جزيرة أوربا . وفى عام ١٤٥٣ ينزل العثمانيون فى أدرنة ويجهزون على الامبراطورية البيزنطية الشائخة ، ويؤسسون الدولة العثمانية التى تسلط سيف تهديدها على أوربا مدى خمسة قرون ، وتصل عن طريق الامبراطورية أوربا بآسيا . وفى الشرق الأقصى تحاول الصين عبثاً أن تقى نفسها شر غزوات البدو فتبنى « السور العظيم » . ولكنه لا يثبت لغزاة فى مثل هذه القوة . غير أن هؤلاء الغزاة سيكتبون للصين المغلوبة على أمرها صفحة من ألمع صفحات تاريخها . ففى عهد ينج المنغولى تعرف الصين مجداً سياسيا وفكريا لا مثيل له . أما الهند فتغزوها قبيلة أخرى من قبائل البدو ، وتجوز الهند تحت حكم عظماء المنغول آخر عهود ازدهارها ، قبل أن تستسلم لأيدى المستعمرين .

وما عدا هذه البيانات غير المباشرة ، وتلك الآثار الناجمة عن قوة نظن مركزها قائماً فى مكان ما من وسط القارة الكبرى ، فاننا لا نكاد نعرف شيئاً جليا عن أمر السكان أنفسهم . ولكننا نستطيع بما وصل إلينا أن نلاحظ صفة خاصة مميزة لهذه الشعوب ، وهى القدرة النادرة الرائعة على التنظيم . فحيثما اتصلت هذه القبائل بثقافات حضرية ، قامت بتكوين الجماعات البشرية وعملت على تركيزها وأنشأت الامبراطوريات العظيمة ، وابتدعت أنظمة سياسية واسعة المدى . أما تاريخها الخاص فلم يدون بعد . ولكن عندما أخذ حوالى سنة ١٩٢٥ فى تنظيم المعارض الأولى ، وقف الناس على فن لفت نظرهم بجماله كما لفت نظرهم بالفكرة الغريبة التى أوحته ، ووجدنا أنفسنا إزاء حضارة مختلفة كل الاختلاف ، وفى الوقت نفسه أمام فن هو نتيجة مباشرة للوضع الاجتماعى ؛ وقلما يظهر التداخل والتفاعل بين الثقافة الروحية والنظام الاجتماعى ، على مثل هذه الصورة الخالصة . والاتصال بينهما قوى إلى درجة أن كليهما لا تكاد تقوم له قائمة إلا لخدمة الآخر . فالانسان وحياته اليومية خاضعان خضوعاً كليا للتضاريس الجغرافية ولجو المناطق التى يعيش فيها . فهو عرضة لقوى العناصر . وإزاء هذا الفضاء الشاسع الذى يحيط به ، وأمام هذه المسافات القابضة القاسية التى يجوبها باحثاً عن الكلأ وساعياً وراء الغنيمة ، يدرك الانسان فى كل لحظة مدى ضعفه .

وإن الايمان بالنفس والشعور بالثقة لا يجدان إلى قلبه سبيلا ، وقد حاقت

به أخطار واقعية وأخطار وهمية أشد هولا ، كما يجدان سبيلهما إلى قلوب الذين يعيشون فى المناطق السمحة الصالحة . والآلهة التى يتصورها تبعث إليه الرعب ، وهو لا يدرك فى الوقت نفسه كنهها ؛ هى قوة تتبدى فى كائنات غريبة خطيرة ؛ فهى تكمن فى ثمرة شجرة تحجب الموت ، وهى تقطن فى حية تنساب فى سكون ، أو فى هذا الحيوان أو ذاك من الحيوانات التى لا تدرك طباعها لغرابتها . لا ترى الآلهة ، بل تنم عنها قوة خفية ، وهى تهدأ وتسكن بوساطة الطقوس السحرية . فى ذلك العالم المعمور بالأرواح يدرك الانسان ضعفه ؛ فالحيوان نفسه أعلى منه ، بل عليه يعتمد الانسان . فأغنامه تمده بضرورات الحياة ، وحصانه ليس رفيقاً أميناً له فحسب ، بل هو رفيق لا غنى له عنه ، وهو أشد حاجة إليه منه إلى الانسان الذى يقل شأنه فى هذا الصراع المستمر . وإذا لم نجد للانسان دوراً فى الدين وفى الفن – وهما أول ظاهرتين روحيتين للانسان وثيقتى الارتباط – فان ذلك نتيجة منطقية للحياة البدوية نفسها . فلا يتخذ الانسان شكلا فنيا أو عنصراً فنياً أى أن الفن البدوى ليس فناً مصوراً للانسان anthropomorphe وهو يناقض الفكرة الفنية التى أخذت بها ثقافات البيوت ، فلا يقتبس وحداته الفنية إلا عن الحيوان ؛ وهو يقابل فن « الثقافات الرفيعة » الذى يصور الطبيعة ويقلدها ، بالفن الحيوانى الرمزى الخاص بما ندعوه ثقافات بدائية ، أى ثقافات السهول .

وقبل أن ندرس الآثار الصحيحة الحقيقية لهذه الثقافة ، نحب أن نلقى نظرة على مدى تأثيرها فى الثقافات التى اتصلت بها .

لم يكن للشعوب البدوية بطبيعة الحال فن معمارى ، ولم يكن الفنان البدوى ليواجه مشكلة إقامة مسكن مستقر متين البنيان . كانت الحياة تضطره إلى الانتقال من مكان إلى آخر بخفة وبغير مشقة ، فكان لا يستطيع أن يحمل من الأمتعة ما يرهق وما يصعب نقله . كان رجال البادية يسكنون الخيام المصنوعة من البسط ، ويتخذون أثاثاً مصنوعاً هو أيضاً من البسط التى كانت أنعامهم تمدهم بما يلزمهم لصنعها . ولكن على مر العصور غزا أولئك الرحل الواحات ، ومن طبيعة الواحات أن تتوالى عليها الغزوات تلو الغزوات . وعندما استقر بهم المقام ، ظهرت حاجتهم إلى المعمار . ونحن نلحظ فى هذا المعمار الجديد الذى أنشأوه لأنفسهم ، مزاجاً كاملا من روح البداوة والفن الذى كان معروفاً حينئذاك

فى الواحات – ونعنى بالواحات وادى الجانج كما نعنى وادى الفرات أو وادى النيل – تنشأ فكرة معمارية جديدة . وإن ما نسميه المسجد العربى ليصور أتم تصوير هذا الاتجاه الفنى الجديد . فالمسجد الاسلامى فى القرون الأولى من التاريخ الهجرى ، سواء كان مسجد ابن طولون أو مسجد سيدى عقبة فى القيروان أو مسجد قرطبة ، يبدو لنا مؤسسة فراغية تختلف اختلافاً أساسياً عن كل ما نعرف من مساجد ، فعناصر البناء هى العناصر التى عثر عليها المعماريون من الغزاة فى الأماكن التى غزوها . ومن السهل أن نتبين فى آلاف الأعمدة التى شيدها المعمار الاسلامى الناشئ ، أعمدة ورءوس أعمدة يونانية أو بيزانطية ، ولكن هذه العناصر كلها قد صهرت فى معمار تتجسم فيه تلك الفكرة الفراغية الجديدة . ونستطيع أن نتبين هذا المعمار بشكل أوضح إذا قارناه بالفن المعمارى فى الحضارات الأخرى . فالقاعدة الأساسية فى كل بناء هى أن يقتطع من الفضاء الطلق جزء محدد الأبعاد ، وأن تحد أطرافه الخارجية بعناصر معمارية كالحيطان والسقوف وغيرها . على أساس هذه الفكرة تم بناء المعبد الفرعونى، والمعبد اليونانى، والقيسرية الرومانية والكنيسة المسيحية . فكل من هذه الأبنية ينتظم فراغاً محدوداً ، ويوجد توازناً بين العناصر التى تحد الفراغ وبين الفراغ أى الفضاء نفسه ، فلا بد من أن ينبعث من كل معمار قائم على هذا الأساس إحساس بالمغلق والمحدود . والفنان العربى وحده هو الذى أدرك فى المعمار إحساس غير المحدود . فالمعمار العربى ، مع أنه خاضع مثل أى معمار للقواعد البنائية عينها ، ومحاط فى خارجه بالحيطان والسقوف ، يترك فى النفس شعوراً بالفضاء الطليق ، ويوحى إليها باللانهاية . فهؤلاء القوم الذين ألفوا رؤية الأفق رحباً لا حدود له ، أدخلوا على معمارهم هذه الميزة العجيبة ، وجسموها بطريقة معجزة فى مساجدهم . إن هذه الأعمدة الكثيرة ، التى تتوالى جنباً إلى جنب مترامية فى كل الجهات ، غير مرتبطة بمركز بنائى ، والتى قد يضاف إليها غيرها حسب مشيئة أصحابها ، من غير أن تنهدم لذلك الفكرة الأساسية – إن هذه الأعمدة لتحتفظ للمعمار بخاصة من خصائص الفضاء الطلق . فالمسجد العربى يمتد كسماط أفقى مترامى الأطراف ، ويفقد العمود كل أهميته إذا نظر إليه كوحدة منفردة ؛ فلا يقام وزن إلا لتلك الصفوف من الأعمدة المرتفعة التى تنتصب على مدى البصر . ولا يغمر المرء هذا الاحساس بالغبطة والخفة ، إزاء أى معمار ، كما يغمره وهو فى

المسجد العربى . والصفة المميزة لهذا الفن الناشئ عن الروح البدوية هى انعدام التوجيه فيه ؛ إذتجد أشكالا متوالية يتشبث بعضها ببعض بطريقة غير واضحة ، حتى ليصعب علينا أن ندرك كيف أن هذه الأشكال تقوى على حمل المسجد كله . لا أثر هناك لقانون النقل . والفضاء يبدو غير متناه فى أبعاده ، عرضاً وارتفاعاً وعمقاً . وإذا استطاع الفنان أن يعبر بالأشكال المعمارية عن آلامه وعن أحزانه ، وعن حاجته إلى الواقع المحسوس ، فهو أيضاً يستطيع أن يعبر عن حاجته إلى اللانهاية وعن انطلاق نفسه إلى ما بعد الطبيعة .

وللمرة الثانية يطبع فن الثقافة الحضرية بالروح البدوية ؛ فمن السهل أن نتبين أوجه الشبه بين خيمة البدوى وبين شكل « الضريح » ، ذلك البرج المشيد فوق مقابر الاسلام ، تعلوه قبة أو يعلوه هرم . فالخيمة قد نقلت أو « ترجمت » إلى مادة ثابتة من التى يتداولها أهل الحضر ، هى مادة الآجر ، وأما جوهر الأمر ، أى الفكرة المعمارية ، فيرجع الفضل فيها إلى البدو . وذلك هو الشأن فى العناصر الزخرفية نفسها . فالشرافة التى تمتد فى حرف الحائط عند اتصاله بالسقف ، لها أصل طرزى ، فهى تنقل هدب البساط إلى عنصر زخرفى معمارى. والكسوة الفاخرة الخزفية ذات الألوان العديدة ، التى تغطى الحيطان والقباب فى المساجد والقصور العربية ، هى بلا شك أثر من آثار البسط المزخرفة المألوفة فى المسكن البدوى القديم ، أى الخيمة . وفى مقدورنا أن نجد آثار الابتكار الفنى البدوى فى ميادين غير التى ذكرناها . ويحدثنا المقريزى عن بساط رائع كان يزين قصر كسرى عندما استولى العرب على اكستيسيفون . هذا البساط ، على مايذكر المقريزى ، كان يصور «مفاتن روضة» ؛ فكنت ترى عليه أحواضاً وجداول ماء ، ورياضاً مزهرة ، وطيوراً عديدة الألوان . ومن غريب الأمر أن هذا الوصف الذى وصفه المؤرخ لهذا البساط الذى سماه « ربيع كسرى» يذكرنا بالطراز المعروف اليوم «بطراز الحديقة» ؛ ففى الوسط حوض ذو شكل هندسى منتظم ، تنبثق من جوانبه — أربعة جوانب عادة — جداول ماء يسبح فيها الطير والبط ، وباقى الطراز تنتثر فيه الشجيرات والأزهار . وها هم أولاء البدو قد انتقلوا إلى حياة الحضر يبتكرون لوناً فنيا جديداً ؛ إذ يخلقون من شئ كانوا يستخدمونه فى حياتهم اليومية ، أثراً فنيا ، يورثونه الحضارة الانسانية بعدهم .

فمن بساط البدوى نشأ البساط العجمى الفخم . ومن وراء العناصر الزخرفية كالعجيزات والأزهار والحيوانات ، نستطيع أن نتبين «ربيع كسرى » . ويلذ لنا أن ندرك أن فى «طراز الحديقة» هذا استطاع البدوى أن يسجل حبه وحنينه إلى الصحراء ، و إلى أعز الأشياء التى كان يطلبها فيها : الماء والنبات . وكان رؤساء القبائل البدوية وقد استقروا فى قصورهم الفخمة ، يستعيدون بما يحيط بهم من فاخر الأشياء ، ذكرى عاداتهم القديمة وحياتهم الماضية . فالطراز يصور أيضاً إلى جانب الحيوانات حياة القنص ، فنرى فرساناً قد انحنوا على سروجهم يتعقبون وحشاً . ذلك أن القنص بعد أن كان أهم شاغل للبدوى ، أصبح فى حياة الحضر وسيلة من وسائل التسلية الراقية ، ثم استقر آخر الأمر فى الفن كعنصر زخرفى . وأكثر الرسوم انتشاراً هو الذى يصور صراع الحيوانات ، ونجده فى القرون الأولى من الفن الاسلامى . ويحتمل كثيراً أن يكون هذا الرسم عند البدوى رسما دينيا ذا قيمة سحرية ، أو بمعنى آخر كان « طوطم » القبيلة . ولكن عندما أخذت المعتقدات القديمة تضعف وتختفى بظهور الدين الجديد ، استمرت تلك الرسوم على أنها مجرد عناصر زخرفية . وهكذا نجد أن الفن البدوى عند اتصاله « بالثقافات الرفيعة » ، لم ينفخ فيها روحاً جديداً فحسب ، بل أدخل عليها ميوله البدوية .

ولكن ما هو الفن البدوى فى صورته النقية ، وفى حالته الاصلية ؟ ربما خيب هذا الفن أملنا ، لأننا نشأنا مشبعين بروح الثقافات الرفيعة؛فهو لم ينتج منحوتات أثرية ، ولم ينشئ لوحات بها رسومات ذات طابع مسرحى مؤثر أو طابع شعرى ، تعبر عن درجات الاحساس البشرى كلها. فكل ما كشفت الحفائر عنه أشياء بسيطة المظهر ، تتصل اتصالا وثيقاً بحياة الفارس ؛ والجزء الأكبر منها خاص بعدة الحصان : من ركابات ومهاميز وحجب العين وأبازيم النُّطُق ، وصفائح معدنية ودبابيس وغيرها . وقد نجد أحياناً من آثار هذا الفن آنية جميلة ، أقداحاً كان القوم يرتوون بها فى الفترات القصيرة التى كانوا يلقون فيها عصا الترحال .

أما المواد التى استخدموها فهى التى عثروا عليها وفيرة فى أماكن حلولهم ، أى المعادن ، والذهب منها بوجه خاص ، والفضة والنحاس ثم التوج (البرنز) فيما بعد . فعنهم تلقت الحضارات التالية فنون التعدين ، ونحن لهم مدينون بكل

هذه الصناعات المعدنية الدقيقة؛ فقد بلغوا الغاية فى ممارسة المعادن كما بلغوها فى الطراز .

ويحتوى متحف فينا على ثمان وعشرين قطعة من آنية وجرار وأقداح من الذهب الخالص ، آتية كلها من نفس الحفرة ، فى السهل المنغارى المعروف بناجى - شنت - ميكلوس Nagy-Szent-Miklos ، وقد أطلق هذا الاسم فى الأدب على ذلك الكنز . وسمى لجماله وروعته « كنز أتيلا » . وقد حير أمره العلماء زمناً طويلا ، وبعث من جديد أسطورة الكنوز الطائلة التى كان يمتلكها آل نيبلجن Nibelungen . لم يستطع علم الآثار الوصول إلى تحديد عصره ،فكان أن نسب ، كما جرت العادة ، إلى العصر الكلاسيكى المضمحل ، وبخاصة أن واحدة من الجرار كانت تحمل رسم طائر ضخم ، أشبه بنسر مزخرف ، قابض بمخالبه على كائن بشرى . وليس من الصعب أن نرى فى هذا الرسم قصة جانيميد Ganymède ساقى الآلهة ، وقد اختطفه جوبتر النسر Jupiter-Aigle . ومع ذلك فقد ظلت نسبة الكنز إلى ذلك العصر موضع الشك؛ غير أن أشياء أخرى، مصنوع أكثرها من الذهب والفضة ، وتتميز بالأسلوب نفسه ، كشف عنها شيئاً فشيئاً فى تلك المنطقة الشاسعة التى تمتد من السهل المنغارى حتى مصب المنغو Hoangho . وأخيراً رفع الستار عن معنى هذا المنظر الغريب ، وبعد أن كان يظن أنه يمثل خطف جانيميد — من غير أن يفهم لماذا صور جانيميد فى صورة امرأة — اتضح أنه يمثل الأسطورة البوذية : أسطورة جارودا Garuda طائر فشنو Vichnou المقدس حاملا بين براثنه الحية الالهية ناجا Naga . وتصور الأشياء الأخرى التى عثر عليها فى هذه المناطق أكثر ما تصور مناظر الحياة الحيوانية ، أو حيوانات مفردة ، وبوجه خاص الحمير الوحشية ، والتيوس البرية والحيوانات المفترسة . وعرفت آخر الأمر حقيقة كنز أتيلا ، وقد دلت المادة التى صنع منها على مصدره ، وهو عبارة عن مناجم الذهب الواقعة عند جبل ألتاى Mont Altai . وكان هذا الكنز ملك أحد زعماء البدو ، حمله معه خلال الهجرات العديدة التى تراست على القارة الأوربية . وقد وجدت كنوز أخرى متشابهة ، فى شرق أوربا ، وبلغاريا ، وسيبريا ، والقوقاز ، وبلاد فارس ؛ كانت منثورة على طول الطريق التى عبرها البدو متنقلين آمنين من أقاصى الأرض . والفكرة هى هى والأسلوب هو هو نلمسهما فى هذه الأشياء كما لمسناهما فى غيرها

والمادة التى استعملت هى المعدن أيضاً ، والأشياء نفسها أجزاء من عدة الفارس ؛ غير أن ما هو أهم أن العنصر الزخرفى الرئيسى ، إن لم يكن الوحيد ، هو الحيوان .

والواقع أننا إزاء فن حيوانى نجد فيه الحيوان مفرداً أو ضمن مجموعة ، نراه متحركا منطلقاً فى عنف وشدة ، أو نراه جامداً على نمط مقدس تقليدى . وقد نشاهد أحياناً يطارده فارس أو يهاجمه وحش أشد منه . ولكن الفنان لا يختار لرسومه غير الحيوان ، فيجسم فيه أحلامه ، ويعبر بوساطته عن مخاوفه وآماله ، والحيوان يمثل الآلهة ، وهو الجد الأول للقبيلة ، هو الروح الأعظم . وعلى هذه الأشياء المزخرفة يظهر الحيوان مقطعاً بشكل غريب ؛ فتلغى بعض أجزاء جسمه ، فى حين تضاعف أجزاء أخرى . مثال ذلك أننا نرى مرسوماً على قدح عثر عليه فى الدانوب ، ويرجح أن يكون مصدره سيتيا Scythe ، غزالا ذا ثمانى أرجل ، على حين تعددت قرونه واستدارت حول الحرف الأعلى كله من القدح ، مكونة عنصراً زخرفيا . ربما كان المقصود رسما رمزيا لا ندرك معناه . وفى أشياء أخرى نجد مجموعة من رءوس الطير يعلو بعضها بعضاً ، مكونة نصاب خنجر اكتشف فى القوقاز وفى سيبريا . وهناك فأس مصدرها الصين ، مصنوعة من اليشم كانت تستخدم فى الطقوس الدينية ، صيغت على شكل تنين ، وفى هذه هذه الحالة لا يمكننا أن نشك فى المعنى الدينى لصورة الحيوان ؛ إذ أننا أمام شئ كان يستخدم لأغراض دينية . وكثيراً ما يكون الشكل مبسطاً إلى أبعد حدود التبسيط ، غير أن الناحية الجوهرية فى طباع الحيوان قد أبرزت فى صورة يدهشنا منها قوة التعبير مع الاعتدال وعدم التكلف . لا يمكن أن يكون القصد من هذه الرسوم مجرد الزخرفة ؛ لأن هذه الحيوانات كلها محملة بقوة كامنة خفية . لا شك أن أولئك الفنانين المجهولين ، على وفرة عددهم ، يدركون تمام الادراك فن الزخرفة ورسم الأطياف وتوازن الكتل ، ولكن لا شك أيضاً أن فنهم هو قبل شئ فن دينى ، شأنه فى ذلك شأن كل فن . وإن ما يبدو مجرد زخرف لعين الغربى المثقف الملحد ، هو فى الحقيقة جزء من المعتقدات الطوطمية السحرية التى كان يأخذ بها رجال تلك القبائل من فرسان ورعاة . وفكرة الفن للفن فكرة حديثة ، إن دلت على شئ فعلى اضمحلال الفن . وفى الحضارة البدوية ، تلك الحضارة التى كانت على حالة عنيفة من التطور الروحى ، كان كل مظهر

من مظاهر الحياة ، مهما بلغ من البساطة ، يتصل اتصالا وثيقا بفكرة دينية . فالفكرة الدينية تحكم وتوجه كل حركة من حركات الحياة وكل فعل من أفعالها . وقد لاحظنا مثلا أن أهم مايتميز به الفن البدوى هو رفضه تمثيل الانسان. وهذا الرفض توارثته كل الأديان التى نبعت من مناطق تأصلت فيها الروح البدوية . فلا وجود للانسان كموضوع فنى ، كما أن فى الوصايا العشر وصية تحرم تمثيل الله . فقد أخذ الحيوان مكان الانسان فى مجال الفن بصفة تكاد تكون مطلقة .

ويمتاز الفنان البدوى بصفات لا يعرفها فنان « الثقافات الرفيعة » ، تكشف عن نفسية دقيقة . وهذه الصفات تتصل بموقف الفنان من المادة التى يصطنعها ، وبالتوتر الموجود بين المبتكر والشئ المبتكر . ونلاحظ أن الفنان البدوى لايحاول أن يفرض إرادته أوقانونه الانسانى على المادة التى يستخدمها بل هو على النقيض يحاول فى غاية من التواضع أن يزيح الستار عن روح المادة ، وعن القانون الكامن فى هذه المادة بطبيعتها . فهو يطلق هذه القوى الكامنة ويعمل على إبراز هذه القوانين الخفية . فيظل الخشب بعد صنعه خشباً ، أو يصبح أكثر خشباً مما كان . ويجسم التوج (البرنز) روح التوج نفسه ، ويحتفظ الصخر بكل الصفات التى تجعله صخراً . وهذه النزعة فى الفنان البدوى تختلف اختلافا كليا عن نزعة الفنان الغربى . ونذكر مثالا لزيادة إيضاح ذلك ؛ فآنية الزجاج الفاخرة المصنوعة من البلور الصخرى ، والمعروفة « بآنية الفاطميين » مشغولة بحيث ان قانون البلور ، أو بمعنى آخر قاعدة التبلور تصبح هى الشكل الفنى نفسه . فالفنان يسبغ على أثره شكلا منشوريا دقيق الهندسة إلى أبعد حدود الدقة ، على قسط من الجمال المجرد البالغ غاية الكمال . وقد أنشأ الفن أثره خاضعاً للقانون الكامن أصلا فى البلور ،على حين أن الفنان الغربى يعتد بمقدرته ، فيخضع البلور لذوقه هو ولقانونه هو ، ويفرض عليه الأشكال التى تمر بمخيلته . فهو يغتصب المادة ، حتى لنراه ينقش الحيوانات والأزهار والأكاليل على البلور الملوث تماماً كأنما هو ينقشها على الخشب أو الصخر أو المعدن . إن الثنائية بين «الأنا» والعالم المحيط بى ، تلك الثنائية التى هى من خصائص كل الحضارات العظمى ، والتى ستصبح الموضوع الرئيسى فى كل ميادين الفكر ، لم يكن البدوى ليعرفها . فهو والطبيعة « كل » واحد ،

وهو منها جزء يسير تافه القدر . إنه ينتسب « للكل » ، ولذا ينعدم كل توتر وضغط فى فنه ، وهو بذلك منسجم مع عالمه كل الانسجام ، و إن خضع له فبمحض رغبته ، دون ما ثورة أو تمرد ، و يمثل فنه أتم تمثيل هذه الحالة من الانبساط والاكتمال .

ولا يعرف الفنان البدوى أيضاً تلك الثنائية الأخرى ، الموجودة فى الغرب بين الزخرف والشئ المزخرف . ففى الفن الغربى يوجد الشئ المزخرف قبل أن يزخرف ، ثم تضاف إليه الحلية ، حتى إنه لمن السهل انتزاع تلك الأزهار ، والأغصان، والأكاليل ، عن هذه الصناديق ، والمنسوجات ، والأوانى . ليس فى الفن البدوى شئ من ذلك على الاطلاق ، فالزخرف ينشأ أثناء النسج ، والخيوط العديدة الألوان التى تكون الطراز تكون فى الوقت نفسه زخرفة ، وهذه الخيوط لا تحل ولا تفصل عن المنسوج . كذلك الشأن فى المعمار ؛ فالفنان الغربى يشيد البناء أولا ، ثم يمضى فى زخرفته ، على حين أن المعمارى البدوى إذا تحضر ، يغير ويبدل فى وضع طبقات الآجر ، فهى مرة فى وضع طولى وأخرى فى وضع عرضى أو فى وضع منحرف ؛ حتى لينشأ الزخرف ويأخذ فى الظهور كلما تكون البنيان وظهر شيئاً فشيئاً ، فيصبح جزءاً لا ينفصل عنه .

وهكذا تظهر فى كل أثر فنى تلك النزعة الفكرية التى تميز البدوى . ليس للفردية فيها من أثر ، ولا يخضع البدوى للقوانين البشرية ، بل للقوانين الأزلية الثابتة التى يحاول أن يبرزها للعيان . إن فنه يتجاوز نطاق الزمان ؛ لذلك لا نجد لفن السهول ، أى فن البدو ، نمواً فنيا . ولما كانت العلاقة بين الكائنات لم تتغير على مر الأجيال ، ففنه أيضاً لم يتغير . فهو ما فتئ يصور الحيوانات نفسها التى يرى أطيافها شاردة على بعد . ومن البحر الأسود حتى بحر الصين ، على طول هذه المسافات المترامية التى يجوبها البدو ، قد وقف الزمان سيره . وتحيط بهؤلاء البدو حضارات ثلاث عظمية : الصينية والفارسية واليونانية . ولكن ما من واحدة من تلك النزعات الفنية الجمالية البالغة حد الكمال ، أثرت فى أولئك البدائيين أو طغت عليهم ، بل على النقيض ، كان أولئك البرابرة هم الذين زودوا أو جددوا أكثر من مرة الفكرة الجمالية عند الشعوب الراقية .

ربما أنكرت العين التى تعودت رؤية آثار الثقافات الرفيعة لأول وهلة ، هذه الأشياء ذات المظهر البسيط المعتدل ؛ إذ لا تجد تلك النزعة الانسانية أو ذلك

الميل إلى البشر، الذى ألفته . غير أن بصيرة أكثر نفاذاً وأقوى حساسية لابد
أن تدرك هذه الصفة القوية التى يتميز بها كل فن صحيح أصيل . وحينئذ ترى
فنا ليس له أسلوبه الجمالى فحسب بل له أيضاً أسطورته بكل معنى الكلمة .

ونظن أن دراسة الفن البدوى لا يمكن أن تنتهى من غير أن نذكر أولئك
الذين كانوا أول من أدركوا خطورة هذا الفن وشرحوا قيمته الروحية ، أولئك
الذين كانوا بوجه خاص أول من بينوا تأثر كل من الثقافتين بالأخرى : الثقافة
الرفيعة ، ثقافة البيوت ، والثقافة المنعوتة بالبدائية ، وأطلعونا على الدور المختلف
الذى لعبه كل من هذين المظهرين الفكريين فى تطور الفن. ونذكر فى أول الأمر
سترزيجوسكى Strzygovski وتلميذه هيرتويك جلوك Herenrich Glück ،
اللذين تعقبا بادراكهما الواسع أسباب الصلة وأسباب الاستقلال فى هذين المظهرين
الثقافيين . وكانت دراستهما كلها تكاد تكون مقصورة على البحث عن
العلاقات بين هذين النظامين الاجتماعيين الروحيين .

وعلم الآثار مشغول الآن بمراجعة نظرياته ومقاييسه ، وقد فقدت « الثقافات
الرفيعة » جزءاً من الثقة بها . فهى أشبه بالاسفنجات الضخمة ، تمتص القوى
المبتكرة التى تأتيها من جوف القارة Hinterland . ويشبهها جلوك بأزهار جميلة
يانعة تراها العين من بعيد ، ولكن جذعها وجذورها فى أرض نائية شاسعة ،
تستمد الأزهار منها ماء الحياة . وأى عالم ذاك الذى يستطيع أن يفهم تكوين
جسم حى إذا لم يصل إلى معرفة جذوره والأرض التى نبتت فيها ! وهكذا تقوم
تلك الأشياء القليلة النادرة التى أنقذت بما يشبه المعجزة ، شاهدة على تلك
الثقافة الثانية الخلاقة ، التى أنجبت حضاراتنا العظمى .

هيلدبرانت زالوشر

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم

معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء

عندما أرسلت كلمتى على « معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفاء » فى عدد يناير من مجلة « الأديب » البيروتية كنت أنتظر أن تثير هذه الكلمة بعض الشؤون فى البيئات التى تعنى بتاريخ الفكر عند العرب ، وأن يتحمس لفكرتها بعض الاختصاصيين فى مثل هذا الموضوع ، فيعالجها بما تقتضيه الدراسة الموزونة والرصانة العلمية . وكنت على شبه يقين من أن هذه الكلمة تروق كثيرين من أصحاب التجديد فى أساليب البحث والتنقيب ، الساعين إلى الحق الصراح ، وأنها قد لا تعجب نفراً آخر ؛ لأن البينات التى سقتها بحاجة إلى القطعية والحتمية ، وتقوم على افتراضات ، إن جاز لها أن تخط أمامنا أفقاً أُنفاً ، فهى لا تعرض لهذا الأفق بالتفصيل والتبيين . فكان أن أوجزت مجلة « الكاتب المصرى » فى عدد يناير ١٩٤٧ ملخص البحث ، ثم نشرت فى عدد أبريل رداً للأديب محمد كامل حسين حاول فيه أن ينفى عن إخوان الصفاء الهوى الوثنى ، وأن يبين أن الافتراضات التى سقتها فى البحث «مغالطات جريئة » ، وأن النصوص قد عدلت وحرفت بحيث أصبحت مطاوعة للفكرة التى أهدف إليها . ووقف من الفكر التى استندت إليها ، لفتح هذه الثغرة فى معقل إخوان الصفاء ، موقفاً سلبيا ، أدى إلى الرجوع بدراستهم إلى نقطة الابتداء . وقد كان بودى ، مع احترامى لمجلة « الكاتب المصرى » التى يشرف عليها عميد الأدب العربى ، أن يذيع حضرة الأستاذ رده ، حسب أصول المناظرات العلمية ، فى مجلة « الأديب » نفسها ، فيقف عليه من اطلع على المقالة ، ولمس أسلوبها الافتراضى ، وتبين دقائق فقراتها ، بحيث ينتهى من مطالعة الكلمة والرد إلى نتيجة يرضى عنها استنتاجه الخاص . ولكنه آثر أن يقرأ الرد من لم يقف على البحث ، وأن يقف على البحث من لم يطلع على الرد ، فأضاع على كثيرين متعة الموازنة . فى رأيى أن ما ذكره

حضرة الكاتب ، وإن كان ترديداً للمألوف عن الاخوان ، لا يزال إلى الآن يلخص النظرية الشائعة فى البيئات التاريخية ، وهو بحاجة إلى إعادة نظر وبحث وغربلة . ولقد جاء فى المقدمة الممتعة التى مهد بها الدكتور طه حسين للرسائل منذ عشرين عاماً ، أن هذه الرسائل تتطلب مطالعة دقيقة ، وعيوناً تقرأ ما بين السطور ، وأذهاناً تهتدى إلى الحقائق الخفية . والواقع أن أمرها غريب عجيب ؛ لأنك واجد فيها ماتشاء من المذاهب الدينية والفكرية ، وواجد فيها أثراً لجميع المتفلسفين والمدارس التى عرفت فى الحضارتين اليونانية — البيزنطية والعربية . وبوسعك أن تقرأ فى تضاعيفها ماتشاء من النصوص التى تؤيد إيمانهم القويم ، وعقيدتهم الثابتة بالأصول ، وأن تتبين فيها أنهم روحانيون ، لا يعنون إلا بخلاص نفوسهم ، وإعداد العدة اللازمة لبلوغ مراتب الملائكة ، كما تتبين إلى جانب كل هذا سعيهم الحثيث نحو غاية سياسية معينة ، تقوم على قلب الحكومة الحاضرة ، وتأسيس حكومة جديدة فى أمة أخرى . وبوسعك أن تقول عنهم إنهم علويون ، وباطنيون ، وإسماعيليون ، ومعتزلة ، وفيثاغوريون ، وأفلوطينيون ؛ لأن لكل هذه النزعات أثراً بارزاً فى الرسائل ، ولأن هذا الخليط يتجاور فيها على غير وفاق ، ويترادف على غير اتساق . وهم فى الواقع ليسوا شيئاً معيناً ، بل هم كل شئ . تعاليمهم كقوس قزح من حيث تعدد الألوان . فيها ماتشاء من أقوال الفيثاغوريين ، والأكاديميين ، والمشائين ، والاسكندريين ، والرسل ، والأنبياء ، وأصحاب الفرق من أتباعهم .

لهذا أرى أن الكاتب قد تجنى على « معالم الوثنية » عندما ألح أن نحكم على إخوان الصفاء من ظاهر كلامهم ، وأن يكون اعتمادنا على النصوص التى تؤيد عقيدتهم الشرعية ، لا على النصوص التى نستشف منها أثراً وثنيا . وقد فات حضرته أن موقف الاخوان فى رسائلهم من الرأى العام المسلم ، فى ذلك الحين ، موقف المجرم الذى يسعى جاهداً فى إثبات براءته ، وإخفاء معالم جريمته ، وأن موقفنا منهم موقف القاضى الذى يحاول بضروب من الاستنتاج اختراق الحجب للوصول إلى الحقيقة ، فيتبين من دفاع الماثل أمامه مايثبت إدانته . وهذا ما أشار إليه حضرته فى قوله « . . . فقد عمد إلى تلخيص أجزاء من النص ، هى التى تتفق مع القضية التى افترضها ، ودفع باقى النص الذى يدحض فروضه ويخالفها » . وهو أمر لا أنكره ، ولا تنكره

الدراسة العلمية ؛ لأنى لا أريد أن أقف الناس على رأى إخوان الصفاء الظاهر فى إخوان الصفاء المستترين . وإلا فما على هؤلاء الناس إلا أن يأخذوا الرسائل فيطالعوها ، وينتهوا إلى مايشاء حظهم من الاستنتاج .

لسنا أول من ذهب هذا المذهب فى إخوان الصفاء وإنما تبدو طلائعه عند بعض المؤرخين القدماء والمحدثين . وأمهات الكتب التى عنيت بتدوين مراحل الفكر عند العرب ، تشير إلى هذا التلون وهذا التمويه . فأبو حيان التوحيدى المتوفى حوالى سنة ٤٠٣ هـ. يقول عن رسائلهم فى « الإمتاع والمؤانسة » ، بعد أن اطلع عليها « . . . وفيها خرافات ، وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وقد غرق الصواب فيها ، لغلبة الخطأ عليها » بعد أن تبين أنهم « قد حشوها بالكلم الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق الموهمة » [1] . وهذا رأى ردده القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ. — ١٢٤٨ م. فى « أخبار الحكماء » [2] ، ولا يخالفه أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ. — ١١١١ م. فى قوله الوارد فى « المنقذ من الضلال » [3] . وفطن المستشرق ت. ج. ده بور إلى هذا التلون ، فذكر فى الباب الذى خصهم به رأيه فيهم ، قال : « . . . فنشأت جماعات سرية . . . وصار أعضاؤها يؤولون القرآن لخاصتهم تأويلا مجازيا . نعم كانوا يردون هذه الحكمة السرية إلى أنبياء ممن وردت أسماؤهم فى التوراة أو فى القرآن ، ولكن أصولها مأخوذة من مذاهب الفلاسفة الوثنيين . . . » [4]

ليس بودى أن أعود إلى نص كلمة الأديب محمد كامل حسين ، فأفند ماجاء فيها مخالفاً للواقع ، وأشير إلى النصوص المنثورة فى تضاعيف الرسائل التى تؤيد كل ما عرضته من بينات ، كسعى إخوان الصفاء فى فصل السلطة الدينية عن المدنية فى الخلافة الاسلامية ، واطرائهم المجوسية ، واحتذائهم

---

(١) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٣ وما بعدها — القاهرة ١٩٤٢ .

(٢) ص ٥٨ وما بعدها — القاهرة ١٣٢٦ هـ .

(٣) ص ١١٩ و١٢٠ — طبعة دمشق ١٩٣٤ .

(٤) ده بور « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ، ترجمة الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٩٥ — ٩٦ وقد زاد المعرب فى الهامش قوله : « ... قارئها يجد أنها تقم من كل مذهب ، وتمزج الدين بالفلسفة مزجاً غير سائغ . فالآيات والاحاديث تحشى بين العبارات الفلسفية حشواً ، ويستشهد بها فى غير موضعها » .

أساليب أحمد الكيال فى بث دعوتهم ، واحتفالهم بالأعياد الفصلية ، واعتقادهم بقدرة الانسان على الاتصال بالكواكب لتعديل الأحداث الكونية ، والقرابة التى تصلهم بالصابئة الحرانية ، وإنما أرى الاكتفاء ، لضيق المجال ، بالأمور الرئيسية ، فأعرضها مجدداً بما يزيدها وضوحاً أمام القارئ والناقد .

فصل الدين عن الدنيا

من مزاعم الكاتب أن المسلمين لم يسلموا جميعاً بأن الخليفة ينعم بالسلطتين الدينية والمدنية ، وأن « الفرق قد كثرت لخلافهم فى الخليفة » . والتاريخ الاسلامى الذى يتذرع به يشير إلى اختلاف الفرق فى أمر الامام ، وفى الشروط التى يجب أن تتوافر فيه . وليس هنالك فرقة إسلامية واحدة من الفرق الرئيسية تنكر عليه جمع السلطتين ، إلا إذا حاولنا الاعتماد على أقوال بعض الفرق الثنوية التى لا شأن لها . ويؤيد قولنا ماجاء فى الرسائل نفسها « اعلم أن الأمة كلها تقول إنه لابد من إمام يكون خليفة لنبيها فى أمته بعد وفاته ، وذلك لأسباب شتى وخصال عديدة . أحدها هو أن يحفظ الإمام الشريعة على الأمة ، ويحيى السنة فى الملة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتكون الأمة تصدر عن رأيه » (١) . وقد يفطن الكاتب إلى أن الأعمال التى خصها الاخوان ، فى هذا المقطع والذى يليه ، بالامام تعنى صراحة أن جميع المسلمين يؤمنون باجتماع السلطتين فى يد واحدة .

يقولون ذلك وهم يعتقدون « أن خصال النبوة والملك قد تجتمع فى شخص من البشر فى وقت من الزمان ، فيكون هو النبى المبعوث ، وهو الملك ، وربما تكون فى شخصين اثنين أحدهما النبى المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهم » (٢) .

ولعل صاحبنا يفطن أيضاً إلى المغزى البعيد الذى يرمى إليه الاخوان فى قولهم « فى وقت من الزمان » ، و « إن الله تعالى جمع لنبيه ، عليه الصلاة

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠ . — (٢) ج ٤ ص ٣٢ .

والسلام والتحية ، خصال الملك والنبوة جميعاً ، كما جمعها لداود وسليمان عليهما السلام ، وكذلك جمع أيضاً ليوسف الصديق عليه السلام »[١] . ونحن عارفون أن الاخوان لم يصرحوا فى نصوصهم الظاهرة بالحقيقة التى يضمرونها، ولم ينسقوا مباحثهم تنسيق العالم المعاصر ، من حيث المقدمات والعرض والنتائج إنما موهوا الحقائق تمويهاً . ولو أنعمنا النظر فى الصفحات القليلة التى بينوا فيها أسباب اختلاف العلماء فى الامامة لوضح لنا اعتقادهم أن الله إذا جمع النبوة والملك فى شخصية النبى ، كما جمعها من قبل فى سواه ، فلأن النبى العربى اكتملت فيه الخصال الكريمة الضرورية للنبوة والملك ، وأن هذه الخصال ضرورية أيضاً للامام الذى يليه فى منصبه « لأن الخلافة نوعان : خلافة النبوة ، وخلافة الملك »[٢] ولأن « فى بعض أخلاق الملوك مضادة لخصال النبوة ، وذلك أن الملك أمر دنيوى ، والنبوة أمر أخروى .. والدنيا والآخرة كأنهما ضدان ، وأكثر الملوك يكونون راغبين فى الدنيا ، حريصين عليها ، تاركين الآخرة ، ناسين لها »[٣] .

من هذا يتبين لنا :

١ — أن جميع المسلمين قالوا باجتماع السلطتين (كما ورد فى الرسائل) .
٢ — أن النبى كان نبيا وملكا لاكتماله بالخصال الضرورية .
٣ — أن هذه الخصال قد تكون فى شخصين اثنين : أحدهما النبى المبعوث إلى تلك الأمة ، والآخر المسلط عليهما ، وهذا مايحدث فى الخلفاء من بعد .
٤ — أن بعض أخلاق الخلفاء مضادة لخصال النبوة ، فيرون أنهم ، « يسيرون سيرة الجبابرة ، وينهون عن منكرات الأمور ، ويرتكبون هم منها كل محظور ، ويقتلون أولياء الله . . . ويشربون الخمر ، ويبادرون إلى الفجور الخ . . . »[٤] ولهذا فهم يحبذون فصل السلطتين .
٥ — أن الأخوان يدعون لنظام شبيه بالنظام الكروتونى الذى أثر عن

---

(١) الرسائل جزء ٤ صفحة ٣٣ .
(٢) ج ٤ ص ٣١ .
(٣) ج ٤ ص ٣٤ .
(٤) ج ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ .

فيثاغورس[١] وذلك عندما يبينون للناس أن النبى بعد أن يتوفى قد لا تجتمع خصاله فى فرد واحد ، بل تتفرق فى جماعة تآلفت ، واتفقت كلمتها على رأى واحد ، وتعاضدت على نصرة الدين ، لتدوم لها الدولة فى الدنيا ، والعقبى فى الآخرة[٢] ويحضون المريد على الانضمام إلى هذه الجماعة ، أى الجمعية ، إذا كان عازماً على طلب إصلاح الدين والدنيا .

أما ما أوردوه من إشارات إلى علويتهم ، وميلهم إلى آل البيت ، فليس فى الواقع إلا تقية و إخفاء للواقع . وقد سبقهم من ادعى ادعاءهم . وأحمد الكيال الذى أشرنا إليه فى المقال الرئيسى أوضح مثال على الجماعات التى كانت تتستر بالتشيع ، وتضمر فى نفسها غاية خاصة . وقد آثرت المجوسية الظهور بزى الشيعة لأسباب عديدة ، لا مجال لتفصيلها ، منها اعتقاد هذه بمجىء المهدى وزعم المجوس أن سوسين الذى ينتظرون خروجه ويصير الملك إليه ، يخرج على بقرة ذات قرون ، ومعه سبعون رجلا ، عليهم جلود الفهود ، لا يعرف هرًّا ولا برًّا، حتى يأخذ جميع الدنيا[٣] .

أما إذا شاء كاتب الرد أن ينفى عن الاخوان التأثر بالوثنية ، فارسية كانت أو حرانية أو يونانية ، بقوله إنهم من الباطنية ، فلسنا نرى مجالا يتسع لمناقشته فى أمر هذه الباطنية ، وقرابتها من الوثنية ، بل نكتفى بأن ننقل إليه رأى أحد المؤرخين المشهورين هو عبد القاهر البغدادى فى كتاب « الفرق بين الفرق » حيث يقول : « ذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية

---

(١) النظام الكروتونى هو الذى اعتنقه الفيثاغوريون فى المدرسة التى أسسها فيثاغورس فى مدينة كروتونا من أعمال إيطالية . وذلك انه أنشأ عام ٥٣٠ ق . م . جمعية فى دار هجرته تضم الأنصار والمؤيدين . ووضع لها أسساً عامة ، ونظماً داخلية ، وسن لحياة أعضائها العقلية والجسمية قوانين لا يمكن الخروج عليها أو تجاوزها . يؤمها الناس على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم . والجميع يتلقون التعاليم تدريجياً حسب استعدادهم . وقد أخذت هذه الجماعة ، فيما بعد ، بالانكماش على نفسها ، والتقية فى أقوالها ، والتستر فى أعمالها ، وبدأت تؤمن ان لا حياة لها إلا فى استيلائها على الحكم ، وتعديل النظم القائمة لنشر مبادئها . ومن هنا نشا الاختلاف بينها و بين السلطة فى المدينة ، مما أدى إلى القضاء على الجمعية ، واحراق مقرها ، والفتك بأعضائها . والامر الثابت أن إخوان الصفاء كانوا يرمون إلى مثل هذه الغاية .

(٢) راجع الرسائل ج ٤ ص ١٧٩ .

(٣) الجاحظ كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٧٧ .

كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره ، فوضعوا للأغمار منهم أساساً من قبلها منهم صار فى الباطن إلى تفضيل دين المجوس . وتأولوا آيات القرآن ، وسنن النبى عليه السلام ، على موافقة أساسهم » (١) .

أثر الكواكب والسيارات

من الآراء الطاغية فى الرسائل مذهب الاخوان فى الكواكب والأفلاك ، وأثرها فى « عالم الكون والفساد » . يوردون فصولا متعددة ، وشذرات متفرقة فى رسائلهم ، يؤيدون بها هذا الأثر ويفصلونه ، ويبينون أن كل ما يحدث فى العالم الأرضى ليس إلا بتأثيرها ومفعولها . ولا يفوتهم أحياناً القول ، على سبيل التمويه والتقية ، إن الله هو الذى قدر مصير الكليات والجزئيات ، فى حين أن رأيهم الحقيقى جلى يستشفه كل قارئ فى أغلب الرسائل . فهم يعتقدون أن هذه الكواكب كانت السبب المباشر فى التكون الطبيعى ، وظهور المادة والصورة ، وتشكيلها بالهيئات الجمادية والنباتية والحيوانية والانسانية ، وظهور الفردية فى الأنواع ، وهى بالاضافة إلى كل ذلك سبب مايصيب الأجسام فوق سطح الأرض من علل وأمراض واضطراب فى تناسقها العضوى ، وهى مصدر الخلق الطيب والسيئ ، وباعث الحياة والموت . وهى دلائل بينة فى السماء ، يستنتج منها الراسخون فى العلم مصير الكائنات ، وأسرار الانقلابات ؛ ليس لأنها إشارات خفية ترسمها العلة الأولى فى السماء ، بل لأنها العلة المباشرة لكل ما يتكون وينحل ويفسد . وفى رأيهم أن الأشخاص الفلكية أحياء ناطقون ، وهم ملائكة الله ، وملوك أفلاكه ، وسكان سمواته . وقد عرفوا ذلك — كما يقولون — بعد النظر فى العلوم الالهية وأحكامها(٢) . ويزيدون قائلين : « فعلم النجوم وأدلتها صحيحة وحق . وهى الأشخاص الفلكية التى نصبها البارى تعالى وأجراها مجاريها ، وإن كان المنجمون يخطئون فى بعض استدلالاتهم

---

(١) ص ١٧٤ — مصر ١٩٢٤ .
(٢) ج ٤ ص ٣٧ .

أو فى أكثرها ، فلا تبطل صناعة علم النجوم من أجل ذلك ، وهو علم جعله الله تعالى معجزة لأدريس النبى »[١] .

ليس لإدريسهم أية صلة بادريس النبى الذى اقتصر النص القرآنى على القول عنه : « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً عليا »[٢] فتواروا كعادتهم وراءه ، وأضمروا هرمس المعروف بالمثلث النعم الذى عاش — كما تقول الأساطير — قبل الطوفان ، وهو من يشير إليه ابن أبى أصيبعة « بأنه الذى تذكر الحرانية نبوته ، وتذكر الفرس أن جده كيومرث ، أى آدم ، ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ ، وهو بالعربية إدريس » . ثم يزيد على ذلك « أنه أول من تكلم فى الأشياء العلوية من الحركات النجومية ، وأن جده علمه ساعات الليل والنهار ، وهو أول من بنى الهياكل ، ومجد الله فيها ، وأول من نظر فى الطب وتكلم فيه ، وأنه ألف لأهل زمانه كتباً كثيرة ، بأشعار موزونة ، وقواف معلومة ، بلغة أهل زمانه ، فى معرفة الأشياء الأرضية والعلوية[٣] » . فهرمس هو هرمس فحسب . وأما مماثلته للنبى إدريس فليست إلا من الوثنية المتسترة ، ولا سيما الصابئة التى أطلقت على العلة الأولى اسم « الله » مجاراة للبيئة التى عاشت فيها ، وللظروف السياسية التى أحاطت بها . وعملية التماثل والتشابه بين الشخصيات الالهية القديمة ، عند مختلف الشعوب الوثنية ، أمر مشهور . كانوا إذا نزلوا بلداً من البلدان حملوا إليه آلهتهم ، وماثلوها بما هم واجدوه فى ديار الغربة . ولهذا لم نجد بين الوثنية الشرقية ، ولا سيما الفارسية والفينيقية ، وبين الوثنيتين اليونانية والرومانية تضارباً فى المذهب ، ولم نشهد تضال موت أو حياة ، و إنما هناك تداخل وتماثل ، وهناك آلهة تتخذ حيناً اسما شرقيا ، وأحياناً اسماً يونانيا أو لاتينيا ، فى حين أنها تحتفظ بميزاتها الرئيسية . والأمثلة على ما نقوله ميسورة فى كتب التاريخ المدرسية فلا نرى من الضرورى سوقها فى مثل هذه الكلمة . وقد شك المحققون فى القرابة التى تصل هرمس بادريس ، ونقلوها فى نصوصهم ، بعد أن أشاروا إلى ضعفها فقال الشهرستانى : « . . . ويقال هو إدريس النبى عليه السلام »[٤] وجاراه فى

---

(١) ج ٤ ص ٨٣ . — (٢) مريم ٥٦ — ٥٧ . — (٣) ابن أبى أصيبعة ج١ ص١٦ .
(٤) الملل والنحل على هامش الفصل ج ٢ ص ١١٢ .

الشك ابن خلدون ، فقال : « . . . وقد زعم الحكماء الأقدمون أيضاً أن إدريس هو هرمس المشهور بالأمامة فى الحكمة عندهم[١] » . ومن المعروف أن الوثنية ، على جميع أنواعها ، قابلة للتكيف والتعدل حسب المناخ الاجتماعى والسياسى ، وأن جماعة ، كاخوان الصفا ، ينثرون الآيات القرآنية شمالا ويميناً فى غير مواضعها لذر رماد فى عيون المؤمنين ، بوسعهم ، فى كثير من اليسر ، أن يقوموا بهذا التمويه الساذج .

نجد فى الرسائل ذكراً للأساليب المتبعة لنيل نعم الأشخاص الفلكية ، والدعاء لها ، وتخصيصاً للأثواب التى يجب أن تلبس ، والقرابين التى تقدم فى هياكلها . وكل هذا يذكرنا بالمأثور عن الصابئة الحرانية التى تعبدت للعلة الأولى ، ثم العقل الكلى ، وزحل ، والمشترى ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، وجعلت لكل منها هيكلا خاصا ، وشعائر خاصة .

نجتزئ بمثال واحد من عبادة الصابئة الحرانية للأشخاص الفلكية ، فنقف على أساليبهم فى التقرب إلى الشمس وخصائصها ، كما جاءت فى أمهات الكتب التاريخية . فمن المعلوم أن الهيكل الخاص بعبادة الشمس مربع الشكل ، مذهب اللون ، دهنت جدرانه بالأصفر ، وستوره من الحرير الأصفر المذهب . وفى وسط الهيكل مقعد فوق ست درجات ، وعليه صنم من ذهب مقلد بالجوهر ومتوج بتاج الملك ، وتحته على كل درجة أصنام تتحلق حوله ، مختلفة فى مادتها ، ما بين خشب وحجر ومعدن مركب ، وأكثرها تماثيل ملوك ماتوا فأبقوا لهم أمثلة يذكرون بها . إذا شاء الكاهن أن يدعو للشمس يتحلى بالتيجان ، ويرتدى الحلل الثمينة ، ويدخل الهيكل ، وبيده مجامر العود والند ، ويضحى له بما يشبهه من الحيوان ويقول : « مسبح أنت أيها النير الأعظم ، حارق النور والمحترق به . أنت الرب النورانى ذو الحياة النارية ، والنفس الكلية ، والنور الباهر . قدمنا إليك هذه الضحية المختارة الشبيهة بك ، فتقبلها منا ، وارزقنا من خيرك ، وأعذنا من شرك » .

ونحن واجدون فى الرسائل الطقوس والرموز نفسها ، دون زيادة أو نقصان . فالشمس مختصة بالملوك ، وبكل ما علا وارتفع قدره وعظم ذكره من النبات

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ١ ص ٥ — مصر ١٩٣٦ .

والمعادن . واللباس الخاص بها الديباج الأصفر ، وحليها الذهب الأحمر . ولكن ما لنا ولهذه الموازنة التى قد تطول فتستوعب بحثاً كاملا ، فما علينا إلا الرجوع إلى الجزء الرابع من الرسائل ، وأن نقرأ المادة الواردة بين الصفحة الستين بعد المائتين إلى الصفحة السبعين بعد المائتين ، وأن نقف على ما نثروه فى تضاعيف الرسائل الأخرى ، وأن نطالع ما عرف عن الصابئة وهيا كلها وعبادتها السيارات ، لنتأكد أن المنبع واحد ، إذا لم تكن الجماعتان فئة واحدة .

أما القول بأن التنجيم من الأمور التى ألفها الناس فى حضارة العرب ، كما أنها عرفت فى الحضارات القديمة ، ولا يزال بعض الناس يؤمنون بها ، فهو قول فاسد لأن التنجيم للتنبؤ بالحوادث المقبلة شئ ، والاتصال بالكواكب لاكتساب خيراتها ، ورد شرورها ، وتحويل نتائج الحوادث المقررة ، شئ آخر . وعلى كل فان الاسلام وجميع الديانات الموحدة قد ناهضت التنجيم كتنبؤ بالمستقبل ، وكتعديل لحوادثه . وليس فى القرآن آية واحدة تؤيده ، بل كل ما ورد فيه بيّن ، إن الله إنما جعل القمر والشمس لنعلم عدد السنين والحساب والكواكب زينة للسماء[1] . وقد قال المستشرق الايطالى المشهور نللينو : « يكاد المتكلمون والفقهاء والفلاسفة يجمعون على مناهضة التنجيم . أما الشاذون كالكندى ، وإخوان الصفاء ، وفخر الدين الرازى فهم نادرون »[2] . وهناك نصوص تثبت بجلاء أن التعليم الأفلاطونى المحدث ظل حيا فى مدينة الاسكندرية إلى أيام عمر بن عبد العزيز ، ثم انتقل إلى أنطاكية ، ومنها إلى مدينة حران[3] ، وهكذا انطفأت الشعلة الأفلاطونية فى كل مكان لتزهر فى المدينة الوثنية . وإذا بالمذهب الاسكندرى الذى ترعرع فى ظل الوثنية الاغريقية يلتجئ فى ساعاته الحرجة إلى أحضان الوثنية الحرانيـة . فهل كان التنجيم

---

(١) « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون » يونس ٥ « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ... » الصافات ٦،٧ « ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » الحجر ١٦،١٧ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية مادة Astrologie .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ١٠٥ ـ طبعة القاهرة ١٩٣٨ .

بمعناه السحرى ، أى العلم المحول والمعدل للأحداث العالمية ، من نتاج المدرسة الأفلاطونية المحدثة أخذته الصابئة كما اقتبسه الاخوان مباشرة عن مصدره الأول ؟

إن نظرة عجلى نلقيها على المجموعة الثانية من تاسوعات أفلوطين نفسه تبين لنا موقف مؤسس المذهب من هذا العلم . فهو يعتقد أن التنجيم يناقض كل المناقضة علم النجوم ، أو الهيئة ، لأن طلوع كوكب أو غروبه ، ونزوله فى الأبراج ، وانتقاله من منطقة فلكية إلى أخرى ، كل هذه الأمور تختلف باختلاف موقع الملاحظ أو المراقب الواقف على سطح الأرض . ويعتقد أن الأجسام العلوية ، منها السيارات ، هى كائنات تامة ، لا يطرأ عليها تعديل أو تحويل . وكل ما ينسب إليها من تبدل فى الخلق من لين وقسوة ، وحب وبغض ، لا حقيقة له . وهى تؤلف فى مجموعها جزءاً من الكائنات الخاضعة للنواميس التى تسير الكون بأجمعه . وأما القول بأنها تتأثر بالصلوات والدعوات والقرابين فذلك مما لا يسلم به . ويلاحظ هازئاً « إن حياة الكوكب لمزعجة حقا إذا كان عليها أن توجه جميع الكائنات فى العالم الأرضى ، وأن تحى فى النفوس الفضائل والرذائل ، وتوزع الثروات ، وتزرع العقبات والمصائب »(١) .

فمن الواضح إذاً أن إخوان الصفاء أخذوا هذا العلم مباشرة عن الصابئة الحرانية ، وليس من الأفلاطونية المحدثة . وذلك أن حران كانت المنبع الرئيسى لمثل هذه المباحث كما تقدم معنا . ومن الثابت أن الفيلسوفين اللذين اشتهرا بمجاراة الصابئة فى اعتقادها هذا ، أى الكندى والفارابى ، قد ترددا على حران، ووقف الأول منهما على كتبهم ، وأعجب بالآراء التى قالوا بها ، ورأى من المحتم على الفيلسوف أن يذهب مذهبهم . واتصل الفارابى بيوحنا بن حيلان فى حران ، وعاد منها بمذاهب جديدة تناسب الوثنية الحرانية ، فعرض مثلا لنظرية الفيض ، وتجاوز فيها الأسس التى وضعها أفلوطين ، وذهب فى سلسلة الروحانيات ، أو العقول المفارقة ، كما يسميها ، مذهباً لا نتبين له شبيهاً عند الاسكندريين ، بل عند الصابئين وحدهم .

---

(١) Plotin *Ennéades*, II pp. 33-34. Ed. Bréhier, Paris 1924

الأعياد الفلسفية

يوجهون الرسالة الخمسين التى يبدءونها بذكر الرسالة الجامعة إلى أحد الأعضاء – كما ورد فى مقدمتها – ليقرأها على من يخصه من الاخوان الكرام . ويطلقون عليها اسم « الفصل الجامع » ويأمرون الأخ السعيد ، بعد وقوفه عليها باتباع ما أمروه به ، لينال السعادة العظمى ديناً ودنيا . وفى رأينا أن هذه الرسالة من أكثر الرسائل دلالة على الغاية التى يهدف إليها الاخوان ، ومن النصوص التى يجب أن يتوقف عندها الدارس ، وينعم الناظر فى معانيها الظاهرة والباطنة .

يعرضون فى هذه الرسالة للعبادات ، فيقسمونها إلى نوعين : العبادة الشرعية الناموسية ، وهى اتباع صاحب الدين ، والانقياد لأوامره ونواهيه ؛ والعبادة الفسلفية الالهية ، وهى الاقرار بتوحيد الله . ولكنها فى الواقع – كما يقولون فى مقطع آخر من الرسالة نفسها – عبادة الفلاسفة القدماء ، والأجلة العلماء ، كانوا يأخذون بها أولادهم وتلاميذهم .

يحضون على القيام بالنوعين معاً ، ولا ينصحون بالتعرض للعبادة الثانية إلا من أتم الأولى وأتقنها ، ثم يأخذون فى بعض الشروح المتعلقة بالعبادة الفلسفية ، وهى شبه مدخل لها ، لعل قارئ الرسالة « يقوم بشئ منها »[1] وليس من الضرورى أن نعيد ما يذكرونه عن العبادة الشرعية ، لأنها لا تختلف فى شئ عن المألوف فى البيئة الاسلامية . وأما العبادة الفلسفية فتقوم على أن يكون لهم فى كل شهر من شهور السنة اليونانية ثلاثة أيام : يوم فى أوله ، ويوم فى وسطه ، ويوم فى آخره . وفى هذه الأيام الثلاثة يدعون بالدعاء الأفلاطونى ، والتوسل الادريسى ، والمناجاة الأرسططالية . ولا يزال المصلى كذلك حتى يبدو الفجر فيقوم فيسبغ الوضوء ، ويتطهر . و إذا أقبل أول النهار ذبح بيده من محلل الحيوان[2] .

ولهذه العبادة أربعة أعياد[3] . يوافق الأول يوم نزول الشمس برج

---

(١) ج ٤ ص ٣٠٢ . — (٢) ج ٤ ص ٣٠٣ .
(٣) يذكرون انها ثلاثة (ص٣٠٤) غير انه يتبين أنها أربعة فى مقطع آخر (ص٣٠٥) .

الحمل ، عندما يستوى الليل والنهار ، ويعتدل الزمان ، ويطيب الهواء ، وهو اليوم الموافق ابتداء فصل الربيع . ويكون الثانى عندما تنزل الشمس أول السرطان ،أى عندما يتناهى طول النهار وقصر الليل ، ويجئ الصيف ، ويشتد الحر. ويوافق الثالث استواء الليل والنهار ودخول الخريف ، والرابع عندما يتناهى طول الليل ، ويدخل الشتاء . ويرمز العيد الأول للفرح والخصب والخروج من الشدة ، والثانى للتعب والنصب ، والثالث للفرح الممزوج بالحزن والغم ، والرابع للحزن والكآبة .

ويرون أنهم أحق الناس بالعبادة الشرعية ، كما أنهم أحق الناس أيضاً بالعبادة الفلسفية الالهية ، والقيام بها ، والأخذ لها ، والتجديد لما دثر منها . وبعد أن يستعرضوا هذه الأعياد التى ينسبونها إلى الحكماء القدماء ، ويذكروا أنهم أحرى الناس بها ، يشيرون إلى أن لهم أربعة أيام يتخذون منها أعياداً ، ويأمرون الاخوان بالاجتماع فيها ، والسعى إليها . وما هى فى الواقع إلا الأعياد الفصلية التى أشرنا إليها ، يحتفلون بها فى أول الربيع والصيف والخريف والشتاء . وهى ترمز إلى أمور معينة شبيهة بها .

لسنا نجد متسعاً للوقوف على حقيقة هذه الأعياد الشهرية الثلاثية ، والفصلية الرباعية ، ولكن من مبادئ تاريخ الوثنية أنها كانت من تقاليد قدماء اليونان والرومان ، ومن بقايا الكلدانية والبابلية والأشورية والمصرية ، وما تشعب عن هذه من عقائد وطقوس فرعية ، توزعت فى الشعوب التى تأثرت بها . ولم تكن الأعياد الوثنية تعتبر مناسبات للسرور ، وإحياء الأفراح ، والتمتع بلذائذ الحياة فحسب ، كما هى العادة الجارية فى بعض الديانات الموحدة ، وإنما تختلف طبيعتها ، كما نجد فى الصابئة وإخوان الصفا ، باختلاف الاله الذى تقام من أجله . فهناك أعياد فرح ، يبتهج فيها الشعب على اختلاف طبقاته . وهناك أعياد حزن وكآبة ، تقوم فيها جموع المؤمنين بضروب من الشعائر التى تعبر عن مدى أساهم .

والأعياد الفصلية التى يشير إليها الاخوان ، بل هم يتقيدون بها،وإن موهوا أمرها على المريدين ، نجدها بأجلى وضوح فى الديانات الشرقية القديمة ، كما نتبينها فى الوثنيتين الاغريقية والرومانية . وهى مناسبة مؤاتية للاحتفال بما يطرأ على الطبيعة من تعديل وتطور فى أوائل الفصول . فعيد الشمس مثلا

فى الخامس والعشرين من ديسمبر وهو اليوم الأول من السنة الجديدة أو يوم « الشمس الجديدة » *Sol Novus* وعيد الربيع فى ٢٥ مارس ، وهو يدل على تغلب الشمس على الليل ، ويمثل فى نظر الوثنية الرومانية عيد فرح ؛ لأن البحارة يبدءون فيه بمجابهة البحر ، بعد أن تهدأ العواصف . وكان القرنان الثالث والرابع المسيحيان عهد ازدهار لهذه الأعياد الفصلية (١) .

وأما الأعياد الشهرية التى وقفنا عليها عند إخوان الصفاء فنحن واجدوها بحذافيرها فى الوثنية الشرقية القديمة ، وفى المذاهب الغربية التى تأثرت بها . وعرفت عهدئذ باسم « الأعياد الشهرية » . وكانت تقع فى أول الشهر ومنتصفه وآخره (٢) .

بعد هذه الاشارات الموجزة التى سقناها لا أعلم ألا يزال حضرة الكاتب على رأيه السابق من أن إخوان الصفاء لم يخرجوا عن التقاليد الحنيفية ، وأن كل هذه الأعياد لا أصل لها فى الواقع ، وإنما هى رموز يقصدون بها أعياداً شرعية ، وأن الدعاء الأفلاطونى ، والتوسل الادريسى ، والمناجاة الأرسطالية رموز أيضاً ، لأن هذه الشخصيات تمثل الأئمة ! وقد وردت هذه الأسماء فى تضاعيف الرسائل مئات المرات ، لتدل على المسمى الحقيقى . وأما هنا ، هنا فقط — فى رأى الناقد — فهى للدلالة على الأئمة من أهل البيت ، وذلك لأن أحدهم قال : « أنا أرسطاليس هذه الأمة » !

خلاصة

وخلاصة ما أريد قوله « أن معالم الوثنية » بادية فى الرسائل ، ولا سيما فى النقاط الآتية :

١ — مخالفة إخوان الصفا لعامة المسلمين فى فصل السياسة عن الدين ،

(١) *Dictionnaire des antiquités grecques et romaines*, t. II, p. 1062, Paris 1896.
Franz Cumont, *Les religions orientales dans le paganisme romain*, p. 90, Paris 1929.

(٢) E. Dhorme, *Les religions de Babylone et d'Assyrie*, pp. 234-235, Paris 1945.

وسعيهم لاقرار حكومة جمهورية يقومون هم على توجيهها ، وتسلم مقدراتها ، أسوة بالفيثاغورية الكرتونية .

٢ — ادعاؤهم بأنهم يستقون القسم الأوفر من تعاليمهم من هرمس ، وهو مشهور بأنه من آلهة الصابئة .

٣ — اشتهار الذين عرفوا بمساهمتهم فى الرسائل بالخروج عن المألوف[١] .

٤ — اعتقادهم بالتنجيم على الطريقة الوثنية الشرقية ، من حيث دلالة الكواكب على المستقبل ، والقيام بشعائرها الخاصة ، وتقديم القرابين لها ، لاستنزال خيراتها ، و إقصاء شرورها ، مما نجده مفصلا فى مذهب أهل حران .

٥ — احتفالهم بالأعياد الشهرية والفصلية ، وقيامهم بالدعاء الأفلاطونى والأرسطاطاليسى والفيثاغورى .

٦ — اشتهار الطبيب أبى الحكم القرطبى ناقل الرسائل إلى الأندلس بالسحر ، وهو من الذين نزلوا حران[٢] .

٧ — نسبة الفيلسوف اليونانى فيثاغورس إلى حران . وليس من الغريب أن يخطئ إخوان الصفاء فى أصله ، ولكن الغريب حقا هو زعمهم أنه حرانى المولد والنشأة . فلم اختاروا له هذه المدينة الوثنية ؟ فى رأينا أن الاخوان كانوا يعرفون الواقع ، ووقفوا على الفقرات المقتضبة التى وضعت فى ترجمة مشاهير علماء اليونان وفلاسفتهم و إنما تجاهلوا الحقيقة . ودليلنا أن ابن النديم ، وهو معاصر لهم ، أو جاء قبلهم بقليل ، أشار إلى فيثاغورس إشارة صريحة فى الفهرست[٣] .

---

(١) بين الذين أسهموا فى تدبيجها أبو احمد النهرجورى — ويقال فى بعض كتب التراجم « أحمد النهرجورى » — . وقد عرض ياقوت له ، فجاء فيما قاله فيه « ... وكان شيخاً قصيراً شديد الادمة ، متظاهراً بالالحاد ، غير مكاتم له ، ولم يتزوج قط ... » يا قوت معجم الادباء ج ٥ ص ٧٣ — ٧٩ مطبوعات دار المأمون — مصر .

(٢) جاء فى طبقات الأمم للقاضى صاعد ما يلى « ... ورحل إلى ديار المشرق . وانتهى منها إلى حران . . . ثم رجع واستوطن مدينة سرقسطة . . . وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا ، ولا أعرف أحداً أدخلها الأندلس قبله (طبعة الآب شيخو ص ٧٠ — ٧١) .

(٣) قال ابن النديم « ان أول من تكلم فى الفلسفة بوثاغورس ، وهو بوثاغورس بن ميسارخس من أهل ساميا ... وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم ، وله رسائل تعرف بالذهبيات ، وانما سميت بهذا الاسم لان جالينوس كان يكتبها بالذهب إعظاما لها وإجلالا (ص ٣٤٢ — ٣٤٣ الطبعة المصرية ١٣٤٨ هـ) .

وذكر أصله اليونانى ، وأورد ما ينسب إليه من الكتب والرسائل . وقد استقى ابن النديم قوله من كتب شائعة فى عصره . فلم حرف إخوان الصفاء النصوص التى بين أيديهم ، ونسبوه إلى حران المدينة الوثنية دون غيرها ؟

لست أجزم أن إخوان الصفاء جماعة وثنية منظمة ، وهذا ما لم أقله فى الكلمة الأولى التى أذاعتها مجلة « الأديب » البيروتية بعنوان « معالم الوثنية فى رسائل إخوان الصفا » . ولكنى واثق كل الثقة أن مطالعة الرسائل بشئ من إنعام نظر وتحقيق ، قد تقفنا على أمور لا نفطن إليها الآن ولا تخطر لنا ببال ، وقد تجعلنا نعدل كثيراً من آرائنا فى الاخوان ، وننظر إليهم نظرة مغايرة لما هو مألوف ، بل قد تجلو أمامنا أفقاً جديداً فيما يتعلق بالأسس الظاهرة والخفية فى الفلسفة الاشراقية عامة ؛ لأن النظرية الشائعة فى كتب الباحثين من شرقيين ومستشرقين القائلة بأن العرب أخذوا عن اليونان وحدهم ، واقتصروا فى ثقافتهم على هذا المنبع ، هى نظرية بحاجة إلى إثبات ، ويجب أن نتدبرها بحكمة ، ونعيد التحقيق فى أصولها ؛ فالمفكرون فى حضارة العرب قبسوا من مدرسة الصابئة قسما وافراً من مذهبهم فيما وراء الطبيعة ، من فيض ، وانجذاب ، وأثر الكواكب السيارة ، كما أنهم أفادوا من العلوم التى رافقت هذا اللون من التفكير كالهيئة والتنجيم والحساب والجبر والهندسة[١] .

جبور عبد النور

---

(١) راجع بحثا لنا بعنوان « الصابئة وأثرها فى الفكر العربى » مجلة « الكتاب » عدد مايو ١٩٤٦ .

فى الأرض

فؤادك حتى آخر الليــل خافق ... أمن نكد الأيام أم أنت عاشــق

تقلب فى لوح السماء لواحظاً ... وفكرك فى لج الهواجس غارق

لعلك تستوحى السماء قصيدة ... وليس بها إلا النجـوم الطوارق

تلفت حواليــك الحياة تجد بها ... مشـاهد قد ماجت بهن المشارق

لدى الأرض ما يوحى إليك قصائداً ... ففيهـا خيالات وفيها حقائق

لديهـا أساطير درجن مـع النهى ... وما خلَّفته المعجزات الخوارق

لديها نجوم ناظرات ، بواسم ... نوافث فيك السحر والسحر رائق

لدى الأرض آهات تثير شجوننـا ... كأنْ بعث الآهات ثكلى ووامق

ويارب لحن يمـلأ النفس نشوة ... فتسـلس أحلام بها وسلائق

وفى الأرض صـدر بالكراهة جائش ... وفى الأرض قلب بالمحبـة خافق

ولا خير فى الدنيـا إذا لم تجد بها ... حبيبـاً تناغى أو خليـلا تصادق

أرى الناس مرضى فى ظلام نفوسهم ... ويعوزهم من خـالص الود شارق

تأكلت البغضاء صفو قـلوبهم ... فساءت طواياهم وعز الأصادق

سواسية غر الوجـوه وغـبرها ... إذا سن جمال النفس لم يك بارق

لدى الأرض أفراح بها الهم ينجلى ... وفيها من الآلام ما هـو خانق

وكم قاء فيها الدهر نذلا فراعها ... وكم أنجبت حرًّا طـوته المشانق

ويا رب كوخ بالسعادة عامر ... حواسـده فيها القصور الشواهق

وفى الأرض عرض يستباح حريمه ... فتشبع أهواء وتشقى خـلائق

وبعض من الخسران يحلو مع الهوى ... ورب نجـاح بغَّضته الطرائق

فبين الهوى والرأى للنفس موقف ... تنـازع فيه مسـتحث وعائق

إرادات عقـلى أم عواطف خافقى ... أشـائع إما أخطـأتنى الوثائق

ينهنه هـذا حين يأمر ضده ... فأيًّا أقـاويه وأيًّا أوافـق

على أننى أمضى وبالنفس ما بها لها رائد منها وناه وسائق
فلا عقل إلا والعواطف دونه ولا هى إلا وهو ند مرافق
ويندمج الندان طوراً فتمحى حدودهما فى المبتغى والفوارق
حياة لها أغراضها فى غموضها جلائلها دقت وجلت دقائق
تراءى لنا فيها نقائض جمة أتانا بهن المحكم المتناسق !
أتنصل ألوان الحياة ملالة إذا انكشفت أسرارها والمغالق ؟
نسيِّر مدفوعين نرجو ونتقى وكل بأحلام السعادة عالق
وبينا نرى فيها سويا طريقنا إذا هو مزور وفيه مزالق
على هذه الأخلاط قامت حياتنا تحمَّلها حتى تنوء العواتق

مطالب شعر ما جلوت سردتها لعلىَّ بعد اليوم فيهن ناطق

على الخطيب

من هنا وهناك

نشأة الصحافة الفرنسية فى مصر

إذا كانت الطباعة قد سبقت الصحافة بأوقات متفاوتة فى البلاد الأخرى ، فان مصر لم تعرف عنهما شيئاً قبل قدوم الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ ، حيث جاءها نابليون بونابرت بالاثنتين معاً .

كانت مصر ولاية عثمانية . وقد أنشئت أول مطبعة فى القسطنطينية سنة ١٧٢٨ . ولم يفكر واحد من الباشوات الذين تعاقبوا على حكم مصر فى إنشاء مطبعة أخرى فى القاهرة أو فى الاسكندرية . أما البكوات المماليك فلم يكن لديهم متسع من الوقت للبحث فى مثل هذا الموضوع ؛ فقد شغلوا بالمؤامرات التى كانوا يدبرونها لولاة الباب العالى ، كما كان أكبر قسط من تفكيرهم يرمى إلى دعم سلطانهم وابتزاز الأموال من التجار والفلاحين وبث الذعر والرعب بين الأهالى ، حتى ضج القوم من مظالمهم وارتفعت الشكوى من طغيانهم .

ولم يكن غرض نابليون بونابرت من فتحه لمصر حربيا فحسب ، بل أراد لحملته مدى أوسع وأثراً أبلغ ؛ فاستصحب معه طائفة من أشهر علماء عصره ، قاموا بالبحث والتنقيب فى أرجاء البلاد وعاونوه فى نواحى النشاط السياسى والاجتماعى والاقتصادى جميعاً . وكان هو حريصاً على أن ينشر الآراء ويذيع البحوث حتى يعرف رجال الحملة خاصة والفرنسيون عامة نتائج أعماله ومدى نجاحه . فأحضر معه لذلك الغرض مطبعة مزودة بالحروف العربية واللاتينية واليونانية .

ولم يمض ستون يوماً على نزول الحملة فى الأراضى المصرية حتى أصدر نابليون صحيفته الاخبارية السياسية *Courrier de l'Egypte* أى « بريد مصر » . وظهر العدد الأول منها فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٩٨ فى أربع صفحات تقارب قطع هذه المجلة . وكانت الجريدة تظهر مرة كل أربعة أيام فى الشهر الأول ، ثم تجاوزت هذه المدة وأصبح صدورها غير منتظم .

وقد وضعت للجريدة منذ نشأتها

سياسة محددة لم تبتعد عنها فى يوم من الأيام ؛ فهى لا تتعرض بالنقد لأعمال الحكومة الفرنسية بأى حال من الأحوال، وكان المحرر يخضع لاعتبارات كثيرة عند اختيار الأخبار ونشرها ، فمصير الجريدة حتما إلى أيدى الجنود والضباط الفرنسيين المقيمين بمصر وغيرها . وقواد الجيش لا يهتمون بشئ مثل اهتمامهم بالروح المعنوية القوية التى يجب أن تسود قوات الاحتلال ، ولا يسمحون بنشر أى خبر يمس تلك الناحية من قريب أو من بعيد .

وعلى ذلك كانت جريدة لوكورييه دائمة التفاؤل ، بعيدة كل البعد عن الأخبار المثيرة الداخلية منها والخارجية. ويغلب عليها الطابع العسكرى الذى يبث روح الشجاعة والاقدام فى الجنود والضباط. وهى تسرف فى وصف ساحات القتال ، وتحاول أن تثبت الكلمات الأخيرة لمن يموتون بين قصف المدافع وصليل السيوف . وتكثر من وصف الحفلات التى يحضرها نابليون بونابرت، وتتحدث باسهاب عن حركات المقاومة التى يقوم بها الأهالى فى مختلف البلاد. ولكنها كانت ترمى فى الأولى إلى مدح القائد العام ورجاله ، وتدعى فى الثانية أن الفلاحين يستقبلون الفرنسيين فى كل مكان بالفرح والابتهاج ؛ لأنهم يخلصونهم من عسف البدو الرحل وظلم المماليك .

وكانت النداءات والتنبيهات التى تصدر للأهالى تجمع بين الثناء على بونابرت والتهديد بالشدة والحزم . وكانت تترجم وتنشر فى الجريدة حتى يطلع عليها الجنود ، فيتخيلون مبلغ قوتهم ويتصورون مدى نجاحهم . مثل ذلك ماجاء فى أحد المنشورات من « أن نابليون قد منع القوات من إحراق مدينة القاهرة وسلبها ؛ لأنه حكيم ، وخير ورحيم بالمسلمين . فهو حامى الفقراء . ولولاه لما بقى أهل القاهرة على قيد الحياة » .

ومضى كليبر ومينو من بعد بونابرت على نفس الطريقة فى الدعاية بين الأهالى . وكان مينو خاصة يذكرها فى منشوراته بالمظالم التى عانوها وبالدماء التى سالت فى القاهرة وبولاق والمحلة الكبرى عندما استمعوا لأهل السوء ، ويهددهم آخر الأمر بالنار والحديد إذا ماسولت لهم أنفسهم العودة إلى مناوأة رجال الاحتلال . ويختم النداء بما يأتى : « سلام على من اتبع الهدى . . . والويل لمن ابتعد عن الصراط المستقيم . »

وكانت جريدة لوكورييه تعنى عناية خاصة بأخبار الرحلات والبحوث

التى كان يقوم بها العلماء الفرنسيون . وكانت تأتى بملخصات لتقاريرهم عن الأماكن التى زاروها وعن نواحى نشاطهم العلمى والفنى . . . ثم يزيد المحرر عليها مايخالج فؤاده من الأمل فى التقدم والرقى .

فالزراعة مثلا تبشر بالخير لارتفاع مناسيب النيل ونتيجة للتحسينات التى أدخلت على وسائل الرى . . . كما أن الرجاء كبير فى تحسن الصحة العامة فى البلاد ؛ لأن الأطباء الفرنسيين يبحثون كل يوم عن الداء ، ويصفون الدواء الناجع ، وينشرون فى كل مكان وسائل الوقاية من الأمراض المتوطنة . . . وجباية الأموال « الميرى » سوف يسودها العدل والانصاف ؛ لأن الحكومة قد وضعت لذلك قواعد ثابتة ستقوم بتطبيقها فى كل أنحاء البلاد وعلى كل الأفراد بلا استثناء . . . أما الأمن والحرية فالفرنسيون ما جاءوا مصر إلا للدعوة لها علميا بواسطة علمائهم ومشرعيهم ، وعمليا بواسطة جيش الشرق . وليس من المعقول أن يأتى رسل « الحرية والاخاء والمساواة » إلى مصر ويضعوا فيها قواعد لا تقوم على الحرية والاخاء والمساواة .

ولم تكن الجريدة تقتصر فى أنبائها على مصر ، بل كانت تحمل أيضاً الكثير من الأخبار الخارجية . فهى تسجل تنقلات الجيش الفرنسى فى الشرق وتأتى بأخباره تباعاً . وتنقل النص الكامل لدستور الجمهورية الفرنسية .. كما أنها تفرد مكاناً خاصا فى كل عدد لأنباء فرنسا ، وتنشر المكاتبات المتبادلة بين بونابرت وخلفائه وبين حكومة الادارة . وكانت تحرص على العناية بالتقارير التى كان يقدمها قائد جيش الشرق إلى تلك الحكومة. وكان للهيئة التشريعية الفرنسية مكان ممتاز فى لوكوربيه ؛ إذ كانت تهتم اهتماماً خاصا بأخبارها وتنشر مناقشاتها ، وتسهب إذا كان الأمر يتعلق بالحملة وأعمالها، وتسجل كلمات الثناء والتقدير التى كان يرسلها الأعضاء عابرة البحار لمواطنيهم فى مصر .

وكانت الجريدة تختار من أنباء أوربا مايلائم السياسة الدولية الفرنسية فى ذلك العصر ، مثل اهتمامها بالصراع بين إيرلندا و بريطانيا العظمى؛ فهى تنشر أخبار هذا النزاع فى بضعة أعداد متتالية تهاجم فيها بريطانيا هجوماً عنيفاً ، وتزعم أن الوزراء الانجليز قد أخفقوا فى سياستهم إزاء إيرلندا ، وأنهم كانوا ينتقمون من الارلنديين فيقتلون المجاهدين

منهم فى سبيـــل استقلال بلادهم .

أما فى الناحية الأدبية فقد حرصت لوكوريبه على ألا تثير شعور الحنين للوطن . فاهتمت ببعض الشعر الذى يمدح الجيش وقائده . ونشرت بعض القصائد التى تصف النيل والبـــلاد والآثار المصرية وصفاً يحببها إلى القلوب ويدنيها من الذوق الفرنسى . ولكن هذا الشعر كان يفتقر إلى الوحى الصادق والتعبير الصحيح ، فلاعجب إذا ظهرت هذه الناحية ضعيفة مبتذلة سقيمة .

وجاءت الجريدة أيضاً ببعض الاعلانات التى تهم قراءها ، مثـل الاعلان المنتظم عن المجلة الأدبيـة التى يصدرها المجمع العلمى المصرى ، وإعلانات أخرى عن بعض الحوانيت أو عن أشياء مفقودة أو عن حفـلات ساهرة وغيرها . . . ومع ذلك فقد ظل هذا البـاب ضيقاً وبقى عدد الاعلانات محدوداً طوال مدة ظهـور الصحيفة .

هذه بعض النواحى التى اهتمت بها الصحيفة الفرنسية الأخبـارية ، السياسية الأولى التى ظهرت فى مصر . ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر ، لكى نعطى صورة واضحة لها بقـــدر المستطاع . وكان يشرف على تحريرها تباعاً المواطن كوستاز Costaz ، ثم المواطن فورييه Fourier ، ثم المواطن الدكتور ديجنت Desgenettes ، وقد صدر منها ستة عشر ومائة عـدد يحمل الأخير تاريخ ٩ يونية سنة ١٨٠١ . وطبع الثلاثون عدداً الأولى فى مطبعة مارك أوريل Marc Aurel أما الأعداد الأخرى فقد قامت بطبعها المطبعة التى أحضرها نابليون . وكانت لغتها بسيطة يتخللها الكثير من الأخطاء المطبعيـة وبعض الغلطـات اللغوية . وقد لاقت رواجاً كبيراً بين المواطنين لأنها حملت لهم أخبار إخوانهم فى البلاد الأخرى وأنباء فرنسا موطنهم الأصلى .

وفى أول أكتوبر سنة ١٧٩٨ صدر العـدد الأول من *La Décade Egyptienne* أى « العشرية المصرية وهى أول مجلة فرنسية أدبية علميـــة اقتصادية تظهر فى مصر . وقد تقرر إنشاؤها فى أول اجتماع للمعهد العلمى المصرى حتى تكون سجلا له تنشر فيه بحوث علمائه وتقارير أعضـــائه .

وقد جمعت الأعداد التسعـة الأولى التى ظهرت بانتظام مرة كل عشرة أيام فى مجلد أهدى إلى نابليون وجاء فى مقدمته التى حررها المـواطن تاليان Tallien « أن الهدف الذى

نرمى إليه ليس تعريف مصر إلى الفرنسيين المقيمين فيها الآن فحسب ، بل نريد أيضاً أن نعرفها إلى فرنسا وإلى الأوربيين جميعاً » . ثم ظهرت « لاديكاد » بعد ذلك مرة كل شهر ، وكونت الأعداد التسعة التالية كتاباً أهدى إلى الجنرال كليبر . ثم شاءت الأقدار أن يهدى المجلد الثالث والأخير منها إلى الجنرال مينو .

وليس فى نيتنا أن نحصر هنا كل المواضيع التى عالجها العلماء الفرنسيون ونشرتها « لاديكاد » . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن هذه المجلة قد سجلت النواحى العديدة لنشاط الفكر الفرنسى فى مصر ، ونقلت الكثير من التقارير بحيث أصبحت شبه موسوعة صغيرة نجد فيها التاريخ والجغرافيا والآداب والاقتصاد السياسى والعلوم الطبيعية والزراعية والطبية وغير ذلك من مختلف البحوث .

وقد حمل كل عدد من « لاديكاد » ملخصاً لمحضر جلسات المجمع والمناقشات التى تدور فيها . ومما يلفت النظر أنه قلما وجد عدد خلا من تقرير طبى لأحد أطباء الجيش الفرنسى . ومن طريف ما كان يقرأ فيها هذه الملاحظات التى أتى بها الطبيب سيرزول Céresole فى تقريره عن رحلة قام بها من القاهرة إلى أسيوط . قال : « إن خوف الفلاحين من الأطباء شديد للغاية . وهم يميلون إلى الخرافات ولا يصدقون كلمة العلم . أما اعتقادهم بالقضاء والقدر فقد بلغ حد التعصب . وأظن أن ذلك ناتج عن الآراء والأفكار التى ورثوها عن قدماء المصريين . . . وإنى ليدهشنى أن أرى مقابر الأموات وقد اعتنى بها عناية فائقة على حين بقيت منازل الأحياء مهدمة قذرة لا تتوافر فيها أبسط الشروط الطبية . . . » وكانت هذه التقارير ترفع إلى الدكتور ديجنت كبير أطباء الجيش الذى يرجع إليه الفضل فى نشرها وإذاعتها .

وإذا أردنا أن نختار بعض الأمثلة للبحوث الأخرى التى كانت تنشر فى « لاديكاد » وجدنا صعوبة فى التفضيل بينها لما يحمل كل منها من المزايا العلمية والفنية جميعاً . وعلى كل حال فان تخطيط بعض البلاد المصرية ومواقعها والحالة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية فيها قد شغل مكاناً كبيراً من المجلة . فتحدث نويه Nouet عن موقع القاهرة الجغرافى . وكتب جيرار Girard عن الزراعة والصناعة والتجارة فى دمياط ومصر العليا ، واهتم كارييه Carrié بمنطقة منوف . وبحث أندريوسى Andréossy فى تكوين

بحيرة المنزلة ووادى النطرون وحلل رنيو Regnault غرين النيل . ووصف فوريه Fourier الواحات . ودرس تاليان Tallien نظام الحكم فى مصر قبل الحملة ، وأبان طرق جباية الأموال الأميرية ، وتحدث عن النقود والميراث والأوقاف .

وقد كتب أسماء البلاد والأماكن فى هذه التقارير باللغتين الفرنسية والعربية . . . وكان للترجمة شأن ملحوظ فى « لاديكاد » ؛ إذ نقل المستشرق حنا يوسف مارسيل Jean Joseph Marcel فاتحة القرآن إلى الفرنسية شعراً . وكانت ترجمته صحيحة ما عدا بعض الألفاظ والعبارات التى اضطر إلى إضافتها لتكوين الشعر ، كما ترجم أمثال لقمان الحكيم وشرح قيمتها عند الشرقيين مستشهداً ببعض الآيات القرآنية مثل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » .

وخلاصة القول أنه يمكننا أن نعتبر مجلة «لاديكاد» سجلا قيما يرجع إليه الناس إذا أرادوا أن يطلعوا على مختلف الموضوعات الشائقة التى شغلت نخبة مختارة من العلماء الفرنسيين الذين أقاموا فى مصر من سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠١ .

وبانتهاء الحملة الفرنسية عادت مصر إلى خلوها من الطباعة والصحافة. ولكن لا يمكننا أن ننكر أثر « لوكوربيه » « ولاديكاد » فى تاريخ بلادنا . ومع أن المصريين كانوا يجهلون اللغة الفرنسية فى ذلك العصر ، فان انتشار هاتين الجريدتين بين العامة والخاصة من الفرنسيين ، قد لفت نظرهم إلى تلك القوة الجديدة التى يمكن الانتفاع بها للصالح العام .

ومع ذلك فقد ظلت مصر تفتقر إلى الطباعة والصحافة حتى جاءها بهما محمد على . ثم تطورت الصحافة من رسمية إلى شعبية فى عهد الخديو اسماعيل ، وتعددت لغاتها وتنوعت بحوثها وقوى ساعدها وسايرت مقومات الحضارة الحديثة .

اميل غالى

شهريات

شهرية السياسة الدولية

الدولار يستحوذ على التركة البريتانيــة

سادت الميدان الدولى خلال الشهر المنقضى مظاهر الامعان فى التــدخل الأميريــكى ، وكأن إخفاق مؤتمر موسكو قد دفع بالولايات المتحدة إلى التوغل فى سبيل وضع اليد فى كل مكان على التركة البريتانية حتى لا يستولى عليها الذين كانت تستثمرهم أو حتى لا تستهوى روسيا فتحل محلها مبادئ التوجيه الشيوعى . والشيوعية هى أخوف ما تخافه الطبقة الحاكمة فى الولايات المتحدة ، ونظام الشيوعية أعدى أعــداء الاحتكار . والطبقة الحاكمة الآن فى الولايات المتحدة إنما تستند إلى نظام من الرأسمالية هو أدنى الأنظمة إلى الاحتكار .

لقد لمس سادة أميريكا واقع انهيار انجلترا فى الميدان المالى ، وفى الميدان العسكرى ، فهرولوا إلى أن يستبدلوا سيطرة الدولار بسيطرة الاسترلينى ، والنفوذ الأميريكى بالنفوذ البريتانى ، وقد لمسوا مناقضة النظام الشيوعى لنظامهم الرأسمالى ، فوجهوا ذلك الاستبدال فى السيطرة وفى النفوذ إلى مناهضة الاتحاد السوفيتى بالالتجاء إلى إعادة محاصرته بمثل ما كان مطوقاً به من جبهات إثر الحرب العالمية الأولى . فسعوا حتى أقرت الهيئة البرلمانية الأميريكية تخويل رئيس الولايات المتحدة حق إقراض اليونان وتركيا ملايين من الدولارات ، لاعادة تنظيمهما وتسليحهما وضمان الدفاع عنهما ، وهما واقعتان إلى الجنوب الشرقى من أراضى الاتحاد السوفيتى . وهم يسعون لاحصاء حاجات السويد والنرويج والدنمرك لتقديم الأموال إليها وهى واقعة إلى الشمال الغربى من أراضى الاتحاد السوفيتى أيضاً . وهم فى سبيل مد إيتاليا بالمعونة المالية بعــد أن قدموها لفرنسا « ثمناً » أو محاولة لضمان إبعــاد الشيوعيين عن الحــكم فى البلدين ، وإيتاليا وفرنسا تتاخمان مع بلجيكا وهولندا بلاد النمسا ومناطق

ألمانيا الغربية التى تحتلها فرنسا وانجلترا وأميريكا كما تتاخم يوجوسلافيا ، فيتم بذلك التاخم تطويق الاتحاد السوفيتى والأمم الصقلبية جميعها من جهة الغرب بعد أن تم التطويق من ناحية الشمال الغربى والجنوب الغربى عن طريق معاونة الدول السكندينافية معاونة اليونان وتركيا .

والأنباء الأخيرة تسجل زيارة « قائد أسطول الولايات المتحدة فى شرق المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط » مدينة طهران واجتماعه فيها بشاه إيران ورئيس وزارته ووزير حربيته . و إيران مجاورة لتركيا ومتاخمة لروسيا من الجنوب . والجيوش الأميريكية لا تزال تحتل اليابان وتحكمها ، والولايات المتحدة قد حصلت على الوصاية على بعض الجزر فى المحيط الهادى ، وهى كذلك تحتل جانباً من كوريا وتوسع سلطانها فى الصين ، واليابان وكوريا والصين والمحيط الهادى واقعة كلها فى شرق الاتحاد السوفيتى . فلم يبق أمام إحكام التطويق الذى تسعى إليه أميريكا إلا ناحية أفغانستان والهند و إلا ناحية القطب الشمالى . وهى إلى الناحيتين جادة .

على أن الولايات المتحدة لا تريد أن تكتفى بهذا التطويق الشامل المحكم، بل تريد أن تعتبره خطا أول يجب أن تتبعه خطوط تسعى إلى أن تتعاون هى وانجلترا ودول أخرى على احتمال أعبائها من الناحية العسكرية ولا سيما من ناحية الجنوب . وقد قيل إنها تعتبر شمال البحر المتوسط أول خطوطها الاستراتيجية من جزر الدوديكانيز إلى جبل طارق ، كما تعتبر جنوب البحر ذاته ثانى هذه الخطوط من قناة السويس إلى طبرق ببرقة و إلى بنزرت فى تونس، ويتخلل الخطين جزر قبرص وكورفو ومالطة وصقلية ذاتها . ثم يأتى ثالث الخطوط فى قلب إفريقية من ساحل البحر الأحمر عند أرتريا إلى ساحل المحيط الأطلنطى عند الدار البيضاء ودكار ، ماراًّ بكنيا التى يقال إنها ستكون مقر القوات البريتانية وهيئة أركان حربها فى الشرق الأوسط كله . وبين أفغانستان والبحر المتوسط والبحر الأحمر تقع رقعة الزيت الكبرى فى عبدان الايرانية والموصل العراقية وظهران السعودية والجزيرة السورية اللبنانية وسيناء المصرية الفلسطينية .

وقد صدرت فى سبيل ذلك الاتجاه الاستراتيجى الجديد أقوال من مصادر عليمة ؛ فقد أذيع « أن بريتانيا تعد العدة لالقاء المسئولية العسكرية فى

البحر المتوسط والشرق الأوسط على عاتق الولايات المتحدة والتراجع باستحكاماتها الدفاعية الخاصة بالامبراطورية إلى شرق إفريقية» ، بل قدرت بعض المصادر المطلعة العسكرية التى تتصل اتصالا وثيقاً بوزارة الحربية البريتانية موعد سحب القواعد العسكرية والتموين البريتانية إلى شرق إفريقية من سنتين إلى ثلاث سنوات .

قضية فلسطين

تلك هى الظاهرة التى سادت أفق السياسة الدولية خلال الشهر المنقضى، ظاهرة الاقتناع الأميريكى بالانهيار البريتانى، والهرولة الأميريكية إلى وضع اليد على التراث البريتانى قبل أن يتسلمه أهله أو خوفاً من استيلاء الأنظمة الشيوعية على كيانه . ولعل قضية فلسطين التى شغلت الميدان الدولى خلال الشهر المنقضى ذاته تعتبر ناحية من نواحى تطبيق تلك الظاهرة المتجلية .

فقد عقدت الأمم المتحدة دورة استثنائية تنظر أثناءها جمعيتها العامة المطلب الذى تقدمت به بريتانيا ملتمسة تأليف لجنة دولية لفحص المشكلة الفلسطينية والتقدم بتوصياتها فى سبيل معالجتها . وكان المطلب البريتانى مستنداً إلى حرج موقف الادارة البريتانية فى الاقليم الذى كانت منتدبة عليه من قبل عصبة الأمم . وإنما يرجع هذا الحرج فى الموقف البريتانى إلى حملة الارهاب التى تشنها الهيئات المسلحة السرية من الجانب اليهودى ، وإلى حملة المطالبة باستقلال الاقليم من الجانب العربى ، ثم إلى الدعوة التى أعلنها الرئيس تروسان مطالباً بادخال مئة ألف مهاجر يهودى جديد إلى فلسطين، وإلى التأييد الذى تلقاه فى أميريكا حركة المناداة بجعل فلسطين كلها دولة يهودية ، وبخاصة إلى إحجام الولايات المتحدة فى الوقت ذاته عن تحمل تبعات الموقف من الناحيتين المادية والعسكرية فى فلسطين .

ورفع المشكلة إلى هيئة الأمم المتحدة من جانب بريتانيا مظهر من مظاهر الضعف فى السيطرة على الأمور داخل فلسطين ، وموقف الرئيس تروسان من استمرار الهجرة وتأييد الدولة اليهودية ، فيه معنى من

ـمانى الاحساس بذلك الضعف البريتانى وحث الأمور على أن تتهيأ لاحلال النفوذ الأميريكى محل النفوذ البريتانى فى هذه الأصقاع .

لكن للولايات المتحدة مصالح أخرى فى أكثر من بلد عربى مجاور لفلسطين ؛ فلها مصالحها الزيتية فى آبار العربية السعودية ، ولها مصالح نقل الزيت العربى السعودى إلى الساحل اللبنانى خلال الأراضى السورية ، ولها إلى جانب هذه المصالح الواقعية القائمة مشروعات اقتصادية تعدها فى العراق وفى مصر ، وهى تعلم علم اليقين قدر ارتباط الشعور القومى فى كل هذه البلاد العربية بالشعور القومى العربى فى فلسطين . وإذن فقد آثرت ألا يكون تدخلها فى القضية الفلسطينية ، وقد راحت بها انجلترا إلى الحظيرة الدولية ، بمثل السفور الذى يتجلى فى تدخلها فى شأن اليونان وشأن تركيا . فكانت خطتها ألا تكون هى عضواً من أعضاء لجنة التحقيق حتى لا تتحمل بطريق مباشر تبعات التوصيات التى قد لا ترضى العرب . فأيدت ألا تساهم الدول العظمى فى عضوية تلك اللجنة ، وتقدمت باقتراح حصر هذه العضوية فى دول محايدة لا هى من الدول العظمى ولا هى من الدول العربية .

وكذلك تبين خلال المواقف التى وقفتها دول أميريكا الجنوبية من المطالب والمقترحات العربية أن فعل الدعوة الأميريكية بل فعل التوجيه الأميريكى فيها كان عظيما ؛ فقد كان التضامن هو السائد إلى الآن علاقات الكتلتين اللاتينية فى جنوب أميريكا والعربية خلال مناقشات الأمم المتحدة وعند إبداء الرأى فى اجتماعاتها ، وكان بعض المتحمسين يرجعون ذلك التضامن البادى إلى أن عديدين من مئات الآلاف من أهل جمهوريات أميريكا الجنوبية ينحدرون من أصل سورى أو لبنانى ، لكن ظل التضامن قد تقلص أثناء النظر فى القضية الفلسطينية ؛ فقد كانت أصوات أميريكا الجنوبية متضامنة دائماً مع الولايات المتحدة ، سواء أكان ذلك عن طريق الادلاء بالصوت المعارض للموقف العربى مباشرة أم كان ذلك عن طريق الامتناع عن التصويت جملة .

صمت روسيا

لكن ظاهرة الشهر فى السياسة الدولية قد تجلت من الناحية الأمريكية. ويلوح أن انجلترا مضطرة لمسايرتها — وهى أشبه بالمفلس الذى يتلمس العون من دائنيه لعله يستطيع أن يستأنف عمله فى نطاق ضيق بدل أن يسقط إلى أعماق الهاوية — ويظهر أن الموقف منها غير مستقر فى البلاد التى ترمقها العين الأمريكية. فحكومة اليونان متقبلة العون الأمريكى فى لهفة، ولكن وسائل السلام الداخلى الذى تريد الولايات المتحدة أن تفرضها غير مستساغة لدى الحكومة اليونانية القائمة. والعون فى تركيا لم يقابل باللهفة اليونانية؛ لأن الأتراك فهموا ما وراءه من تدخل فى صميم الادارة التركية. وفى تركيا تحفز من ناحية أخرى على نظام الحزب الواحد أو نظام الحزب الأقوى على الأقل، وفيها اتجاهات يسارية تريد الحكومة أن تأخذها بالعنف الذى لا يساعد على الاستقرار شيئاً. وفرنسا التى انتهت أزمتها السياسية إلى إخراج الشيوعيين من مناصب الوزارة لاتزال فيها الشيوعية قوية، ولا يزال عدد الناخبين من الشيوعيين هو أكبر عدد لفئات الناخبين الموزعين على الهيئات والأحزاب السياسية جميعاً، ولا تزال الأزمة الوزارية فى إيتاليا غير مستطيعة الخروج من المأزق دون اشتراك الشيوعيين فى الوزارة الجديدة كما كانوا مشتركين فى الوزارة القديمة.

على أن فى تلك المواقف غير المستقرة شيئاً من التبين ولو على وجه العموم. لكن روسيا صامتة. وروسيا هى الطرف الثانى من طرفى الكيان الذى تريده أميريكا للعالم جميعاً. وصمتها يجعل النغمة المسموعة نغمة جانب واحد. وهى لا تكفى لتصوير الحقائق ولا تكفى لصحة الترقب.

وإذن فلنأخذ الشهر المنقضى فى ميدان السياسة الدولية على علاته. وقد سجلت فيه مظاهر أزمة عالمية دون ريب، لكن دون تحديد لمدى تطوراتها بعد.

محمود عزمى

شهرية المسرح

ركود

عطيل لشكسبير

وهذه المسرحية تعطينا صورة دقيقة لركود المسرح المصرى فى جميع نواحيه . فهى تصور ركود الاخراج كما تصور أيضاً ركود التمثيل . لقد أخرجت الفرقة القومية هذه المسرحية فى أول عهدها ، وها هى ذى تقدمها مرة ثانية بالاخراج نفسه ؛ مع أن هذا الاخراج يرجع إلى أكثر من عشر سنوات تطورت فيها شئون المسرح تطوراً يدعو إلى الدهش ؛ إذ جدت نظريات فى رسم المناظر وتركيبها . وقلما نجد فى فرنسا مثلا مسرحية تعاد دون أن يدخل عليها عدة ابتكارات فى المناظر والاضاءة والاخراج . لقد شهدنا فى مصر مسرحية « تارتيف » لموليير قدمتها فرقة جان مارشا فى أسلوب إخراجى جديد وقديم فى وقت واحد . فهو جديد لأنه مبتكر لم يألفه المسرح الحديث ، وقديم لأنه عود إلى مسرح موليير كما كان حينما مثلت هذه المسرحية لأول مرة . ولننظر إلى مسرحية «الناقم على الناس» *Le Misanthrope* لموليير . فهنا أيضاً إبتكار فى رسم المنظر وتركيبه على المسرح ، وابتكار أيضاً فى الاضاءة التى لم تكن من أعلى المسرح بل كانت من وراء أجزاء المنظر الشفافة . أما إذا نظرنا إلى إخراج مسرحية « عطيل » فلا نجد عدم الابتكار والتجديد فحسب ، بل نجد أيضاً أخطاء ما كان ينبغى أن تقع فيها الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى وخاصة بعد أن اضطلع بالدورين الرئيسيين اثنان من متزعمى حركة النهضة المسرحية فى مصر . ولا أشك فى أن هذه الهنات التى سأتكلم عنها لم تصدر عن نقص فى ثقافة المشرفين على إخراج هذه المسرحية ولا عن إهمال منهم، فلا يمكن أن يكون هؤلاء ذوى ثقافة محدودة أو من معتادى الاهمال فى عملهم . فهم يزعمون أنهم نخبة من رجال الفن فى مصر قد تلقوا أصوله على أئمة المسرح فى أوربا . وهذاالیقین يحيرنى قليلا فى نسبة هذه الهنات التافهة التى لا يقع فيها إنسان له دراية بعمله

وبفنه . فكلنا نعلم أن حوادث «عطيل» تجرى فى مدينة البندقية ، وأن لأبنيتها أسلوباً خاصا وطابعاً معروفاً ، ولكن شهدنا فى مصر الحوادث الأولى فى هذه المسرحية تجرى فى منظرين لايمتان بصلة إلى أسلوب البناء فى البندقية ، وهذان المنظران يستعمل أحدهما لـ « فلستاف » والآخر لـ « كارمن ».

وفى أحد المناظر التى تمثل ميناء رودس نرى الشاطئ غارقاً فى ظلمة حالكة ، لأن حوادث هذا المنظر تقع فى العاشرة مساء ، على حين نرى البحر مغموراً بضوء وهاج . هذا عدا الاضطراب الذى يقع فيه الكومبارس وهم على المسرح أو حين خروجهم منه.

ويصور لنا تمثيل هذه المسرحية أيضاً خمول ممثلينا وعدم اهتمامهم بالتجديد والابتكار فى أدائهم . لقد تلقى الأستاذ جورج أبيض بك أصول التمثيل عن سيلفان فى فرنسا . وهو منذ عاد إلى مصر لم يغير من أسلوبه شيئاً ؛ فهو يحافظ عليه كما تلقاه عن أستاذه غير مهتم بما جد فى فن الالقاء والتعبير . فنرى الآن الأستاذ جورج أبيض بك يؤدى أدواره فى أسلوب عتيق لا يناسب المسرح الحديث ، فهو يفخم بعض الكلمات ويتغنى بالبعض الآخر ويلجأ إلى الزئير فى تعبيراته لتمثيل بعض المواقف قد يكون الصمت أصلح لأدائها . غير أنه من المسلم به أن هذه المآخذ لا تنقص من قيمة الأستاذ جورج أبيض بك ، فقلما نجد بين ممثلينا وخاصة الناشئين منهم من يؤدى دوره بالأمانة التى يصطنعها هذا الممثل الفنان .

وقد قامت بدور ديدمونه السيدة أمينة رزق التى لم أرها فى دور من الأدوار إلا مغالية فى الصياح والعويل والبكاء ، فهى فى بكاء متصل ، تبكى حينما تكون حزينة وتبكى حينما تكون مرحة وتبكى أيضاً حينما تكون سعيدة . وقد أخرجت شخصية ديدمونه فصورتها كأنها فتاة كسيرة النفس حزينة الشعور . ولست أجد مايسوغ هذا الأداء إلا إخفاق السيدة أمينة رزق فى تنويع أدائها كلما تغيرت الشخصية التى تمثلها .

أما الأستاذ يوسف وهبى بك ، فلا يسعنى إلا الثناء على أدائه لدور ياجو ، هذا الأداء الأمين الذى يدل على فن رفيع وفهم دقيق لنفسية المنافق الدساس . غير أنى مع هذا الثناء آخذ على هذا الأداء المغالاة ، والاسراف فى الايماءات وفى التعبير أحياناً . ولأذكر على سبيل المثال هذا المنظر الذى قتل فيه عطيل

ياجو بخنجره فسقط ياجو (أى يوسف وهبى بك) على أربع مراحل . وهذا الأداء لم يعد مستساغاً فى المسرح الحديث .

الآن وقد دلت هذه المسرحية على ركود المسرح المصرى فى جميع نواحيه ، هل لنا أن نرجو من المشرفين على شئونه أن يوجهوا اهتمامهم إلى تجديد عناصره؟ فان المسرح المصرى لفى حاجة إلى عناصر جديدة نشيطة تتولى أموره بعد أن يتاح لها الاطلاع على الأساليب الحديثة المألوفة فى أوربا فى الاخراج والتمثيل ورسم المناظر والاضاءة وبعد أن تكون قد ألفت هذه الأساليب ، فتعود إلى مصر لتقضى على هذا الشئ البالى فى مسرحنا وتنشئ لنا مسرحاً حديثاً يلائم مكانة بلادنا الثقافية .

رشدى كامل

شهرية السينما

صورة ماريا كانديلاريا (مترو جلدوين ماير)

ما كادت تنقضى فترة الحرب القلقة المضطربة ، وما كاد يستقر السلام والطمأنينة حتى دب النشاط فى صناعة السينما فى جميع البلاد الراقية . وقد رأينا هذا النشاط حينما أقيم مهرجان كان للسينما فتزاحمت عليه البلاد جميعها ، ومنها أمم لم نكن نعلم أن لها فى هذه الصناعة نشاطاً . ومما يدعو إلى الدهش ان هذه الأمم الحديثة العهد بصناعة السينما قد ظفرت بنجاح كبير رغم قلة استعدادها فى هذا الميدان وافتقارها إلى الآلات الدقيقة التى تساعد على الانتاج الصحيح القيم . ومن هذه الأمم أذكر المكسيك التى تقدمت إلى المهرجان بفيلم «صورة ماريا كاندلاريا» فحازت به جائزة التصوير . والمكسيك لم تقتحم بانتاجها السينمائى أسواق العالم قبل الحرب ، وليست هى قديمة عهد بصناعة السينما ، ومع ذلك أظهرت فى هذا الفيلم عزيمة قوية على الانتاج الفنى المتقن ،حتى دلت على أن سيكون لها فى هذا الميدان مستقبل زاهر .

وقد عرض علينا هذا الفيلم فى الأسبوع الماضى فى حديقة سينما النصر ، فتمهدنا هذا التصوير البارع لا من الناحية الصناعية فحسب بل كذلك من الناحية الفنية . فهذا الفيلم بصوره يبتعد عن الأسلوب « الخاص بالالف » intimiste ويتجه بها نحو الطبيعة المجردة من كل حلية اصطناعية . وقد كان اختيار المناظر الطبيعية اختياراً موفقاً ، وزادت الاضاءة هذه المناظر جمالا ورونقاً .

وكنا نود أن تكون القصة أقل سذاجة وأكثر عمقاً . فالعنصر التأثيرى فيها تافه حتى إنه لم يؤثر فى الشاهدين مطلقاً . لقد قتلت ماريا كانديلاريا خطأ فى نهاية القصة . فهل يمكن أن تقوم المأساة على هذا القتل الذى لا مسوغ له ؟

ولست أعتقد أن للقصة أهمية كبرى فى هذا الفيلم . فهناك نواح

Portrait of Maria Candelaria *(M.G.M.)*

أخرى جديرة باهتمامنا . فهو يقدم لنا معلومات طريفة عن عادات أهل المكسيك ، وقد نجح التصوير فى تقديم هذه المعلومات فى أسلوب رائع جذاب . ولنذكر منها حفلة مباركة حيوانات القرية فى ساحة الكنيسة ، واحتشاد الزوارق فى النهر وقد زينتها الأزهار ، وغير ذلك من العادات والحفلات التى تميز كل شعب عن الآخر .

ولا أريد أن أختم الحديث عن « صورة ماريا كانديلاريا » دون أن أتكلم عن تمثيل دولوريس دلريو وأدائها الموفق لشخصية القروية النافرة ، فقد نجحت فى إسباغ إيماءاتها ونظراتها ومشيتها عارية القدمين تلك السذاجة التى تميز القرويات .وأنت إذ تشهدها تمثل تعتقد أنها لم تكن فى يوم من الأيام إلا قروية مكسيكية ساذجة .

رشدى كامل

من كتب الشرق والغرب

LA VIE QUOTIDIENNE EN EGYPTE
DU TEMPS DES RAMSES
ETIEMBLE

الحياة اليومية فى مصر فى أيام الرماسسة *

بينما ترى الأحقاد الوطنية أو الدينية مفسدة لأكثر كتب التاريخ ، تجد مصر القديمة وقد اكتمل تاريخها اكتمالا بآخر فراعنتها ، فلم يعد فيه ما يثير شيئاً من تلك العواطف القوية التى ما برحت تشوه فى أنظارنا صورة الحروب الصليبية أو صورة الثورات التى ما زلنا نعانى آثارها . فبقدر ما تكون كتابة التاريخ ممكنة يكون التاريخ الصحيح لمصر ممكناً . وإذا حاولت أن أسترجع صورة الحياة الفرعونية بالقياس إلى أولئك الذين لم يدرسوها مثلى إلا فى المدارس الثانوية ، رأيت كهانا بالغى القوة ، وعدة من عجول أبيس ، وأخرى من الجعارين ، ورأيت توت عنخ آمون وقبره الرائع ، والكاتب الجالس القرنصاء وشيخ البلد ، ورأيت طابوراً من الحشرات البشرية يجلد عند قاعدة الأهرام . ثم رأيت أيضاً طائفة من الرسوم الغريبة التى تقوم مقام الكتابة ، ورأيت الثعلب الذئب أنوبيس ، ومسلة الأقصر ، وكلمات عجيبة ، تسر الأطفال مثل كلمة nome وهو المقاطعة ، وكلمة pschent وهو لباس الرأس لدى قدماء المصريين . ويا لهم من قوم أمرهم عجب أولئك المصريين ! إنهم لم يعرفوا رسم المنظور ! ذلك فى رأيى ما يتخيله فرنسى فى الخامسة والعشرين أو فى الثلاثين عندما تكلمه عن خوفو أو رمسيس . فهو يحسب الحضارة المصرية حضارة جامدة ، حضارة كهنوتية . ذلك طابع كل تعليم يهدف إلى التبسيط ، فهو إذ يبسط

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى »

إنما يشوه . ويرجع هذا إلى أن الكتب التى كنا ندرسها منذ ربع قرن لم تكن تعتمد إلا على المعلومات التى وصل إليها العلماء حتى حوالى عام ١٩٠٠ على حين أن تاريخ مصر تاريخ حديث رغم قدم مصر ، تاريخ يتغير كل عشر سنوات .

وبمجرد وصولى إلى هذا البلد ، كشفت لى مصر عن جهلى وأخطائى ومعتقداتى الفاسدة . فما كدت أرى بعض الرسوم من جدران سقارة حتى أدركت أن هناك فنا مصرياً آخر غير ذلك الفن الجامد المنتظم . وقرأت « المسرح المصرى » للدكتور دريوتون فعلمت منه أن التمثيليات الدينية قد وجدت فى مصر قبل اليونان القديمة وأنها شملت كل أنواع التمثيليات الحرة : تمثيليات تاريخية ذات مشهد عظيم مثل « ميلاد هورس وتأليهه » ، وكوميديات صريحة مثل هزيمة أبوفيس وتمثيليات سياسية مثل عودة سيت وهى ذم لاحتلال الفرس . وبدا لى أن ما كان يحدث فى العصور الوسطى الفرنسية ، حين كانت التمثيليات الدينية تمثل فى الكنائس ، من قذف الجمهور ليهوذا بالحجارة ، كان يحدث مثله فى المعابد المصرية حيث تزدحم جماهير الشعب مظهرة غضبها على المحتل ، فأصبح المصريون يعيشون أمامى . وكان الدكتور دريوتون هو أيضاً الذى أظهر لنا عيد الخمر . فبينما يرتعد فرعون أمام هاتور وهو يقدم له جرة النبيذ ، إذا بجمهرة من الناس كانت تقواهم تدفعهم إلى الافراط فى الشراب بل تتطلبه ، وتدع نفسها لسكر النبيذ الذى يسعى بها إلى النجاة . ثم زرت معابد الصعيد والمقابر المحفورة تحت الصخور ، وقرأت كتاب الموتى ، وحفظت بضعة من أسماء الفراعنة ، وبضعة تواريخ وبضعة وقائع . وأدت بى دراسة قواعد اللغة المصرية الكلاسية[1] إلى عالم الكتاب ، وأخذت أقضى بكل سرور بعض الوقت ، من زمن لآخر ، فى استطلاع الحروف الهيروغليفية التى أنشأها شاسينا Chassinat لمطبعة المعهد الفرنسى بالقاهرة . ورغم ذلك فقد كان هناك شئ ينقصنى ، شئ مهم ، إذ تذكرت الفائدة التى جنيتها ، بالنسبة لثقافتى اللاتينية ، من

(١) E. Lefebvre, *Grammaire de l'Egyptien classique*, Le Caire

اكتشافى فيما بعد لبضع طرق عن المطبخ الرومانى كتبها أبيكيوس **Apicius** . وكان طعام الباقلا بمزيج الخيانة الزوجية سحر خيالى . وأى كتاب بالغا ما بلغ علمه فى تاريخ اللغة ، أو فى التاريخ أو فى الجغرافيا يستطيع أن يعرف الحضارة الفرنسية ، لوجهل وجود طعام حساء السمك المصنوع بالتوابل [١] لما أو اللحم المطهى بالنبيذ [٢] أو لو جهل الحياة المنزلية الفرنسية ؟

كانت إقامتى فى مصر قد أزالت عنى العبارات المحفوظة عن مصر الجامدة ، الهيراطيقيـة ، التى لا تعرف رسم المنظور . ولكن كيف كان يعيش أناس ذلك الزمن ؟ ماذا يأكلون ؟ ماذا يقولون لنسائهم حين يثيرنهم ؟ وطالما أسفت لعدم استطاعتى أن أرجع إلى كتاب شبيه بكتاب كاركوبينو عن الحياة اليومية فى روما [٣] ولم أكن الوحيد فى ذلك الأسف ، فقد كتب لى جان بولان **J. Paulhan** فى عام ١٩٤٦ يسألنى أن أدله على كتاب عن الحياة الخاصة فى مصر الفرعونية .

وعندئذ علمت أن بيير مونتيه **Pierre Montet** سيصدر عما قليل كتاباً « عن الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرماسسة » . وليس مونتيه أقل كفاءة أو توفيقاً من زملائه المصرولوجيين الفرنسيين . وكأن المعابد والمقابر تشاركه فيما يبحث عنه . ولقد ظهر أخيراً كتابه وحقق الآمال التى كان يؤملها أمثالى فى كثرة مايستفاد منه .

فالمسكن ، والزمن ، والعائلة ، والمشاغل المنزلية ، والحياة فى الريف ، والفنون والصناعات ، والأسفار ، والفرعون ، والحرب والعيش والكتاب والقضاة ، والنشاط الدينى فى المعابد ، والجنائز ، كل ذلك مدروس فى هذا الكتاب بالدقة التى يسمح بها ما لدينا اليوم من وثائق . ولما كانت الأخلاق والنظم والفنون والمعتقدات قد تطورت خلال آلاف السنين التى نمت فيهـا الحضارة الفرعونية ، فقد اختـار المؤلف حقبة ممتازة من التاريخ المصرى هى عهد الرماسسة الذى يميزه ثلاثة حلول عظام . ستوى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث . فالآثار الضخمة الرائعة ، والعديد من مقابر الملكات والملوك ، وأوراق البردى ،

---

(١) La bouillabaisse

(٢) La daube

(٣) *La vie quotidienne à Rome*, Paris, Hachette

والقصص ، ومجموعات الخطابات والمقالات والعقود والمحاضر ، ووصية رمسيس السياسية ، كل ذلك قد أتاح للمؤلف مصدراً للوثائق متنوعاً وغزيراً . ومما لا شك فيه أنه قد قضى علينا أن نجهل بعض المظاهر لحياة الشعب ، إذ يبدو مثلا أننا لن نستطيع أن نعرف أبداً الشعور الديني للعامل أو للكاتب أو للكاهن المصرى . نعم إن بعض المراسم والطرق والمعتقدات معروفة ، وقد استطاع جاك فانديبه J. Vandier أن يكون منها مؤلفاً لا بأس به عن الدين المصرى[1] نرى فيه القيمة الحقة للعبادة المزدوجة ، عبادة الشمس وأوزيريس . ولكنه لم يستطع هو ولا مونتيه أن يدلنا على العقيدة الفردية الحقة .

فلنرض بهذه المجموعة الضخمة من الوثائق التى جمعها وفسرها وعرضها علينا مونتيه ، وما من أحد ينكر اليوم القيمة العظيمة لقدماء المصريين أو ينكر تنوع المواهب لدى فنانيهم المعماريين والمصورين والنحاتين . ولكنا لا ندرى بالضبط كيف كانت حياتهم هنيئة فى مجموعها . يقول مونتيه : «كان المصريون يكثرون من شكر الآلهة لأن حياتهم على ضفاف النيل كانت حياة هنيئة . ولنفس هذا السبب كانوا يحاولون التمتع بنعم هذه الدنيا حتى فى قبورهم » . ومما لا شك فيه أن الفرعون كان بادى الشدة أحياناً ، ومن المؤكد أن الكتاب كانوا يميلون إلى الضغط على أبناء الشعب وأن استعمال العصا كان كثيراً . ومن المؤكد أيضاً أن الكهنة كانوا يسيئون استخدام سلطتهم الدينية التى كانت تعطى لهم بسبب تأملاتهم الروحية (ولكن الفرعون نفسه كان يقاسى من ذلك أكثر مما يقاسيه النساج والزجاج) . ومن المؤكد أن الفقراء كانوا طيلة الحياة ، بعيدين عن مساواة الأغنياء حتى إذا ماتوا ألقى بجثثهم ولحمهم وأحشائهم الفانية فى المقبرة العامة : فلا هرم لهم ، ولا خلود لهم . ولكن المصريين القدماء كانوا يعتنون بأجسامهم ، يستحمون مرتين أوثلاثاً فى اليوم ، وينتزعون الشعر من أجسادهم ويتطيبون ، وكان الفلاحون والرعاة يغنون أثناء عملهم ، أو يكلمون حيواناتهم وكانت البيرة والنبيذ تهبهم أوقاتاً سعيدة ، كما كانت تسعدهم التمثيليات الدينية ، ومواكب الآلهة . فكان عيد

(١) *La religion égyptienne*, Presses Universitaires, collection Mana, 1946

آمون فرصة لهم يتمتعون فيه بالأكل الوافر والشراب طيلة شهر بأكمله . «كلا لم يكن الشعب المصرى ، كما قال رينان ، قطيعاً من الرقيق يقوده فرعون قاس وكهنة شرهون متعصبون . لقد كان عدد الفقراء عظيما من غير شك أيام الرماسسة ولكن الفرعون وموظفوه كثيراً ما كانوا حكاماً رحيمين . وأظن أن الأيام الطيبة فى حياة الشعب كانت أكثر من الأيام السيئة » .

وكان آمون رع يقوم أحياناً بالمعجزات ليخفف عن الشعب آلام الأيام السيئة .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده .

من وراء البحار

أوربا المتحدة أو المنقسمة

يشكو المهتمون بالمشاكل الدولية من أنهم لا يسمعون آراء الخبيرين من الروس ؛ فكل مايسمعونه شذرات وآراء مقتضبة تنقل إليهم عن طريق صحافة أمريكية أو بريطانية ذات هوى ، أو هم يقرءون شيئاً من هذه الآراء فى صحف تصدرها روسيا باللغات الأجنبية وهذه تحمل طابع الدعاية مما لا يجعل لها وزناً كبيراً . ولكن قرأنا أخيراً فى مجلة الأمور الخارجية الأمريكية التى تصدر كل ثلاثة أشهر ، مقالا لخبير روسى مطلع هو الأستاذ ألكسندر جالن الكاتب السوفييتى المعروف فى الأمور الدولية وأستاذ علم التاريخ بجامعة موسكو . وفى هذا المقال استعرض بجلاء و إسهاب واعتدال مشكلة أوربا وهل ستكون منقسمة أو متحدة ، وهو مقال فيه كثير من الآراء الطريفة وهو يتحدث عن فكرة تنظيم أوربا واتحادها ، وقد بدأت الصحف تتكلم عن هذه الفكرة فى أثناء الحرب العالمية الثانية وظهرت فى شكل إنشاء كتلة غربية أوربية أو اتحاد أوربى غربى .

ثم اقترح مستر تشرشل إنشاء ولايات متحدة أوربية ، ولكن مسيو بلوم أراد أن يكون مظهرها أكثر براءة فأحب أن يسميها إنشاء أسرة أوربية غربية .

ومما لا شك فيه أن الفكرة كانت تعرض بين آن وآخر منذ قرنين أو ثلاثة ، وفيما بين الحربين الأخيرتين اتخذت اتجاهاً عمليا حين نادى بها الكونت كاليرجى السياسى النمساوى وحين اتخذت فى سنة ١٩٢٩ اتجاهاً شبه رسمى عندما عرض مسيو بريان على رؤساء الوفود فى جمعية الأمم إنشاء اتحاد ائتلافى أوربى ، وطلب إليه أن يضع مذكرة فى ذلك يبلغها جميع الدول ومنها دول الاتحاد السوفييتى . وكانت خلاصة مذكرته ضرورة وضع ميثاق مبدئى يؤكد مبدأ تضامن الدول الأوربية واتحادها أدبيا ، واقتراح إيجاد مؤتمر ولجنة سياسية دولية لتحقيق ذلك الاتحاد ووضع برنامج أساسى لذلك .

وكانت حكومة العمال البريطانية التى كانت متولية الأمور فى سنة ١٩٣٠ متحفظة فى إجابتها على هذه المذكرة ، ثم

قابلت ألمانيا هذه المذكرة بفتور ، وكانت إيطاليا معادية للفكرة . أما الرأى العام الأوربى فقابل هذه المقترحات بذعر كبير إذ رأى فيها مقاومة للاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة .

أما روسيا السوفيتية فقد اعترضت على المذكرة التى دعتها للاشتراك فى فكرة تتعارض مع نظامها ورأت أن الفكرة أمليت على الدول بدون أخذ رأيها لا سيما أنها مبعدة عن جمعية الأمم .

وقد اعترض لورد سيسيل ممثل بريطانيا فى جمعية الأمم صراحة على الفكرة قائلا إن أوربا التى تكون معارضة للعالم بأجمعه تكون أشد خطراً على السلم من المنافسة الدولية.

وانتهى أمر هذه المقترحات بأن ضمت إلى محفوظات الدول. ولما استولى هتلر على الأمر فى ألمانيا عادت فكرة أتحاد أوربا على قاعدة جديدة . ونظام هتلر المسمى النظام الجديد مقتبس من مقترحات بريان وإن وضع لخدمة صالح الاستعمار الألمانى ، وفيه ادعت ألمانيا الزعامة فى أوربا . وكان هتلر فى خطوته الأولى يرمى إلى تحطيم بريطانيا وأمريكا وروسيا السوفييتية . ولكنه فى الخطوة الثانية أراد تحطيم روسيا السوفييتية ثم استخدام مواردها ضد بريطانيا وأمريكا بحيث يكون عندئذ اتحاداً أوربيا فعليا تحت الاستعمار الألمانى . وقد تحطمت ألمانيا وهى تجاهد فى سبيل الوصول إلى هذا الغرض ، وتخلصت أوربا مرة أخرى من المنادين بالاتحاد .

وعادت الفكرة من جديد فى سنة ١٩٤٤ وقد تبناها الجنرال فرانكو الذى تنبأ بهزيمة ألمانيا و إيطاليا، فعمد فى رسالة أرسلها إلى تشرشل إلى الدعوة باتحاد أوربا لمقاومة روسيا السوفيتية ، غير أن تشرشل لم يؤيد الفكرة جهاراً إذ كان فى الحكم ، ولكنه مما لاشك فيه أن الحكومة البريطانية كانت تؤيد فكرة ائتلاف أوربى غربى . وهكذا شأن العمال البريطانيين إذ صرح هارولد لاسكى فى أغسطس سنة ١٩٤٥ قائلا : « مما لاشك فيه أن حزب العمال يؤيد فكرة اتحاد اقتصادى يضم بريطانيا وفرنسا والبلجيك وهولاندا والنرويج والدانمرك ، وأن يكون بينها أوثق رباط فى جميع الميادين » . وأيده كثيرون من العمال فى رأيه وإن لم يعلن الحزب تأييده رسميا . وعاد تشرشل إلى الفكرة يحبذها بعد أن أطلق من قيود المنصب لاسيما فى خطبته التى ألقاها بزيوريخ فى سبتمبر سنة ١٩٤٦ حين أعلن فى عبارة منمقة

مليئة بالترغيب والارهاب تأييداً لهذه الفكرة التى هى أمل الفاشيين .

فمن هو الذى يوحد بين دول أوربا وما هو الغرض ؟ يرى تشرشل أن الزعامة لابد أن تتولاها فرنسا وألمانيا . ولكن إىجزء من ألمانيا ؟ من الواضح أنه يعنى ألمانيا الخاضعة للاحتلال البريطانى والأمريكى والفرنسى . والمعلوم أن ألمانيا لم تتبرأ بعد من النازية وأنها فى المناطق المذكورة بعيدة كل البعد عن الديمقراطية . ونرى مستر تشرشل فى عجلة لأنه يود أن يصل إلى غرضه قبل أن تنفذ الديمقراطية إلى هذه المناطق . ولقد وجدت أقوال تشرشل صدى لدى هانريخ ليختجنز زعيم الحزب الوطنى الديمقراطى الألمانى الذى أيد إيجاد اتحاد غربى أوربى تحت زعامة بريطانيا ، وأبدى احترامه وإعجابه بتشرشل .

ولقد سكت مستر تشرشل عن الدور الذى تمثله بريطانيا فى هذا الاتحاد وهو يلبسها ثوب الرجل الخير الذى لايرمى إلى غرض نفعى . ولعله لا يوجد فى العالم سياسى واحد يعتقد أن السياسة البريطانية الخارجية قائمة على نكران الذات .

فأية دول سيسمح لها بالانضمام إلى هذه الولايات المتحدة الأوربية ؟ تجنب مستر تشرشل الصراحة أيضاً فى هذه المسألة ، ولكن يبدو من أقوال أنصاره المتحمسين لفكرته أن هذه الدول هى فرنسا وإيطاليا والنمسا وألمانيا وأسبانيا والبرتغال وبلجيك والدانمرك وهولندا وسويسرا والدولتان السكندناويتان . ولقد كان اتحاد بريان يقف عند حدود السوفييت فى سنة ١٩٣١ أما فكرة اليوم فلا تكتفى بابعاد الاتحاد السوفيتى بل هى تبعد أيضاً فنلندا وبولونيا والمجر ورومانيا والمنطقة السوفييتية من ألمانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا . فاذا تذكرنا أن روسيا الأوربية تشمل ثمانى جمهوريات سوفييتية يبلغ تعدادها ١٣٠ مليون من السكان وأن الدول المتاخمة لها والتى ستبعد عن هذا الاتحاد يبلغ عدد سكانها ٩٠ مليوناً ، بدا لنا أن تشرشل يريد أن يتحد نصف سكان أوربا ليقفوا فى وجه النصف الآخر .

ولقد زعم مستر تشرشل عن سخاء بأنه يكل الزعامة لفرنسا وألمانيا ، ولكن الحقيقة أن هذه الزعامة ستكون رمزية فقط وهو يضمر أن تكون بريطانيا سيدة الأقدار فى أوربا . وما هو الغرض من هذا الاتحاد ؟ هل هو سياسى أو اقتصادى أو حربى ؟ إنه الثلاثة معاً

فهو يريد إلغاء الحواجز الجمركية فى هذا الاتحاد ، وهو يريد أن يكون هذا النصف من أوربا محافظاً ليجد فيه طعاماً للمدافع فى المغامرات الحربية المستقبلة ولكنه الآن يخفى هذه الأغراض إلى أن تتألف الكتلة .

ولو أنه يريد مجرد إنهاض الدول الأوربية اقتصادياً ولو أنه يقصد إلى غرض سلمى لما أبعد عن اتحاده روسيا السوفييتية التى بذلت أكثر مما بذلت بريطانيا فى سبيل هزيمة هتلر . ولماذا أبعدت دول مثل بولونيا ويوغسلافيا التى حاقت بها المصائب من النازيين أكثر من غيرها ؟ الحقيقة أن فكرته ترمى إلى إنشاء كتلة معادية للسوفييت . وليس ذلك فحسب ،بل هى بالرغم مما ساقه من أزاهير الثناء على أمريكا معادية لأمريكا نفسها، لكى يتخلص من نفوذها الاقتصادى والسياسى فى ذلك الجزء من أوربا . ولو أنه كان صريحاً فى كلامه لقال فى جلاء إن بريطانيا خرجت من الحرب ضعيفة اقتصاديا وسياسيا وإن حليفتيها الكبيرتين هما الآن أقوى منها ، وإن مستعمراتها لا سيما الهند فى اضطراب خطير ، لذلك يجب أن نوحد بين الدول الأوربية لنمنع نفوذ السوفييت والولايات المتحدة فيها ؛ ولتكون هذه الكتلة خاضعة للتوسع البريطانى .

هذا مايجب أن يقوله ، ولكنه آثر أن يقتفى خطوات هتلر الذى بدأ بانشاء ميثاق مقاوم للكومنتيرن وانتهى بالحرب والكوارث . ولقد صدق الرئيس روزفلت حين وصفه بقوله « إنه محافظ قديم من المدرسة القديمة » .

وقد تألفت بلندن فى منتصف يناير الماضى لجنة للعمل على اتحاد أوربا برياسة مستر تشرشل وتجد هذه اللجنة تحمساً من زعماء كثيرين من المحافظين وانضم اليها بعض زعماء العمال . ولكن الحكومة البريطانية الحالية لاتؤيدها.

أما موقف روسيا السوفييتية فهو موقف معارض لمثل هذا الاتحاد الذى ينادى به زعماء رجعيون والذى يخالف الديمقراطية ،وسوف يؤدى إن تم إلى أن تحل الكوارث بأوربا والعالم بأسره .

ولقد نادى بعض أعضاء البرلمان البريطانى من العمال بضرورة المجاهرة بأن تعلن بريطانيا رغبتها فى التآلف مع أية دولة أخرى ومثل هذا التآلف يقوم على مبادئ غير التى نادى بها تشرشل،ولكنه يرمى إلى فكرة واحدة بالرغم من هذا الاختلاف هى جمع أكثر عدد من الدول حول بريطانيا لكى ينقذوا بريطانيا من صعوبتها الاقتصادية والسياسية على حساب هذه الدول . وهذا هو السبب فى أن زيارة

ليون بلوم لانجلترا قوبلت بالترحاب من جميع الجهات . ولكن بلوم ليس هو فرنسا ، ولانظن أن الشعب الفرنسى بالرغم من انقسامه فى هذه الفترة يرضى بأن تكون الجمهورية الرابعة أداة فى يد انجلترا لتحقيق أغراضها .

ولا ريب فى أن هذا الاتحاد يتعارض مع ميثاق الأمم المتحدة الذى ينص على أن المعاهدات بين مجموعة من الدول يجب ألا تكون موجهة لمعاداة مجموعة أخرى ، وأن التسويات التى تتخذ فى نطاق دول يجب ألا تتعارض مع نص ميثاق الدول المتحدة وروحه، وأن تعمل الدول التى اشتركت فى هزيمة المحور اشتراكاً كبيراً على تأييد السلم والأمن . إذن لا معنى بعد هذه النصوص لوجود هذا الاتحاد الذى يرغب فيه تشرشل ؛ إذ ما هو إلا شقاق تحت اسم آخر .

اتجاه فى السياسة الدولية

يرى السياسى الفرنسى بول رينو رئيس الوزارة فى زمن الهزيمة فى مقال افتتاحى نشرته له مجلة « ريفى دى بارى » الشهرية فى عدد إبريل أن يوم ١٢ مارس سنة ١٩٤٧ ، سيكون يوماً ثابتاً فى تاريخ العالم ، ففيه أعرب الرئيس ترومان عن اعتقاده بأن العهد الأمريكى قد بدأ فهو منذ الكلمة الأولى التى نطق بها فى خطبته التى ألقاها بالمجلس الأمريكى صرح بأن مسألة إقراض تركيا واليونان ليست مجرد مسألة مالية بل إنه فعل ذلك لأن « سياسة البلاد الخارجية ومشكلاتها الوطنية فى خطر » .

يسائل رينو ما هى هذه السلامة الوطنية مع أن القنابل الذرية التى تصنعها الولايات المتحدة اليوم تفوق القنبلة التى ألقيت على هيروشيما فى قوتها بستمائة مرة ؟ لذلك يرى أنه كان صادقاً حين صرح فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى ٢٧ فبراير الماضى بأن للولايات المتحدة تفوقاً ساحقاً على جميع الدول الأخرى مجتمعة . فالمسألة إذن ليست مسألة سلامة وطنية وإنما هى شعور بالقوة يدفع هذه الجمهورية العظيمة إلى التدخل القوى فى أمور العالم .

من المؤكد أن الغرض الأول هو تموين ذلك الشعب اليونانى الصغير الذى أبدى بطولة وتعذب كثيراً فى

أثناء القتال ، ولكن الغرض الهام هو منعه من أن يبتلع فى الكتلة الشرقية التى تؤلفها السوفييت ؛ فالحارس الأمريكى إذن سيحل محل الحارس الانجليزى .

أما الشعب التركى الذى لم يتألم أثناء الحرب ولكن حكومة السوفييت تلح فى إصرار عليه بحقها فى أن تحل معه على ضفاف الدردنيل ، فانه سيجد الاعانة نفسها التى منحت لليونان وسيمد مثل اليونان بالمعلمين الحربيين . وهكذا نرى الأمريكيين على الحدود السوفيتية فى القوقاز ، ونراهم يسيطرون على خروج السفن الروسية التى تتجه نحو البحر الأبيض المتوسط والبحار الحرة . وبلاد منرو إذن ستسيطر منذ الآن على البحر اللاتينى . فأى فرق بين موقف مجلس الشيوخ الأمريكى حين رفض التصديق على معاهدة فرساى وبينه اليوم ؟

وهكذا وضعت أمريكا حاجزاً لتقدم الكتلة الشرقية نحو الغرب ، ووقفت حارسة على الحدود الروسية .

وليس هذا كل شئ ، بل إن الرئيس ترومان يهاجم الكتلة الشرقية ويعيب أمام العالم أنها فرضت على بلغاريا وبولونيا ورومانيا نظاما دكتاتوريا بغير رغبة هذه الدول وبالقوة والارهاب بالرغم من اتفاقات يالتا . وهو بالطبع يريد أن يقول إنها فرضت نظاماً شيوعيا . وهو يقول إن هناك محاولات كهذه فى بلاد أخرى . فالأمر أمر خلاف بين نوعين من الحياة .

فأمريكا إذن لن تسمح بتحول النظام السياسى لأية دولة إما بالقوة أو على قول رئيسها بطرق ملتوية مثل التغلغل السياسى ، ولقد فهم العالم ذلك. وعلى كل حال ستساعد أمريكا « الأمم الحرة المستقلة على الاحتفاظ بحريتها » وبذلك تنفذ ميثاق الأمم المتحدة . ومما لا ريب فيه أن جمعية الأمم الزائلة كانت فى حاجة إلى حراس ، ولقد وجدت الجمعية التى حلت محلها هذا الحرس .

وليس ذلك إلا لأن القنبلة الذرية الآن أقوى ستمائة مرة من تلك القنبلة التى ألقيت على هيروشيما .

ولقد نزلت صراحة ترومان على موسكو كالبرق ، فأعمت أبصار وزراء الحلفاء المجتمعين فيها وتوقفوا عن ألاعيبهم الصغيرة . ونشرت جريدة « أزفستيا » الروسية تعليقاً معتدلا تكلمت فيه عن إخفاق الانجليز التام فى اليونان وصرحت بأنه ما من أحد يهدد سلامة تركيا . فهل كانت هذه اللغة تقال لو أن الولايات المتحدة أدارت ظهرها إلى أوربا ؟

ومن العجيب أن الجريدة التى

تنطق بلسان الحزب الشيوعى الفرنسى كانت أشد لهجة ، ووصفت تصريحات ترومان بأنها لا تحتمل وأنه يشجع المهاجات التى هوجم بها الحزب الشيوعى فى أثناء مناقشة موضوع الهند الصينية .

وقد تكلم مسيو بول رينو طويلا عن هذه المناقشة التى كانت فى الجمعية الوطنية الفرنسية فى ١٤ مارس الماضى ودافع عن موقفه فى هذه المناقشة ودفع ما اتهمه به الحزب الشيوعى من أنه يؤيد الرجعية .

أسطورتان سياسيتان

كتب مستر ليندلى الكاتب المعروف فى مجلة « ناشنال ريفيو » البريطانية الشهرية وهى من المجلات المحافظة مقالا فى عدد إبريل سنة ١٩٤٧ عن أسطورتين حديثتين تترددان فى الأفق السياسى. فهو يقول إنه مما يلذ للمراقب أن يرى أن البيانات الخاطئة تجد تصديقاً من الناس إذا رددت مرات كثيرة على آذانهم . ويضرب لذلك مثلين : أولهما مايسميه الناس «التجربة السوفيتية» . فالشيوعيون لا يفتأون يعلنون بطبيعة الحال النجاح الكبير الذى يلاقونه فى كل ميدان من ميادين الحياة الاجتماعية . وأغلب الصحف البريطانية والنقاد البريطانيون لايؤيدون هذه المزاعم كاملة ، ولكنهم يريدون أن يظهروا بمظهر سعة العقل فيوافقون على أن النظام الحاضر فى روسيا هو خير من النظام القيصرى .

على أن الكتاب الذى وضعه كرافشنكو الكاتب الروسى الذى فر من الشيوعية وأسماه « لقد اخترت الحرية » يدل دلالة واضحة على أن هذا الكلام عبث، وكل مانحتاج إليه لصحة الحكم هو قليل من التقدير ومعرفة بدائية بروسيا قبل الثورة. فاذا استعرضنا مسألة الطعام أولا فاننا نجد أن روسيا قبل سنة ١٩١٤ — ولقد كان الكاتب عليما بها كل العلم — كانت تتمتع بكثرة الطعام ورخص أثمانه وجودة نوعه بما لا يكاد يوجد له مثيل فى العالم ؛ فكان يمكن أن يطعم امرء أكلة من خير ما يكون فى مطعم أية محطة بما لا يزيد عن روبل واحد ، ويوجد ما هو أرخص من ذلك . ومع ذلك وبعد عشرين سنة قضتها روسيا فى السلم أى فى سنة ١٩٤٠ صار الطعام موزعاً بالبطاقات . يدعى الشيوعيون أن توزيع الطعام بالبطاقة

حتى الآن هو نتيجة الحرب . وهذا غير صحيح ؛ فان موارد المنطقة التابعة للسوفييت فيما يتعلق بالطعام غير محدودة لو أن الحكومة كانت صالحة بعض الشئ ، فهى فى الواقع أكبر كثيراً من موارد الولايات المتحدة . والواقع أن هذه القلة فى الطعام هى نتيجة سوء الحكم الشيوعى .

ويزعم الناس أن المقاومة الناجحة التى قامت بها القوات السوفيتية ضد الألمان هى نتيجة لنجاح النظام الشيوعى. فمما تجب الاشارة إليه أن هذا النجاح نسبى فقد سبقته هزائم حربية فظيعة وخسارة فى الأرض والرجال لم يسبق لها مثيل فى حرب من الحروب ، ولم يتحول مجرى الحرب إلا بالعوامل التى هزمت نابليون وهى اتساع المساحة والشتاء، وأخيراً الصفات العالية للجندى الروسى ، وهذه الصفات مما لاينكرها أحد ممن رأوا الحرب العالمية الأولى ؛ ففى تلك الحرب قاتل الروس بمثل الشجاعة التى أظهروها أخيراً واستطاعوا أن يهزموا النمساويين ، والأتراك فى كل ميدان، ولكنهم لم يكونوا أكفاء للألمانيين كشأنهم فى سنة ١٩٤١ ولو أن الجيش القيصرى كان قائماً بالقتال لخرج من الحرب بانتصارات أبهر مما خرجت به الجيوش السوفييتية فى سنة ١٩٤٥ بعد أن استعمل رجال السوفييت الطرق التطهيرية التى اعتادوا استعمالها دون تردد .

أمر آخر من الأمور التى يرددها الناس هو إيجاد الحكومة لصناعات مزدهرة ، وإقامة هذه الصناعات من العدم . وليس هذا القول بحق ؛ فان روسيا كانت تتمتع فى سنة ١٩١٤ بصناعات هامة ثقيلة، كما أنه بدأت فيها صناعات جديدة مثل صناعة القطن ، وكان الكونت ويت يعمل بقوة على اتباع سياسة صناعية ناهضة ومد سكك حديدية ، ولم تقف هذه النهضة إلا بسبب الحرب والثورة الشيوعية .

ولو سارت الأمور فى هذا الطريق لما اضطر الشعب لأن يتحمل الحرمان من الضروريات الأولى حتى من بناء الدور فى سبيل التسليح فيما بين الحربين ، وبالرغم من هذه التضحيات الكبيرة هل يمكن مقارنة مجهود السوفييت فى الحرب بالمجهود الأمريكى؟ لقد استطاع الأمريكان فى ثلاث سنوات دون أن يحملوا شعبهم تضحيات مؤلمة أن يكونوا أبعد مدى فى كمية التسليح ونوعه بما لا يقارن به مجهود السوفييت فى ست سنوات . ولعل المقارنة بين هاتين الدولتين هو خير مثل

للعمل بالمجهود الفردى والعمل الذى تحتكره الدولة .

وثانى الأساطير أنه مما اعتاده الناس إذا ذكروا الشرق الأقصى أن يعتبروا سن يات سن من الذين أسدوا يداً للعالم . ولكن التفكير فى هذا الموضوع يثبت لنا أن الثورة التى قام بها هذا الرجل سببت تعاسة ليس لها مثيل ، وكانت من أكبر الكوارث التى حلت بالصين بمدة خمس وثلاثين سنة ، وقد يمضى مثلها من السنوات قبل أن تتحسن الأمور . وكل من يعرفون الصين حق المعرفة يرون أن الصين كانت بحاجة إلى أسرة حاكمة جديدة بدلا من الجمهورية التى أنشأها سن يات سن . ولقد كان يوان — شى — كاى الذى يعمل على ذلك بعيد النظر ، غير أنه قوبل بالمعارضة من روسيا واليابان فمات كسير الخاطر .

ويرى الكاتب أن الحكام البريطانيين لا يهضمون فكرة قتل الجماهير من الناس واتخاذ معسكرات يساق إليها المعارضون وما ماثلها من الطرق التى يلجأ إليها النازى والسوفييت ، ولكن هذه الوسائل هى المتبعة للاحتفاظ بالتجربة السوفييتية . وإذا كانت الطرق الاشتراكية ستخفق فى بريطانيا فسيصيح الشيوعيون قائلين إن السبب هو عدم تطبيق النظام الشيوعى بأكمله ، وسيتخذ هؤلاء الناس روسيا السوفييتية مثالا للنجاح ، ولن يفكروا لحظة فى أن الامبراطورية السوفييتية لها من الموارد ما ليس له مثيل فى الجزيرة البريطانية الصغيرة الغاصة بالسكان .

وأعرب عن أمله فى أن يتدبر الانجليز أمرهم لكى يتجنبوا هذه الأخطار .

ظهر حديثا

والدة قصة للكاتب الفرنسي فرانسوا مورياك ترجمة الأستاذين محمد عبد الحميد عنبر وعبد المجيد عابدين (دار الكاتب المصرى)

فى هـذه القصـة نرى الكاتب الفرنسى فرنسوا مورياك فى خير مظاهره قصاصا خبيرا بفنه ، بلغ فى عالم القصة أكبر المراتب ، ونرى فيه باحثاً اجتماعياً من الطراز الأول ، واسـع الأفق ، يبحث موضوعاً طريفاً قد نشهد أمثاله فى جميع الأسر على مختلف جنسياتها ، وإن كان قد أراد أن يتخذ لهـذه القصة جو الريف الفرنسى . فالموضوع الذى أثاره هذا الكاتب فى هذه القصة بالذات ، موضوع عالمى ؛ ونستطيع أن نقول إن التوفيق صاحب اختيار هذه القصة بالذات ، لنقلها إلى العربية من بين قصص فرنسوا مورياك الذى يجنح أحياناً إلى موضوعات ضيقة قد تهم فريقاً دون فريق . فالمعروف عن مورياك هو نزعته الرجعية الدينية، وهى نزعة لها قيمتها وأثرها ، ولكنها قد تجعل من بعض مباحثه فى قصصه ضيقاً يبعد عنها جمهرة كبيرة مما قد يستفيدون ، لو عنى مورياك بموضوعات عالمية ، بما له من مقدرة فى فن القصة، وقدرة على صياغة الحوادث وسردها .

فقصة « والدة » خالية من هـذا العيب بموضوعها الحيوى ، الذى يدور حول تلك الشخصية التى نجدها فى أسر كثيرة كما أسلفنا ، وهى الأم العجوز التى تتسلط على الدار ومن فيها ، وتزعم أن هذه السيطرة لفائدة أبنائها ، ومن يلوذون بهؤلاء الأبناء . وهى تسيطر عليهم بروح قوية ، وحزم لا يعرف الكلل ، وتظل فى حركة دائمة ودأب على إخضاع الجميع لرأيها وأوامرها . وتزعم أن هذا العمل إنما هو لمصلحة الجميع ؛ فاذا هى لا تبذر إلا الشر للأسرة ، وتجر عليهم بشدتها وتصلبها الكوارث .

تلك هى الشخصية التى رسمهـا فرنسوا مورياك بفن يسيطر على القارئ منذ الصفحة الأولى ، حتى لا يستطيع ترك هذا الكتاب ، أو يغفل عن تتبع هذه الوالدة بسيطرتها وتصلبها اللذين يبلغان حد الاثم . ولعل كلمة «الوالدة» لاتعبر كل التعبير

عن الاسم الأصلى للقصة ، وهو اسم لا يتيسر التعبير عنه بكلمة عربية واحدة؛ ففيه معنى ذلك الاصرار والثبات الذى نجده فى الجذور العميقة. على أننا لا نريد أن نتبسط فى الكلام على مزايا هذه القصة بعد أن يسرت للقارئ العربى بنقلها فى عبارة عربية جزلة صحيحة ، وبعد أن أخرجت هذا الاخراج الجميل الذى صار سمة من سمات مطبوعات دار الكاتب المصرى .

جرائم واغتيالات القرن العشرين للأستاذ عبد الحليم الجندى فى جزأين
(دار سعد مصر)

كنت أحب أن يطلق على هذا الكتاب عنوان أقرب إلى محتوياته ؛ فان هذا العنوان قد يدل على أن الكتاب مجرد قصص أريد به إزجاء الوقت فى التسلية ، ولكنه فى حقيقته لا يمت إلى الجرائم والاغتيالات فى بشئ ، وإنما هو دراسة عميقة لثلاثة من كبار المحامين : أحدهم انجليزى والآخر فرنسى والثالث مصرى ، وهى دراسة كاتب خبر وسط المحاماه وحياتها العملية ، كما خبر حياة الفكر والبحث العلمى . وقد أظهر مقدرته من قبل على البحث العلمى فى كتابه الذى وضعه عن أبى حنيفة ، وهو الآن يضع خبرته العلمية فى خدمة المحيط الذى قضى فيه زمناً طويلا من حياته العملية .

ومع ذلك فالكتاب ليس مجرد بحث علمى جاف . ففى حياة أمثال مارشال هول وهو من أساطين المحاماة الانجليزية ، وفى حياة هنرى روبير وهو من مفاخر المحاماة الفرنسية ، ما هو طريف كأية قصة للتسلية . على أن ما نراه طريفاً حقا وجديداً فى هذا الكتاب هو ذلك القسم الذى أفرده لمحام من أكبر المحامين الذين عاشوا فى القرن العشرين وهو المرحوم ابراهيم الهلباوى بك .

ومما يجعل لهذا البحث الطريف والجديد قيمة خاصة أن المؤلف، فيما نعلم ، قضى عشرات السنين يعمل إلى جانب هذا المحامى الكبير ، وأنه استطاع أن يطلع بحكم صلته على المذكرات الخاصة التى تركها ذاك المحامى الكبير ،وهو على ما يعلم الناس كان يملأ دور القضاء حياة كما يملأ بنشاطه جوانب كثيرة من الحياة السياسية والاجتماعية. فقد كان الهلباوى رجلا نشيطاً دءوباً فصيحاً طموحاً . وهكذا قضى حياته

الطويلة فى عمل ودأب فوصل إلى أكبر مراتب الشهرة فى المحاماة وإن لم يستطع أن يصل إلى أكبر المراتب فى الجوانب الأخرى من نشاطه. وهو إذا كان قد عجز فما ذلك لأنه لم يكن جديراً بها، ولكن خطأ واحداً ارتكبه فى حق بلاده أظل القسم الأخير من حياته فلم يستطع التقدم فى مجال الحياة السياسية والاجتماعية. وهذا الخطأ هو موقفه فى حادث دنشواى المشهور.

لم يغفل الأستاذ عبد الحليم الجندى ذكرى هذا الحادث؛ فلقد أشار إليه وتكلم عنه كما يجب على المؤرخ الأمين. ولكنه لاحظ جانب الصلة التى كانت تربطه بالمحامى الكبير، فخفف من موقفه، وعدل عن الألوان المظلمة إلى الألوان النيرة، واتخذ ثوب المحامى المدافع فى كلامه، وإن لم يستطع أن يخفى هذا الخطأ تماماً. والحقيقة أن الأستاذ عبد الحليم الجندى لم يرد أن يترجم للسياسى المخطئ، وإنما أراد أن يترجم للمحامى العظيم، الذى كان يدافع عن المظلوم والذى لم يكد يكون له قرين فى بلاغته وفصاحته وحضور بديهته عند المرافعة والمدافعة.

ولا ريب فى أن هذا البحث سيكون مرجعاً لجميع الذين يؤرخون حياة المحاماة والقضايا فى الفترة الأولى من القرن العشرين. ولا يمكن أن يهمله من يكتب التاريخ السياسى لهذه الفترة.

التفسير الاشتراكى للتاريخ وهو مختارات من فريدريك انجلز ترجمها وصدرها بمقدمة طويلة الدكتور راشد البراوى (مكتبة النهضة)

لا يزال الدكتور راشد البراوى يخرج لنا كتاباً بعد كتاب، فى المسائل الحيوية التى تشغل أهل هذا القرن وتسيطر على عالم الفكر والاقتصاد. فقد أشرنا فى هذا الباب إلى كتابه عن حرب البترول فى الشرق الأوسط. وقد نكون قد أشرنا إلى ترجمته لكتاب رأس المال لكارل ماركس، وهو الكتاب الذى أثر تأثيراً كبيراً فى الحياة الأوربية والأمريكية وأدى إلى إنشاء ذلك النظام فى روسيا الذى هو موضع دراسة العالم بأسره. وهو الآن يتابع مجهوداته فيختار أهم الصفحات لكاتب من أكبر الكتاب الذين قامت الاشتراكية فى أوربا على أكتافهم، وهو

الـكاتب الاجتماعى فريدريك إنجلز . ولقد بدأ الدكتور راشد البراوى كتابه ببحث طويل عن التفسير المادى للتاريخ ، وهو المذهب الذى اعتنقه زعماء الاشتراكية . وهذا البحث مستفيض ووافٍ يبين فيه المـذاهب المختلفة ويقارن بينها بحيث نقف منه على خلاصة وافية لهذا المذهب الاشتراكى الذى أثر كثيراً فى الحياة الاجتماعية والسياسية فى أوربا .

وإنا لنرجو أن يقبل الكتاب على هذه الموضوعات الحيوية إذا أرادوا النهوض بهذا الشرق المتأخر فى عالم الفكر عن البلاد الأوربية ، لكى يصلوا به إلى أن يتبوأ المكانة التى يجب أن تـكون له بين الأمم ، ولـكى يساهموا بنصيبهم فى مجرى هذه الحيـاة الفكرية .

مصر الظافرة للبكباشى عبد الرحمن زكى (المطبعة الأميرية)

هذا الـكتاب الذى أصدرته وزارة الدفاع الوطنى هو بحث مختصر وجليل يستعرض تاريخ مصر وأمجادها فى صور سريعة ودقيقة ؛ فهو يتكلم عن مصر الفرعونية وما كانت فيه من عزة ، ثم ينتقل إلى مصر الاسلامية ومفاخر ذاك العهد حين كانت مصر دولة ناهضة قوية تحت حكم الـكثير من الفاطميين والأيوبيين والمماليك البحرية والشراكسة . ثم يتكلم عن عهدها المجيد الأخير فى حكم الأسرة المحمدية العلوية ، ففى نحو بضع ومائة وعشرين صفحة ، رسم لنا الأستاذ عبد الرحمن زكى صورة طريفة لتاريخ طويل يرجع إلى ما يزيد عن خمسة آلاف سنة . وقد طبع الـكتاب طبعاً جيداً ووضعت فيه صور طريفة متقنة ، كما ختم بسجل فيه أهم الأحداث فى تاريخ مصر .

حسن محمود

عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة للأستاذ محمد عزة دروزة
(مطبعة دار اليقظة العربية بدمشق)

مسند أحمد (الجزء الثانى) بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر (دار المعارف للطباعة والنشر بمصر)

أبو هريرة لسماحة السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوى العاملى (مطبعة العرفان بصيدا)

هى كتب ثلاثة أخرجتها المطبعة العربية منذ قريب ، تجمعها آصرة من أواصر العلم ، وتتناول من قريب أو من بعيد موضوعاً لا يكاد يختلف فى جملته وإن اختلفت وجهات النظر إليه واختلفت الغايات من تناوله ؛ ذلك هو موضوع السنة المحمدية والمأثور من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما أول هذه الكتب « عصر النبي وبيئته قبل البعثة » فقد تناول هذا الموضوع تناولا سلبيا حين حاول مؤلفه أن يؤرخ عصر النبي على نهج جديد لا يستند فيه إلى ما روى من الأخبار وما أثر من الأحاديث ، وإنما يقتبس صوره من القرآن الكريم ليس غير ؛ إذ كان القرآن فيما يرى هو المصدر الأول — أو المصدر الأوحد — الذى ينبغى أن يوثق به فى الاستدلال على بعض ما كان — أو أكثر ما كان — فى عصر النبوة من أحداث وأحاديث .

وأما الكتاب الثانى «مسندأحمد» فهو ذلك الكتاب الأم الذى جمع فيه الإمام أحمد بن حنبل ما صح لديه من حديث رسول الله بأسناده ورواياته ؛ فكان إماماً فى هذا الباب .

وأما الكتاب الثالث «أبو هريرة» فيعرض للحديث عن رجل من رجال الحديث لا يكاد يخفى مكانه بين أهل الرأى والرواية .

فهى إذن كتب ثلاثة ولكنها تدور حول موضوع واحد من ثلاثة جوانبه : جانب سلبى ، وجانب إيجابى، وثالث بين بين . . .

عصر النبي — ولست من هذا الباب فى مقام الناقد بحيث يسوغ لى أن أتناول هذه الكتب الثلاثة كلها أو بعضها بالتعليق والنقد ورد الرأى ، أو التنويه والاشادة والمعاضدة . وحسب القارئ أن أعرض عليه هذ

الكتب وأعرفه إليها أصف له نهجها وما تهدف إليه .

أما الكتاب الأول فهو كما يدل عليه عنوانه : حديث جديد عن عصر النبي وبيئته قبل البعثة ، يتنـــاول تاريخ تلك الفترة التي سبقت مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فيصفها زماناً ومكاناً وسكاناً ، وما كان من حياة العرب الاجتماعية والعقلية وأديانهم وعقائدهم ؛ فهو موضوع — كما قد يرى القارئ — غير جديد ، وإنما جاءت جدته من حيث الأسلوب الذى التزمه المؤلف والمنهج الذى سلكه .

ومؤلف هذا الكتاب رجل قد طوحت به أعاصير السياسة فأبعدته عن بلده وألزمته الإقامة غريباً عن أهله وصحبه بضع سنين ؛ فلم يجد فى غربته من أسباب الأنس والتسرية إلا القرآن يتلوه مصبحاً وممسياً ؛ فانكشف له فى القرآن من طول تلاوته وكثرة ترداده معان وصور من عصر النبوة حملته على أن يقول لنفسه : « لم لا يكون القرآن مصدراً لتصوير هـذا العصر والبيئة ، وفيه ما فيه من هذه الآيات ، وهو يعد أوثق وأصدق وأقدم ما يمكن أن يستند إليه كاتب أو باحث ؟ »

على أن حديثه إلى نفسه لم يطل، فلم يلبث أن جمع نيته على إخراج هذا الكتاب وهيأ أسبابه للعمل ؛ وكأنما كان يحيك فى صدره شبهات فى بعض ما روته كتب السيرة وغيرها من روايات « بسبب تأخر تدوينها وما يمكن أن يكون قد اعتور حفظ الصدور وصحة النقل من لبس ، أو ما يمكن أن يكون قد تسرب إلى الروايات من أصابع الأهـواء والميـول والصنعة والتلفيق » ؛ فآثر أن يطرح ذلك كله ليجعل القرآن عمدته وسنده، لا يستند إلى غيره من الأخبار والآثار والروايات ، ولا يعرض له إلا حين يريد الاستئناس ترشيحاً لما استنبط من القرآن وما اهتدى إليه بسبيله ؛ « فان القرآن هو من جميع هذه الشوائب فوق كل مظنة وأقدس من أن تصل إليه شبهة سواء فى صحة التدوين أو سرعته ، بحيث كان كذلك دائماً عند جميع الناس تقريباً على مختلف أهوائهم وأجناسهم وأديانهم وأزمانهم » .

وعلى هذا النهج سار المؤلف من أول الكتاب إلى آخره ، فجاء كتاباً جديداً فى أسلوبه وطريقة الاستدلال فيه وما تضمنه من الرأى وما انتهى إليه من نتائج الاستنباط والتحرى والفقه التاريخى لمعانى القرآن .

وقد يضيق بعض القراء صدراً

إذ يرون المؤلف قد جانب ما درج عليه السلف حين اطرح ما روى من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يأخذ بشيء منها ولم يجعل عليها معوّله، كأنما هو ينكرها جملة ولا يراها أهلا للثقة أو موضعاً للاستدلال؛ وهو معنى أراه يخطر بباله حين آثر هذا النهج، وما أراه قد التزم هذه الحجة إلا مبالغة في التحرى والاستيثاق لتكون حجته أقطع في وجوه الجاحدين من أهل الجدل والمكابرة.

وحسب المؤلف على كل حال أنه قد شرع نهجاً جديداً في البحث عن عصر النبي وكشف آفاقاً لم يكشفها أحد قبله حين بسط ما بين دفتى المصحف للباحثين وأهل النظر ليستنبطوا مما فيه من معانى غير العبادات والتشريع وأسرار الإعجاز.

مسند أحمد — أسلفت الحديث عن هذا الكتاب الأم حين ظهر الجزء الأول منه منذ بضعة أشهر [1] فما بى حاجة إلى الحديث عنه بعد، وهذا هو الجزء الثانى من تلك الموسوعة، يبدأ بالحديث الثامن والعشرين بعد الخمسمائة وينتهى بالحديث الرابع بعد أربعمائة وألف، فى بضع وسبعين وثلثمائة صفحة، مذيلة بجريدة المراجع التى لم يرد لها ذكر فى الجزء الأول، وبفهرس المساند مرتباً على الأبواب إجمالا.

وقد مضى محقق الكتاب فى هذا الجزء على النهج الذى اختطه فى الجزء الأول؛ فهو يورد النصوص محققة مضبوطة؛ ثم يذيلها بالحديث عن سند الحديث وقيمته ورواته، معرفاً بهؤلاء الرواة إذا اقتضى المقام مزيداً من التعريف، شارحاً ما يرى وجهاً لشرحه من متن الحديث، مستطرداً أحياناً إلى ذكر أثره التشريعى ودلالته الفقهية. وحسبى تعريفاً بما بذل المحقق من جهد فى هذا الباب أن أنص للقارئ نصا من تعليقاته:

١ — « جاء النبى صلى الله عليه وسلم أناس من قريش، فقالوا: يامحمد، إنا جيرانك وحلفاؤك، وإن ناساً من عبيدنا قد أتوك ليس بهم رغبة فى الدين ولا رغبة فى الفقه، إنما فروا من ضياعنا وأموالنا، فارددهم إلينا. فقال لأبى بكر: ما تقول؟ قال: صدقوا، إنهم جيرانك. قال:

---

(١) الكاتب المصرى عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) ص ١٨٠.

فتغير وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لعمر : ما تقول ؟ قال : صدقوا، إنهم جيرانك وحلفاؤك . فتغير وجه النبى صلى الله عليه وسلم »[١] .

ذلك نص الحديث ؛ وكأنما ذكر محقق المسند أمراً مما يجرى حوله بعض الجدل فى هذه الأيام وتتردد له أصداء فى المحاكم الوطنية والمختلطة ، فقال فى تعليقه :

« وهذا الحديث يدل على قاعدة عظيمة من أسس القواعد الاسلامية : أن يقبل ممن أسلم ظاهر إسلامه ، كما يدل عليه القرآن والسنة ، وأنه لا يملك أحد ، لا قاض ولا أمير ولا ملك ولا خليفة ، أن يبحث فى الدوافع التى تدفع من أسلم إلى الاسلام ، أسلم مخلصاً ، أسلم متعوذاً ، أسلم طائعاً ، أسلم لأى شئ — كل ذلك سواء فى ظاهر الحكم ، لا نملك غير ذلك ، حتى إن رسول الله، وهو الذى يوحى إليه ، تغير وجهه لصاحبيه أبى بكر وعمر ، إذ ظنا أنه يجوز البحث فى ذلك ، لما بدا لهما من صحة القرائن التى شرحها هؤلاء الوفد من قريش ، ولكن رسول الله اطرح كل هذا وأثبت ظاهر الاسلام ، وقد تأدب عمر بهذا الأدب الذى أدبه رسول الله ، حتى لقد جاءه فى خلافته رجل من الشعوب ، أى الأعاجم ، فشكا إليه أنه أسلم وأن الجزية تؤخذ منه ؛ فقال عمر : لعلك أسلمت متعوذاً؟ فقال الرجل : أما فى الإسلام ما يعيذنى؟ قال عمر : بلى ! فهذا الرجل لم يرض أن يجادل عن نفسه ، وأن يتحدث عن ضميره ، فيقول مثلا إنه أسلم خالصاً راغباً فى الاسلام ، وقد لا يصدقه عمر ، وإنما لجأ إلى سماحة الاسلام ، وإلى حكم الاسلام ، فهلا يعيذه هذا الاسلام ويحميه إذا كان أسلم متعوذاً ؟ سأل سؤالا واضحاً صريحاً فلم يستطع عمر إلا أن يجيب الجواب الصحيح : بلى . وإن عمر لصادق وموفق ، وإنه تعلم ما علمه معلم الخير ، رسول الله صلى الله عليه وسلم . »

ب — مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم فى رءوس النخل ، فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : يلقحونه ، يجعلون الذكر فى الأنثى . قال : ما أظن ذلك يغنى شيئاً . فأخبروا بذلك ، فتركوه ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن كان ينفعهم فليصنعوه ، فانى إنما ظننت ظنا،

---

(١) رقم الحديث ١٣٣٥ ص ٣٣٨ .

فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا أخبرتكم عن الله عز وجل بشئ فخذوه فانى لن أكذب على الله شيئاً »[1] .

قال فى تعليقه : « وهذا الحديث مما طنطن به ملحدو مصر . . . فجعلوه أصلا يحجون به أهل السنة وأنصارها وخدام الشريعة وحماتها إذا أرادوا أن ينفوا شيئاً من السنة وأن ينكروا شريعة من شرائع الاسلام فى المعاملات وشئون الاجتماع وغيرها ، يزعمون أن هذه من شئون الدنيا ، يتمسكون برواية أنس « أنتم أعلم بأمر دنياكم » والحديث واضح صريح ، لا يعارض نصا ، ولا يدل على عدم الاحتجاج بالسنة فى كل شأن ؛ لأن رسول الله لا ينطق عن الهوى ، فكل ما جاء عنه فهو شرع وتشريع ، « وإن تطيعوه تهتدوا » ، وإنما كان فى قصة تلقيح النخل أن قال لهم : « ما أظن ذلك يغنى شيئاً » فهو لم يأمر ولم ينه ، ولم يخبر عن الله ، ولم يسن فى ذلك سنة ، حتى يتوسع فى هذا المعنى إلى ما يهدم به أصل التشريع ، بل ظن ، ثم اعتذر عن ظنه ، قال : « فلا تؤاخذونى بالظن » ، فأين هذا مما يرمى إليه أولئك ؟ هدانا الله وإياهم سواء السبيل » .

وعلى هذا النسق يمضى فى تعليقاته .

أبو هريرة — وهذا كتاب — كما يقول مؤلفه — قد تنقبض دونه وجوه وتتقبض نفوس مزورة عنه ؛ فقد أنشأه لتجريح رجل من أصحاب رسول الله وكان أكثرهم رواية عنه ؛ ذلك أبو هريرة الأوسى ، وهو فيما يصفه « أمى ، مفرط ، مكثار ، كذاب ، مغلول ، مفلول ، متزلف ، سخيف ، سقيم العقل ، صنيعة بنى أمية ، احترف صناعة الأحاديث ليعيش من برهم » وهو ينكر عليه أن تكون صحبته لرسول الله سبباً إلى تنزيهه من أى هذه الصفات السابقة « والحق أن الصحبة بما هى فضيلة جليلة ، لكنها غير عاصمة ، والصحابة فيهم العدول وفيهم الأولياء والأصفياء والصديقون وهم علماؤهم وعظماؤهم ، وفيهم مجهول الحال ، وفيهم المنافقون من أهل الجرائم والعظائم . . . »

وكأنما خشى المؤلف أن يتأول عامة المسلمين رأيه فى أبى هريرة — وهو رجل صحب النبى سنوات —

(١) رقم الحديث ١٣٩٥ ص ٣٦٤ .

فيقول فى معرض الدفاع : « الجمهور بالغوا فى تقديس كل من يسمونه صحابيا حتى خرجوا عن الاعتدال... إنما يعفون أبا هريرة وسمرة بن جندب والمغيرة ومعاوية وابن العاص ومروان وأمثالهم تقديساً لرسول الله ، لكونهم فى زمرة من صحبه صلى الله عليه وسلم ونحن إنما ننتقدهم تقديساً لرسول الله ولسنته صلى الله عليه وسلم . »

ويتضمن الكتاب مقدمة وثمانية عشر فصلا وخاتمة . ويتحدث فى فاتحة الفصل الأول عن السبب الذى حفزه إلى إنشاء هذا البحث فيقول : « أبو هريرة : حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكثر ، وروت عن الصحاح الستة وسائر مسانيد الجمهور فأكثرت ؛ فلم يسعنا إزاء هذه الكثرة المزدوجة إلا أن نبحث عن مصادرها . . . لكن أسلات هذه الكثرة قد استفاضت فى فروع الدين وأصوله ، فاحتج بها أهل المذاهب الأربعة ومتكلموهم من الأشاعرة وغيرهم فى كثير من أحكام الله وشرائعه عز وجل ، ملقين إليها سلاح النظر والتفكير ؛ لذلك لم يكن لنا بد من البحث عن هذا المكثر نفسه وعن حديثه كما وكيفا ، لنكون على بصيرة فيما يتعلق من حديثه بأحكام الله عز وجل . »

ثم يمضى فى الحديث عن نسبه ونشأته وتاريخه منذ أسلم حتى مات فى عهد معاوية ، متعرضاً فى ثنايا ذلك لبعض ما روى عنه من أحاديث تنبو عن العقل والذوق والكياسة وتخالف تعاليم الدين ، مبيناً ما فيها من التناقض والاحالة وعلائم الوضع والاختراع . . . فى أسلوب خطابى يتراوح بين اللين والشدة .

ليت شعرى أكان أبو هريرة كما وصفه مؤلفه ، أم كان رجلا آخر ؟

سؤال لا أكاد أملك الرأى معه ، وقد عرف القراء أننى فى هذا الباب لست من أهل الاختصاص ؛ فحسبى أن وصفت لهم هذا الكتاب ؛ وإنه لكتاب حقيق بأن يلتفت إليه . أهل هذا الفن ، ليتولى كلمتهم فى صحابى له مثل مكانة أبى هريرة فى رواية الحديث .

محمد سعيد العريان

في مجلات الشرق

البيان النجف الأشرف العددان ٢٠ و ٢١ (ابريل - مايو ١٩٤٧)

مخطوطات عربية — من مقال للأستاذ على الخاقانى محرر المجلة ، عنوانه « النجف والانتاج العلمى » يقول فيه :

« فى النجف ثروة علمية كبيرة قل أن توجد فى مدينة من مدن العالم الاسلامى ، ولكنها تحتاج إلى إعداد كبير من المطابع والعمال ؛ وإلى ميزانية واسعة ضخمة تساعد على إحياء هذاالتراث الذى به نفخر ونعتز .

« هناك من المخطوطات مايزيد على أربعة آلاف مخطوطة لم تطبع ، وقفت عليها وكتبت عنها ، وكتابى « دليل الآثار المخطوطة » شاهد على ما أقول . وهناك علماء وقفوا أنفسهم للتأليف فقد ملأوا الخزائن والرفوف ، وأحيوا المندرس من النوادر الآثارية بخطوطهم، وهناك رجال لا يسرهم كل حديث غير حديث النشر والتأليف . ولكن هل يجدى هؤلاء النفر مع فقدان المال العامل الأساسى ، وهل يجدى ذلك والأديب عندنا لا يملك قوت يومه ولا يحصل على واحد من مائة من أمانيه ؟ »

ثم يعود المحرر نفسه فيقول فى العدد التالى من مقال عنوانه « لجنة التأليف والترجمة والنشر » وهى لجنة أنشأتها وزارة المعارف العراقية منذ قريب :

« لقد سبق أن قلت غير مرة إن مصر قامت بدور ناشر أكبر من قيامها بدور مؤلف ، إلا فى الآونة الأخيرة ، وإن الكتب التى قامت باحيائها معظمها يرجع إلى العراقيين بالنظر إلى أنها أتقنت فن الطباعة وسرعة الاخراج المشفوع بالجمال ، وكادت أن تأتى على اخر كتاب عندنا ، غير أن الصدف شاءت أن يبقى عندنا نزر قليل من مخلفات الأجداد لم يعثر عليه غزاة مصر من الأدباء؛ فحرى بنا أن نقوم باحيائه وإخراجه لنكفر عن بعض السيئات التى عملناها لأنفسنا غير شاعرين بالتقصير تجاه تاريخنا . ولقد صممت أن

أتقدم بما أستطيعه من خدمة لهذه البلاد التي لم أحصل منها على ما يكفل راحتي وعيشي بهناء ، بمساعدة هذه اللجنة وتقديم ماتحتاج إليه من بحث أو كتاب يوجد عندي ، كما أني مستعد أن أكشف لها عن مخبآت لا تعلم عنها شيئاً ، مع الاحتفاظ بحقوق أصحابها وتعويضهم أتعابهم ؛ وبذلك أرجو أن أكون قد عملت لصالح العلم والعلماء ولصالح بلادي العزيزة . ولتنوير اللجنة أقترح أن تبدأ أولا بدراسة كتب لغوية وتاريخية لتعدها للطبع ، منها كتاب العين للخليل بن أحمد ؛ وكتاب الطراز الأول فيما عليه من لغة العرب المعول ، للسيد على خان الشيرازى صاحب السلافة ، وكتاب المحيط للصاحب بن عباد الذى قلل فيه الشواهد وكثر الألفاظ . وهناك كثير من كتب اللغة وغيرها من سائر الفنون لم تطبع . »

الأديب بيروت عدد ٥ (مايو ١٩٤٧)

رسالة الأدب — من مقال للأديب عيسى إبراهيم لناعورى عنوانه « الأدب المهجرى أدب رسالة » يحاول فيه فنا من الحديث عن أدب المهاجرين العرب فى أمريكا . ويمهد لذلك بالحديث عن رسالة الأدب ليخلص من ذلك إلى تقرير الحقيقة التى جعلها عنواناً لمقاله ، فيقول عن الأدب العربى فى ماضيه وحاضره :

« إن الأدب العربى فى حياته الطويلة الماضية لم يكن يعرف معنى « الرسالة الأدبية » فقد كانت المقاييس الكبرى للأدب هى أن يكون تعبيراً عن عاطفة مهما يكن نوعها ، أو تصويراً للنفس أو للمجتمع ، فى صدور ضيقة أو واسعة . لذلك كنا دائماً نعتبر الشعر والنثر هما الجناحان اللذان يتألف منهما « الأدب » . ونحن طبعاً نعتبر كل كلام منظوم « شعراً » وكل كلام غير ذى وزن وقافية « نثراً » ، مهما تكن صفات هذا النثر وذاك الشعر . وعلى هذا القياس تكون خمريات الأخطل وأبى نواس ، وغراميات امرئ القيس وابن أبى ربيعة — على تهتكها وبذاءتها — ، ومدائح المتنبى والبحترى وأهاجى جرير والحطيئة ، ومقامات الحريرى واليازجى ، أدباً ، وأدباً فى الصميم ، تماماً كتأملات المعرى وجبران ونعيمة وأبى ماضى ، تلك التأملات الانسانية التى تنزل على

القلوب برداً وسلاماً ، وترفع النفوس معها ، بعد أن تجردها من أوضار الطين وعبودية المادة ، وتحلق بها فى عوالم يغمرها النور ، وتتألق فى حواشيها ابتسامات التعزية والسعادة .

« هكذا كانت أحكامنا الأدبية السابقة ؛ وما تزال — مع الأسف — أحكام الكثيرين منا إلى اليوم . وهكذا كنا نفهم الأدب . أما نحن أبناء الجيل الحاضر فاننا ننظر إلى الأدب نظرة فيها علو وعمق وسعة، وفيها تقديس ومهابة . فليس المدح عندنا أدباً ، لأنه استجداء صريح ، أو وسيلة إلى الاستجداء فى الغالب ، والاستجداء عندنا ذل ورذيلة . وليس الهجاء عندنا أدباً ، لأنه نقمة وشماتة وبغضاء ، والبغضاء عندنا رذيلة كبرى . وليس التبذل فى الحب والشراب عندنا أدباً ، لأنه دعوة صارخة إلى سيادة الرذيلة . وليس الفخر والحماسة عندنا أدباً ، لأنها غرور وكبرياء ، والغرور والكبرياء عندنا من أمهات الرذائل ، لا سيما وهما يصدران عن ابن الطين . ومتى كان للطين أن يغتر ويتكبر ؟

« وهكذا نحن اليوم نفهم أن الأدب رسالة تعلم الحياة ، وترشد البشر ، وأن قيمة الأدب هى فى مايسديه إلى الحياة وإلى الناس من خير ، أو فيما يمكن أن ينتجه فى الحياة من خير للأحياء . فالأديب — كما يقول نعمة قازان — هو « كل من يدلنى على الطريق ، ويسير أمامى . »

الأدب للانسان — وفى العدد نفسه من مجلة « الأديب » ، كلمة بقلم حميد حمدى محمود ، يحوم فيها حول ذلك الموضوع حوماً ، فيقول :

« يجب أن نثبت أولا أن الأدب للأدب مغالطة سفسطائية لا وجود لها فى الواقع ، وإن وجدت فان وجودها شئ شنيع يجب الاقلاع عنه .

«الأدب إذن للانسان ! ومن هذه الحقيقة يجب أن نبدأ . فالأدب الذى يخدم الانسان هو الأدب ، وذلك هو أدب الواقع ، فقلما يتفق اثنان على الأحاسيس ، وإذا اتفق أن وجد هذا الاتفاق فبين اثنين كبت كلاهما مطالبه النفسية الانسانية وتنكر لها ولبس لزميله لبوس الغيرية فخرج عن نطاق ذاته الخاصة وعقها .

« هذه هى نقطة الفصل بين الأدب الواهن الضعيف التأثير الذى يكتبه كاتبه لا من معمعان واقعه الدوار ، ولا من صراعاته مع الشدائد

التى عاناها ، بل من صفحة فكره البارد المتحجر . فنحن – على الأغلب نفضل العناوين الضخمة مثلا ، القضايا الغريبة لنختارها موضوعاً لكتاباتنا . وهذا بالطبع نوع من الهزيمة الأدبية ، ولو اختار كل أديب أسلوباً لنفسه يختطه وفلسفة عليا يستلهمها القوة والرشاد فى كفاحه الدموى الحار ، ثم زجم كل ما يقع له من نتيجة سلوكه الشخصى هنا لأفاد الأدب وأفاد القراء فائدة جلى ولغرس فيهم الروح الأدبية الحقة ، روح التحليل والاستقصاء والترجمة عن الحياة لا عن الفكر ؛ فان أدب الفكر قليل النفع .

« إن الأدب لن يكون محقراً فى شئ كتحقيره على أيدى الأدباء المترمتين الذين يقصدون أن يروجوا شيئاً أرادوه لا حقيقة صرخت بها الطبيعة فى أعماقهم .

« فخير لنا إذن أن نبتعد عن الأدب النابع من الفكر ونقبل على أدب الواقع أدب الحياة والتقدم والنماء ... أدب الصعوبة والألم الممض ، أدب الصراع العنيف ، أدب المعارك المدومة الدائرة » .

الديمقراطية فى الشرق – وتقتبس مجلة «الأديب» فى باب البريد الأدبى ، كلمة عن جريدة « كل شئ » اللبنانية ، يقول كاتبها الأستاذ عبدالله العلايلى عن الديمقراطية فى لبنان ، فكأنما خيل إلى أنه يتحدث عن أزمة الديمقراطية فى الشرق كله لا فى لبنان وحده :

« نحن إنما انسقنا فى تيار الديمقراطية ، لا لأننا حملنا عليها حملا بل لأنها أعمق معنى فى طبيعتنا . . . وهى (أى الديمقراطية) من هذه الطبيعة كالنبض الحى للقلب البشرى يكون أبداً العلامة على الصحة أو المرض .

« والديمقراطية اتخذت ضمانتها فى النيابة ، فهل كانت النيابة لدينا ضمانة حقيقية ؟

« يسوءنى أن أجيب ، وأن أكون فى جوابى أكثر ميلا إلى التشاؤم ، ويسوءنى فوق ذلك أن يكون هذا الجواب صدى لهمس كل ذلك الشعب المرهق .

« ولكن الشعب بعد اليوم لن يهمس همساً ، فالهمس جبانة . . . ولن يعتزل الميدان فالاعتزال خيانة . »

فى مجلات الغرب

من لنـدن

هورايزون Horizon (عدد ابريل ١٩٤٧)

فى الأدب — كلنا يعرف أن الكتاب القصصين الأمريكيين يثيرون الاهتمام بالمباحث والدراسات الطويلة العميقة فى البيئات الأدبية فى جميع أقطار العالم وفى أوربا خاصـة . ومصدر هذا طرافة هذا الأدب ولا سيما عنفه الشديد . ونرى مثلا لهـذا الاهتمام فى مجلة « الفكر الحديث » العراقية . قرأنا شهريتها « جـولة فى مجلات العالم » ، فرأينا فيها الكاتب يقول عن فصل لهنرى ميلر Henry Miller ظهر فى مجلة «لارش» L'Arche : « . . . وليس من شك أن فى هذين القولين شيئاً كثيراً من الرومانتيكية إلا أنه يجب ألا يغرب عن البال أن ميلر يعيش فى بلاد الجهاد والفراغ الروحى ، فى أمريكا ، وأنه لايمكن أن يكون هناك ثورة جبارة من دون رومانتيكية » .

أما فى مجلة « هورايزون » فنقرأ دراسة طويلة قد نشرتها مجلة « كنيون ريفيـو » The Kennyon Review لأول مرة عن الكاتب الأمريكى الكبير إرنست هيمينجوى E. Hemingway وعنوان هذا المقال : « القصصيـون الفلاسفة : هيمينجوى » وصاحبـه روبرت پن وارن [١] . وهو مقال طويل ، قسمه الناقد إلى ثلاثة أقسام . يصف لنا فى القسم الأول مايسميـه « عالم هيمينجوى » . ونرى من أول جملة فى هذا القسم اعتراف الكاتب بعنف مؤلف « وداع السلاح » [٢] ويقول ر. ب. وارن إن وراء كل حوادث قصص هيمينجوى ظل الخراب ماديا كان أو روحيا ، وإن أشخاص هـذه الحوادث يقاومون الهزيمة أو الموت ،

---

(١) Novelist-Phiosophers, X : Hemingway, by Robert Penn Warren

(٢) A Farewell to Arms

ولكنهم يحاولون دائماً أن ينقذوا شيئاً: « إنهم يمثلون صورة لبعض القوانين ، صورة للشرف الذى يجعل الانسان رجلا يمتاز من الذين يتبعون عن غير قصد أهواءهم المضطربة ويدفعهم ذلك إلى الخيبة ». هذا العالم العنيف البائس لم يبتكره هيمينجوى ، إنما كان أيضاً عالم زولا Zola ودرايزر Dreiser وكونراد Conrad وفولكنر Faulkner وقد أخذ هؤلاء الكتاب من علماء القرن التاسع عشر هذا العالم « الذى لا مركز له » . ونجد فى أثناء قراءتنا جملة تذكرنا برأى ناقد « الفكر الحديث » فى هنرى ميلر وهو أن فى بعض قصص لهنرى ميلر شيئاً كثيراً من الرومانتيكية. يقول ر. ب. وارن :« إن العواطف الشعرية والمؤثرة والفاجعة فى موضع لم يكن ينتظر منها شئ ، ليس مقصوراً على هيمينجوى وحده وإنما هو شئ نجده فى كثير من آثارنا الأدبية منذ الحركة الرومانتيكية . » فبين أدب هيمينجوى وميلر صلة الفن ، وبين النقاد الذين فرقت بينهم المسافات صلة الفكر . بعد هذا القسم الطويل يلتفت الناقد إلى قصة من قصص ا. هيمينجوى ويدرسها درساً جيداً . وعنوان القصة : « وداع السلاح » ويهتم صاحبها بالدين وإن لم يأت للقارئ بحل دينى للمشكلات التى يعرضها . وهى تطلب المعنى واليقين فى عالم لا معنى له ولا موضع فيه لليقين .

فى القسم الثالث والأخير لمقاله هذا ، يحاول الناقد أن يدفع عن هيمينجوى بعض الاعتراضات التى وجهت إليه . الاعتراض الأول أن آثاره تخالف الأخلاق . والثانى أنها تنحرف عن مجرى الحياة الحديثة وتجهل البناء الاقتصادى للجماعة . ومعنى هذا الاعتراض الأخير أن قصص هيمينجوى لا تعلم شيئاً لأن أفكاره لم تستمد من الحياة الحديثة أو لأنه لا يقيم أفكاره على أساس متين . ويجيب الناقد على هذا بنقل قول المصلح الدينى سافونارولا Savonarola : « كانت لى أفكار قليلة ولكنها خطيرة[1] » . ويختم ر. ب. وارن مقاله معترفاً بأن هيمنجوى لم يؤد إلينا مصدراً تاريخياً ولا تشخيصاً طبياً (ولم يرد هذا قط) وإنما أدى إلينا أروع الرموز .

واقرأ فى هذا العدد أيضاً مقالا عن الشاعر الايطالى العظيم جياكومو ليوباردى Giacomo Leopardi. وهى

---

(١) «Le mie cose erano poche é grandi.»

الدراسة الأولى من سلسلة دراسات عنوانها العام : « دراسات فى العبقرية »[١] وأهم شئ نفيده من هذا المقال هو أن ليوباردى لم ير فى الحياة إلا عيوبها و إنما كان فى الوقت نفسه يثير فى نفوس قرائه ولعاً بالحياة لايطفأ ؛ لأنه كان يعتقد أن أوهام الانسان لن تموت كلها أبداً .

القرن التاسع عشر وما بعده The Nineteenth Century and After

(عدد ابريل ١٩٤٧)

فى السياسة — فى هذه المجلة ثلاثة فصول موضوعها العام ساحل البحر الأبيض ، وبنوع خاص ثلاثة أقطار فى هذا الساحل هى اليونان وفلسطين ومصر .

أما المقال الأول فعنوانه : «اليونان والامبراطورية والولايات المتحدة » . صاحبه ف. ا. فويجت[٢] وسيتبع هذا المقال مقال آخر أو مقالات أخرى فى نفس الموضوع . أما المقال الأول ، عنوانه «قطاع الطرق» The Bandits فهو يصور لنا ما يسميه هو جرائم العصاة الذين يكونون الجيش الديموقراطى الذى يعترف به الحزب الشيوعى فى اليونان . ولا يمكن القارئ المنصف أن يكون لنفسه رأياً قاطعاً فى هذه المشكلة إلا بعد دراسة عميقة . وهذا من أصعب ما يمكن إذا نظرت إلى اختلاط المصالح التى يعارض بعضها بعضاً فى هذه البلاد الآن . وهذا المقال نفسه دليل على هذا ، إذا لاحظت أن صاحبه متحمس أشد الحماسة ضد من يسميهم بعض زملائه من الصحفيين والكتاب : « بالوطنيين » . ولنعطى فكرة عن شدة بغضه ننقل ختام مقاله ، وهو كما ترى ، منقول من رسالة القديس بولس الحوارى إلى أهل رومية[٣] « حنجرتهم قبر مفتوح . بألسنتهم قد مكروا . سم الاصلال تحت شفاههم . . . أرجلهم سريعة إلى سفك الدم . فى طرقهم اغتصاب وسحق . وطريق

---

(١) *Studies in genius : I, Leopardi*, by Foscarina Alexander

(٢) *Mediterranean Seabord : Greece, the Empire and the United States*, by F.A. Voigt.

(٣) III, 12-17

السلام لم يعرفوه . ليس خوف الله قدام عيونهم . »

يتبع هذا الهجوم العنيف ضد هؤلاء الوطنيين مقال عن فلسطين [١]. فاذا امتاز المقال الأول بعنفه امتاز هذا بجده فى الاعتدال والرفق .

أما المقال الثالث والأخير فعنوانه « مصر والسودان والمعاهدة » . وأهم شئ فى هذا المقال هو المركز الممتاز الذى يخص به الكاتب مسألة السودان. وهى ، فى رأيه ، المانع الوحيد للاتفاق بين مصر و بريطانيا العظمى . . .(؟)

والموضوع دقيق جدا لا يكتفى فيه بنقل جملة أو جمل من هذا المقال ؛ فقد يكون فى هذا النقل ما يلتوى برأى الكاتب عن الطريق التى أرادها. ولا شك أن الذين يهتمون بآراء الانجليز فى هذه المسألة الخطيرة سيقرءون بعناية مقال اللفتنت ـ كولونيل س. ب. بردوود [٢] .

من الجزائر

وصل إلينا العدد الأول من مجلة تصدر فى الجزائر باللغة الفرنسية وعنوانها « فورج » ***Forge*** . ويكتب فيها كتاب من العرب المغاربة ومن الفرنسيين . وتعرض مجلة «فورج» على قرائها ما تريد أن تعمل لخير الأدب والفكر فى شمال أفريقيا. فتقول: « نتمنى أن يلتقى فى أرض المغرب هذه ، أكرم ما فى الفكر الاسلامى القديم والحديث بأكرم ما فى الفكر الفرنسى أمس واليوم . . . وإذا حاولنا أن نجمع فى هذه المجلة أفضل كتاب المغرب الذين يكتبون بالفرنسية ، فنحاول أيضاً أن ننشر ترجمات أبرع المؤلفين فى اللغة العربية . فان غايتنا هى أن العقل وطن مشترك للذين يختلفون فى اللغات والعادات والدين . » وفى العدد الأول مقالات لصلاح الدين تلاتلى ، وهو مراسل المجلة فى تونس ، وقصة قصيرة لمحمود زروقى عنوانها « حمّام » ، والقصة معجبة تجمع بين الروح الشرقى الجاد والمرح الفرنسى . وفى شهرية الكتب نقد قصير لكتاب أحمد توفيد المدنى عنوانه : « المسلمون

---

(١) *Palestine*, by Dudley Danby

(٢) *Egypt, the Sudan and the Treaty*, by Lt.-Col. Hon. C.B. Birdwood

بها فى فرنسا وهو قصة « ضيعة تيوتيم » لهنرى بوسكو[1] . وكان بوسكو فى المغرب حين ألف كتابه هذا الذى يصور حياة ضيعة فى جنوب فرنسا ، وكان يقرأ لصديقه بونجان صفحات هذه القصة شيئاً فشيئاً . ونحن لم ننس أن فرانسوا بونجان عاش فى مصر بضع سنوات ، أستاذاً ، وألف مع المرحوم الدكتور أحمد ضيف كتاباً عنوانه « منصور » عن الحياة المصرية . ويسرنا أن ننتهز هذه الفرصة فنذكر بهذين الاسمين .

فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا » . ومؤلف الكتاب كما نعلم من هذه الأسطر تونسى . ويقول الناقد فى آخر مقاله إن هذا الكتاب جاء فى الوقت المناسب ؛ لأنه لم يكتب عن هذا الموضوع إلا كتاب تاريخ صقلية الاسلامية للمستشرق الايطالى أمارى Amari ، ومقال للعالم التونسى السيد حسن حسنى عبد الوهاب . وفى الشهريات أيضاً لفرنسوا بونجان François Bonjean مقال عن كتاب له شهرة لا بأس

من باريس

العالم الفرنسى *Le Monde Français* عدد ١٦ (أبريل ١٩٤٧)

فى الأدب — إقرأ فى هذه المجلة مقالا لجان لويس بورى عن الكاتب العظيم بلزاك ، عنوانه : « بلزاك والظلمة »[2] .

ويتذكر القارئ الذى يعنى بالأدب الفرنسى الحديث أن جان لويس بورى كان نال جائزة جونكور Prix Goncourt سنة ١٩٤٥ لكتابه « قريتى فى ساعة الألمان »[3] والمقال الذى تقرؤه فى مجلة « العالم الفرنسى » عبارة عن بعض صفحات منقولة من كتاب عنوانه « بلزاك » سيظهر قريباً فى باريس . وسبب عنوان هذه الصفحات «بلزاك والظلمة» ، فى اختيار شخصية « فوتران » Vautrin وسطا لهذه الدراسة . والذين قرأوا « الملهاة

---

(١) Henri Bosco, *Le Mas Théotime*

(٢) Jean-Louis Bory, *Balzac et les ténèbres*

(٣) *Mon village à l'heure allemande*

الانسانية » *La Comédie Humaine* يعرفون الدور المهم الذى يقوم به هذا المجرم الهارب من الأشغال الشاقة فى قصة بلزاك . وتدور دراسة جان ـ لويس بورى حول هذه الجهة ، جهة التخفى العجيب التى تذكرنا بالقصص البوليسية . وهذا رأى مؤلف الكتاب عن بلزاك حين يكتب « بعبارة أخرى إن بلزاك حين جدد القصة القوطية قاده ذلك إلى القصة البوليسية وغمره فى الظلمة الاجتماعية فى نفس الوقت » . إن اتجاه هذا البحث غريب كما ترى ، ولكنه يلقى على آثار بلزاك ضوءاً عجيباً .

أمينة طه حسين

جائزة الكاتب المصرى للقصة

قرأت اللجنة ما قدم إليها من قصص لمسابقة الكاتب المصرى فلم تجد بينها ما يستحق الانفراد بالجائزة كلها . وإنما وجدت قصصاً لها حظ من جودة ، ويستحق أصحابها التشجيع ؛ لأنهم خليقون إذا جدّوا وأخلصوا ، وأكثروا من القراءة والملاحظة ، ونسوا أنفسهم شيئاً ما ، أن يعظم حظهم من الرقى فى التصوير والتعبير جميعاً .

ولذلك قررت اللجنة تقسيم الجائزة إلى جائزة أولى ، وقدرها ستون جنيهاً تمنح للأستاذ محمد حكمت محمد صاحب قصة « قلب يتفتح » ، وجائزة ثانية قدرها أربعون جنيها تمنح للأستاذ أحمد محمد عيش صاحب قصة « صرعى البؤس » ، وأوصت اللجنة دار الكاتب المصرى بأن تنشر قصة « ليلى » لصاحبها ابن الريف إن أراد .

محمود تيمور بشر فارس

ابراهيم عبد القادر المازنى

حسن محمود طه حسين

القاهرة فى ٢٤ مايو ١٩٤٧